فتح الولي الحميد

في شرح كتاب

الدر النضيد

في إخلاص كلمة التوحيد

للإمام

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني رحمه الله

المتوفى سنة (١٢٥٠هـ)

شرحها: فضيلة الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

حفظه الله

اعتنى به وأعده للنشر

فهد بن إبراهيم الفعيم

دار ابن الجوزي

فتح الولي الحميد

في شرح كتاب

الدر النضيد

في إخلاص كلمة التوحيد

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ،١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفعيم ، فهد إبراهيم
فتح الولي الحميد في شرح كتاب الدرر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد.
صالح بن فوزان بن الفوزان/ فهد إبراهيم الفعيم - ط ١ . - الدمام ، ١٤٤٣ هـ
٢٨٠ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك : ٨-٨٥-٨٠٦٠-٦٠٣-٩٧٨
١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية أ. الفعيم، فهد ابراهيم محمد (مؤلف مشارك) ب. العنوان
ديوي ٨ , ٢١٠ ١٤٣٨/٣٩٨٤

رقم الإيداع : ١٤٣٨/٣٩٨٤
ردمك : ٨-٨٥-٨٠٦٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٤٣هـ

الباركود الدولي: 9786038060858

دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

فتح الولي الحميد

في شرح كتاب

الدر النضيد

في إخلاص كلمة التوحيد

للإمام

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني رحمه الله

المتوفى سنة (١٢٥٠هـ)

شرحها: فضيلة الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

حفظه الله

اعتنى به وأعده للنشر

فهد بن إبراهيم الفعيم

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وبعد: فقد أذنت للشيخ فهد بن إبراهيم الفعيم بطباعة كتابي: (فتح الولي الحميد في شرح كتاب الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد) للإمام الشوكاني رحمه الله، راجياً من الله أن نشترك في الأجر عند الله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه مؤلف الكتاب:

صالح بن فوزان الفوزان

[signature]

في ١٦/٩/١٤٢٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فقد انتهينا ولله الحمد من شرح رسالة الإمام الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد»، والآن نشرع في رسالة الإمام الشوكاني: «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد»، وغرضنا من ذلك الرد على الذين يقولون: إن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ إلى التوحيد إنما هي مذهب خاص به، ويسمونه «المذهب الوهابي»، وكل من ينكر الشرك يقولون عنه: وهابي! بزعمهم أن هذا شيء انفرد به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، والصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ كان معاصرًا للشيخ ومدحه وأثنى عليه وعلى دعوته؛ في قصيدته المشهورة التي أولها:

سلامي على نجد ومن حل في نجد وإن كان تسليمي على البُعد لا يجد

إلى قوله:

قفي واسألي عن عالم حل سوحها به يهتدي من ضل عن منهج الرشد

يعني: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عالم نجد والداعية إلى الله، والإمام الشوكاني جاء بعده في القرن الثالث عشر؛ لأنه توفي رَحِمَهُ اللَّهُ عام ألف ومائتين وخمسين في منتصف القرن الثالث عشر، وهذا الإمام أثنى على دعوة الشيخ واهتم بالتوحيد وهو: إفراد الله بالعبادة، وله رسالة في تحريم البناء على القبور اسمها: «شفاء الصدور بتحريم البناء على القبور»، وله كلام جيد

في «نيل الأوطار» في هذا الموضوع أيضًا، فلم ينفرد ـ ولله الحمد ـ الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بهذه الدعوة، وإنما هي دعوة الأنبياء والمرسلين والأئمة المهتدين، والشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ إنما قام ببيانها وتجديدها والدعوة إليها بعدما اندرست، هذا الذي قام به رَحِمَهُ اللَّهُ، ونفع الله بدعوته، وأنقذ الله بها أممًا وأجيالًا كانت غارقة في الشرك إلا من رحم الله في نجد وغيرها، فلم ينفرد الشيخ بهذا الأمر، وإنما هو سائر على منهج الأنبياء والمرسلين ومنهج الأئمة، وشاركه في ذلك من معاصريه أئمة كبار؛ كالإمام الصنعاني والإمام الشوكاني في اليمن وغيرهم كثير، كلهم ـ ولله الحمد ـ ساروا على هذا المنهج، فلا تخلو ـ ولله الحمد ـ البلاد والأمصار من دعاة إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وإن كانوا منبوذين ومضايقين لكنهم صامدون ولله الحمد، ومن هؤلاء جماعة أنصار السُّنَّة المحمدية في مصر وفي السودان وفي غيرهما من البلدان، وجماعة أهل الحديث في الهند، يقومون بهذه الدعوة ويبينونها للناس، فهذه الدعوة ليست خاصة بأهل نجد، ولا بالشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإنما هي دعوة الأنبياء والمرسلين، ومن سار على منهجهم إلى يوم الدين، فنحن قرأنا هذه الرسائل «تطهير الاعتقاد»، و«الدر النضيد»، وما يأتي بعد ذلك ـ إن شاء الله ـ كله لبيان ورد هذه الفرية التي يقولها هؤلاء الخرافيون والقبوريون، يقولون: هذا وهَّابي بزعمهم، وأن هذا شيء لم يدعُ إليه إلا محمد بن عبد الوهاب، بل يسمون الشيخ محمد بن عبد الوهاب بـ«قرن الشيطان» ـ والعياذ بالله ـ، حتى قال بعضهم: إن محمد بن عبد الوهاب يقصد الشهرة، وكان يضمر في نفسه أن يدعي النبوة! ولكن لما رأى الناس لا يستجيبون له سكت عن هذه الدعوة؛ قال هذا الشيخ دحلان في كتابه «الدرر السنية في الرد على الوهابية»[1]؛ فهل هذا يقوله عاقل؟! من الذي يطلع على القلوب؟ إنما هو الله ﷻ، لكن العداوة ـ والعياذ بالله ـ حملت هذا القائل، وهذا الكتاب يطبعونه الآن ويوزعونه في أفريقيا وفي غيرها.

---

(١) ذكر ذلك في كتابه المذكور ص٥٠.

وقد قيض الله من رد عليه من أهل الهند ـ وليس من أهل نجد ـ، وهو الإمام السهسواني رَحِمَهُ اللَّهُ رد عليه بكتاب سماه: «تحذير الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان»، وغرضنا أن نبين أن هذه الدعوة هي دعوة الأنبياء والمرسلين والأئمة المهتدين إلى يوم القيامة؛ وإن عاداها من عاداها، والإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ هو: الإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، نسبة إلى شوكان قرية باليمن، وهي بلدته التي نشأ فيها.

❋ ❋ ❋

«الدرُّ النَّضيد في إخلاص كلمةِ التوحيد»

الشَّرْح

هذا اسم هذه الرسالة: «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد».

و(**الدُّر**) معروف، وهو: جمع دُرة، وهي شيء نفيس يؤخذ من البحر ويُتحلى به، وهو غالي الثمن.

(**النضيد**)؛ يعني: منضود؛ أي: منظوم في سلك، فالمؤلف شبّه هذه الرسالة بالدر النضيد؛ أي: أنها رسالة قيمة والكلام فيها دُر؛ لأنه مأخوذ من الكتاب والسنة وكلام الأئمة.

(**في إخلاص كلمة التوحيد**): كلمة التوحيد هي (لا إله إلا الله)، تسمى كلمة التوحيد؛ لأنها تنفي العبادة عن غير الله وتثبت العبادة لله وحده، وتبطل جميع الآلهة ما سوى الله، وتسمى كلمة الإخلاص وكلمة التقوى ومفتاح الجنة، وهي كلمة عظيمة تتكون من نفي وإثبات: نفي الشرك وإثبات التوحيد، وأنه لا إله حق إلا الله ﷻ، فهو الإله الحق وما سواه فهي آلهة باطلة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج]، هذه كلمة التوحيد، وتسمى «كلمة الإخلاص»؛ لأنها تُخلص العبادة لله وتنفيها عما سواه، وتسمى «كلمة التقوى»، قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، فهي كلمة التقوى، وتسمى (العروة الوثقى)، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فمعنى (لا إله إلا الله)، الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فـ(لا إله) هذا كفر بالطاغوت،

الشَّرْح

(إلا الله) هذا إيمان بالله وحده، فهي العروة الوثقى، وهي كلمة التقوى، وهي كلمة الإخلاص، وهي مفتاح الجنة كما في الحديث: «**مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ شَهَادَةُ أَلَّا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ**»[(١)] ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة[(٢)]، وليس المراد النطق بها فقط، بل المراد النطق بها مع اعتقاد معناها، والعمل بمقتضاها، أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ومن غير عمل بمقتضاها فإنه لا يفيد شيئًا.

وقوله: (إخلاص كلمة التوحيد)؛ لأن هناك من يقول: لا إلٰه إلا الله، ولا يُخلص العبادة لله، وهم على قسمين:

القسم الأول: المنافقون الذين يقولونها بألسنتهم ولا يعتقدونها في قلوبهم، وإنما يقولونها نفاقًا.

القسم الثاني: القبوريون الذين يقولونها بألسنتهم ولا يعملون بمقتضاها، فيعبدون غير الله من الموتى والقبور، وهم يقولون: لا إلٰه إلا الله بألسنتهم ويخالفونها بأفعالهم، فلا تنفعهم (لا إلٰه إلا الله)، لأن النبي ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»[(٣)]، فمن قال: (لا إلٰه إلا الله) فإنه يُحكم بإسلامه ويُكف عنه القتل، فإن كان صادقًا نفعته (لا إلٰه إلا الله)، وإن كان كاذبًا كالمنافقين فإنها تنفعه في الدنيا فيُعصم دمه وماله، ولكنها لا تنفعه في الآخرة؛ فهو في الدرك الأسفل من النار، ومن قال: (لا إلٰه إلا الله) وأظهر ما يناقضها كالقبوريين، فهذا يرتد عن الإسلام ويُحكم عليه بالردة ويُعامل معاملة المرتدين؛ لأنه ناقض (لا إلٰه إلا الله) بالشرك بالله، ودعوة غير الله.

---

(١) مسند البزار (٢٦٦٠).

(٢) أخرجه أبوداود (٣١١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥).

الشَّرْح

في الحديث الصحيح أن جماعة من صحابة رسول الله ﷺ كانوا في سرية، فلحق أسامة بن زيد رضي الله عنه، ورجل من الأنصار برجل من الكفار ليقتلوه، فلما أدركاه قال: لا إلٰه إلا الله، فكف عنه الأنصاري، وقتله أسامة بن زيد رضي الله عنه، فلما قدموا على رسول الله ﷺ وذكروا له القصة قال: «**يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ؟**»، قال أسامة: كَانَ مُتَعَوِّذًا[١]! أي: قالها ليتقي بها السيف؟، فقال: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟**»[٢]، «**فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلٰه إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**»[٣]، فما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك، مع أنه ﷺ يحب أسامة حبًا شديدًا، ويحب أباه زيد بن حارثة، ولكنه لامه على هذه الفعلة، مع أن أسامة رضي الله عنه مجتهد، ولم يقره النبي ﷺ على هٰذه الفعلة؛ بل عاتبه عتابًا شديدًا، فمن قال: (لا إلٰه إلا الله) وجب أن يُكف عنه؛ لأننا لا نحكم على ما في القلوب، وإنما نحكم على الظاهر، فمن أظهر الشرك حكمنا بكفره، ومن كان يقول: (لا إلٰه إلا الله) ولم يظهر شيئًا يناقضها؛ فإننا نعامله معاملة المسلم ويحرم دمه وماله، هذا هو المنهج السليم الموافق للكتاب والسُّنَّة؛ ولهذا قال ﷺ: «**فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ**»؛ أي: قالوا: لا إلٰه إلا الله «**عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ**»؛ يعني: إذا جاءوا بشيء يخالف حق (لا إلٰه إلا الله) فإنه لا يعصم دمه ولا ماله، ثم قال: «**وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»[٤] إذا قالوها ولم يُخلُّوا بشيء من حقها فحسابهم على الله، فإن كانوا صادقين فإنها تنفعهم عند الله، وإن كانوا منافقين فإنها لا تنفعهم عند الله، وإن كانت تنفعهم في الدنيا بأن يُحكم بإسلامهم ويُعاملون معاملة المسلمين؛ لأنه ليس لنا إلا الظاهر ما لم يتبين من أحد غير جاهل الشرك والكفر فنعامله معاملة الكفار والمشركين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩).
(٢) أخرجه مسلم (٩٦).
(٣) أخرجه مسلم (٩٧).
(٤) أخرجه البخاري (٢٥).

الشَّرْح

وأيضًا لا بد من الإخلاص في ذلك، قال أبو هريرة ﵁ للرسول ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قال رسول اللهِ ﷺ: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**»(١)؛ يعني: لم يقلها نفاقًا وإنما قالها خالصة من قلبه، وهذا قيد عظيم.

وكذلك قال ﷺ في حديث عتبان: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٢) أما الذي يقولها رياء وسمعة أو نفاقًا؛ فهذا لا يبتغي بها وجه الله، ولا يحرّمه الله على النار، ولكننا نكف عنه ما دام لم يظهر لنا شيء منه ينافيها، قال ﷺ: «**مَنْ قَالَ لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»(٣)؛ لأن هناك الكثير يقولون: (لا إلٰه إلا الله)، لكن لا يكفرون بما يُعبد من دون الله، فإما أنهم يعبدون غير الله كالقبور والأضرحة، وإما أنهم لا يحكمون بكفر من فعل ذلك، فهم لم يكفروا بما يُعبد من دون الله حتى وإن لم يفعلوه، فإذا لم يكفّروا من فعل هذا ولم ينكروه لم تنفعهم هذه الكلمة.

فـ(لا إلٰه إلا الله) كلمة عظيمة ولها قيود وأركان وشروط، ولها واجبات ومستحبات، وهي عنوان الإسلام، فكل الإسلام يدخل تحت (لا إلٰه إلا الله)، فهي كلمة عظيمة وليست مجرد كلمة تُقال باللسان، بل هي كلمة تُقال باللسان ويعتقد معناها بالقلب، ويُعمل بمقتضاها بالجوارح؛ فلذلك الإمام الشوكاني ﵀ وضع هذا العنوان العظيم (إخلاص كلمة التوحيد)؛ يعني: لا إلٰه إلا الله، وقد وضحها أحاديث الرسول ﷺ، ولمَّا قال الرسول ﷺ للمشركين «**قولوا: لا إلٰه إلا الله تفلحوا**» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣).

الشَّـرْح

لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص]، ففهموا معناها، وأن معناها أن يكون الإلٰه واحدًا، وهم عندهم آلهة متعددة لا يريدون تركها، ولو قالوها لأبطلوا عبادة معبوداتهم، وهم عرب فصحاء يفهمون الكلام؛ فأبوا أن يقولوها؛ لأنها تعارض ما هم عليه، فدل على أنه ليس المقصود التلفظ بها فقط، بل لا بد أن يكفر بما يُعبد من دون الله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات]، قال الله جل وعلا: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات]، فهو على منهج المرسلين ولم يأت بشيء جديد، فهذا منهج المرسلين كلهم، فهم يدعون إلى (لا إلٰه إلا الله) وتحقيقها وإخلاصها، ولما قال النبي ﷺ لعمه أبي طالب وهو يُحتضر: «**أَيْ عَمِّ قُلْ: لَا إلٰه إِلَّا اللهُ؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، وكان عنده أبو جهل و عبد الله بن أبي أمية، فقالا: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! والرسول ﷺ لم يقل له: اترك ملة عبد المطلب، بل قال: «**قُلْ: لَا إلٰه إلا الله**»، ولكنهم فهموا أنه إذا قالها ترك ملة عبد المطلب وهي عبادة الأوثان، فكرر عليه الرسول، وكررا عليه: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟»، فأخذته الحمية الجاهلية والعياذ بالله، وقال: «عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»[١]، ومات على ذلك وهو يعلم أن محمدًا ﷺ رسول الله وأنه صادق فيما يدعو إليه، ولكنه قال: ما نحب أننا نسب آلهتنا وآلهة آبائنا، فقال في قصيدته اللامية:

فلولا أن أجيء بسُبَّة ... تُجَر على أشياخنا في المحافل
لكنَّا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدًّا غير قول التهازل

وقال:

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٢).

الشَّرْح

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمعًا بذاك يقينا

فقد أخذته الحمية الجاهلية على دين أجداده وآبائه.

فهي ليست مجرد كلمة تُقال، أو تكرر في الأوراد الصباحية والمسائية مع الإقامة على عبادة غير الله، فيقول: يا الله، ثم يقول: يا حسين، يا علي، يا عبد القادر، وهكذا.

فهذا هو الذي حدا بالإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ أن يؤلف هذه الرسالة؛ لما كان يعايشه في وقته من الشرك المنتشر بعبادة القبور والأضرحة، مع أنهم يقولون: لا إله إلا الله.

والآن نبتدئ بشرح الرسالة:

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، وأصلي وأسلم على رسولك وآل رسولك، وبعد: فإنه وصل إلى الحقير الجاني محمد بن علي الشوكاني ـ غفر الله له ذنوبه، وستر عن عيون الناس عيوبه ـ سؤال من عالم مفضال، عارف بما قد قيل وما يقال في مدارك الحرام والحلال، عند اختلاف الأقوال، وتباين آراء الرجال، وهو العلامة الفهَّامة الأفخم محمد بن أحمد بن محمد

الشَّرْح

قوله: (**وآل رسولك**): يدخل فيهم الأصحاب؛ لأن الآل المراد بهم الأتباع، أما من يقصد الاقتصار على قرابة الرسول ﷺ بالصلاة والسلام فهذا لا يجوز، وهو مذهب الشيعة، والأوضح والأسلم أن تقول: صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، أو على آله وأصحابه أجمعين، فلا تقل: صلى الله على محمد وآله فقط؛ لأن هذا فيه احتمال لمذهب التشيع.

قوله: (**فإنه وصل إلى الحقير الجاني**) هذا من التواضع ومن باب السّجع، وهو يعني نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (**محمد بن علي الشوكاني**) هذا نسبه، والشوكاني نسبة إلى بلدة شوكان في اليمن.

قوله: (**غفر الله له ذنوبه**) هذا اعتراف منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتقصير، لأنه لا يزكي نفسه.

قوله: (**وهو العلامة الفهامة الأفخم محمد بن أحمد بن محمد**

مشحم(١)، أكثر الله فوائده ومد على أهل العلم موائده.

وحاصل السؤال هو عن التوسل ....

الشَّرح

مشحم) هذا عالم من علماء اليمن يسأله ويريد منه توضيح هذه المسألة للناس.

قوله: (وحاصل السؤال هو عن التوسل)، التوسل المراد به: التقرب، والتوسل إلى الله: هو التقرب إليه، والوسيلة هي العبادة، سميت وسيلة لأنها تقرب إلى الله تبارك وتعالى، والتوسل بالمخلوقين لا يجوز، إن كان هذا التوسل معه عبادة لهم، أو صرف شيء من العبادة لهم فهذا شرك أكبر، وهذا ما عليه القبوريون، يتوسلون بهم ويعبدونهم من دون الله، وإذا أُنكر عليهم قالوا: نحن قصدنا التوسل بهم إلى الله. يشركون بهم ويقولون: قصدنا التوسل!، فهذا شرك أكبر وهذا ما عليه أهل الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فهم مع التوسل بهم يعبدونهم، لأنهم اعترفوا أنهم يعبدونهم فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ هل العبادة تصلح لغير الله؟ هل تصلح

---

(١) ولد سنة (١١٦٨) للهجرة قَرَأَ الْفِقْه والفرائض وسَائِر الْعُلُوم على عدد من العلماء، برع فِي النَّحْو وَالصرْف والمنطق والمعاني وَالْبَيَان وَالْأُصُول وَالْفِقْه والْحَدِيث وشارك فِي سَائِر الْفُنُون. قال عنه الإمام الشوكاني في البدر الطالع (٢/ ١١٦): «له ذهن قويم وَفهم جيد وذكاء متوقد وَحسن تصور باهر وَقُوَّة إدراك مفرط». وذكر أنه تولى القضاء في عدد من مدن اليمن، وقال عنه أيضًا: «يكثر الِاتِّصَال بَيْننَا ويجري من المباحث العلمية فِي أَنْوَاع الْعلم أَشْيَاء كَثِيرَة وبيني وَبَينه مَوَدَّة أكيدة ومحبة زَائِدَة وَمَا زَالَت كتبه تصل من هُنَالك تَارَة بمسائل علمية وَتارَة بمطارحة أدبية». توفي فِي شهر رَجَب سنة (١٢٢٣) للهجرة.

بالأموات المشهورين بالفضل، وكذلك الأحياء والاستغاثة بهم ومناجاتهم عند الحاجة من نحو: «على الله وعليك يا فلان»، و «أنا بالله وبك» وما يشابه ذلك، وتعظيم قبورهم واعتقاد أن لهم قدرة على قضاء حوائج المحتاجين، ....

الشَّرْح

للأولياء؟ يقولون: تصلح لأن قصدنا أنهم يقربونا إلى الله، نحن نتقرب إليهم بالعبادة من أجل أن يقربونا إلى الله! يا سبحان الله، وهل الله شرع لكم هذا؟ الله شرع لكم أن تتقربوا إليه وحده، ولا تتقربوا إلى غيره.

فهذا التوسل شرك أكبر إذا كان معه صرف للعبادة لغير الله، أما إذا كان مجرد توسل ليس معه شرك بهم فهذا بدعة ووسيلة إلى الشرك، فإنه يتوسل به في أول الأمر، ثم يذبح له وينذر له ليتقرب إليه، ثم يتحول إلى شرك، فالتوسل بالمخلوق ممنوع؛ لأنه إما شرك، وإما بدعة ووسيلة إلى الشرك.

قوله: (**التوسل بالأموات المشهورين بالفضل**)، التوسل بالأموات لا يجوز أبدًا.

قوله: (**وكذلك الأحياء**)؛ أي: التوسل بدعائهم، بأن تطلب منهم أن يدعو الله لك، فهذا لا بأس به، لأنه بمعنى طلب الدعاء منهم، وهم يقدرون على ذلك وحاضرون عندك.

قوله: (**والاستغاثة بهم ومناجاتهم عند الحاجة**) فهذا شرك.

قوله: (من نحو: **على الله وعليك يا فلان**)؛ يعني: توكلت على الله وعليك، فجعله شريكًا لله في التوكل عليهم.

قوله: (**وأنا بالله وبك**) فجعله شريكا لله، وهذا شرك.

(**وتعظيم قبورهم**)؛ يعني: الموتى، (**واعتقاد أن لهم قدرة على قضاء حوائج المحتاجين**)؛ يعني: اعتقد أن الموتى لهم قدرة على قضاء حوائج

وإنجاح طلبات السائلين، وما حكم من فعل شيئًا من ذلك، وهل يجوز قصد قبور الصالحين لتأدية الزيارة ودعاء الله عندها من غير استغاثة بهم، بل بالتوسل بهم فقط؟

فأقول مستعينًا بالله: اعلم أن الكلام على هذه الأطراف يتوقف على إيضاح ألفاظ هي منشأ الاختلاف والالتباس؛ فمنها: (الاستغاثة) بالغين المعجمة، والمثلثة، ومنها: (الاستعانة) بالعين المهملة والنون، ومنها: (التشفع)، ومنها: (التوسل).

الشَّرح

المحتاجين، كيف يكون له قدرة وهو ميت هامد رميم وقد انقطع عمله؟، قال ﷺ: «**إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ**»[1]، فلا يعمل شيئًا وهو في القبر لا لك ولا لغيرك؛ لأنه مرتهن بعمله، فهو بحاجة إلى من يدعو له ويستغفر له، وأنت لست بحاجة إليه؛ لأنك حي وهو ميت، أنت تقدر على الدعاء والاستغفار والتقرب إلى الله، وهو لا يقدر، وبحاجة إلى دعائك له واستغفارك والصدقة عنه؛ فهذا يجب أن يُعرف، أما إذا انتكست العقول وفسدت الفطر؛ جاء الشر كله.

قوله: (وإنجاح طلبات السائلين، وما حكم من فعل شيئًا من ذلك؟)، هذا هو السؤال.

قوله: (وهل يجوز قصد قبور الصالحين لتأدية الزيارة ودعاء الله عندها من غير استغاثة بهم، بل للتوسل بهم فقط؟) التوسل الذي ليس معه عبادة للمتوسَّل به، بدعة ووسيلة إلى الشرك، فلا يجوز التوسل بالميت بوجه من الوجوه، وأما الحي فيجوز التوسل به بطلب دعائه لك.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٢).

فأما الاستغاثة بالمعجمة والمثلثة: فهي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة كالاستنصار ـ وهو طلب النَّصر ـ، ولا خلاف أنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق..

الشَّرح

قوله: **(الاستغاثة)** بالثاء معناها: طلب الغوث، وهي لا تكون إلا عند الشدة، بخلاف الاستعانة فإنها تكون عند غير الشدة إذا احتجت لشيء تطلب من يعينك من الحاضرين، فالاستغاثة بالحي فيما يقدر عليه عند الشدة: جائزة، كما قال الله جل وعلا عن موسى ﷺ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، تستغيث بمن يحميك من العدو، بمن يحميك من السبع ومن الخطر، وهو يقدر على هذا، وهو حي حاضر، فلا بأس، فالاستغاثة جائزة، أما الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فلا يجوز لا من الأحياء ولا من الأموات، مثل: جلب الرزق، وإنزال المطر، وكشف المرض وغير ذلك، فهذا لا يقدر عليه إلا الله ﷻ.

كذلك الاستعانة تكون عند الحاجة، وليست عند الكربة والضرورة، فتكون عند الحاجة، والتعاون فيما يقدر عليه الإنسان؛ هذا مأمور به، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، وقال ﷺ: **«وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»**[1]، فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه هذا طيب، وأما الاستعانة به فيما لا يقدر عليه؛ فهذا شرك ولا يجوز.

من أنواع العبادة: الاستغاثة، والاستغاثة: هي طلب الغوث من الشدة، فهي أخص من الاستعانة.

والاستغاثة بالمخلوق إذا كانت في أمر لا يقدر عليه إلا الله فإنها لا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

فيما يقدر على الغوث فيه من الأمور، ولا يحتاج مثل ذلك إلى استدلال؛ فهو في غاية الوضوح، وما أظنه يوجد فيه خلاف، ومنه: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]،

الشَّرْح

تجوز؛ لأن هذا نوع من أنواع العبادة التي لا تُجعل إلا لله عز وجل، أما إذا كانت الاستغاثة في شيء يقدر عليه المخلوق؛ كأن وقع إنسان في شدة واستغاث بإخوانه أو بمن يعينه؛ فلا بأس بذلك قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

قوله: (فيما يقدر على الغوث فيه من الأمور) كإنقاذ من مهلكة أو إنقاذ من غرق، أو إنقاذ من حريق، ومن عدو حاضر، فهذا لا بأس فيه.

قوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ أي: ومنه ما حصل من الإسرائيلي لما استغاث بموسى عليه السلام، لما تشاجر هو والقبطي استغاث بموسى؛ لأن موسى من بني إسرائيل، ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ يعني: من جماعته من بني إسرائيل، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾؛ أي: لطم القبطي بكفه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قتله؛ لأن موسى عليه السلام، أعطاه الله قوة، فمات القبطي، فعند ذلك ندم موسى عليه السلام واستغفر، والقصة مذكورة في سورة (القصص)، الشاهد منها: أنه يجوز الاستغاثة بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه.

أما الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه فهذه لا تجوز إلا بالله، وما يفعله القبوريون من الاستغاثة بالأموات وأصحاب الأضرحة فهذا شرك أكبر؛ لأنهم صرفوا نوعًا من أنواع العبادة لغير الله عز وجل واستغاثوا بهم، والأموات لا يقدرون على شيء، فلا يقدرون أن يغيثوا أنفسهم فيما هم فيه، فكيف يغيثون غيرهم؟ بل هم بحاجة إلى من يدعو لهم، ويتصدق عنهم، فالحي لا يستغيث بالميت؛ لأن هذا من انتكاس الفطر والعقول، نسأل الله العافية.

وكما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يُستغاث فيه إلا به؛

الشَّرح

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾؛ يعني: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، فإذا أسلموا ولم يهاجروا فما لكم من ميراثهم من شيء، هذا في أول الإسلام كان التوارث بين المهاجرين هذا معنى ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾؛ أي: حتى يهاجروا ويتركوا البادية، وينتقلوا إلى المدينة من أجل أن يكونوا مع سواد المسلمين، ويجاهدوا معهم، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾؛ يعني: إذا أغار عليهم عدو كافر مشرك فإنكم تساعدونهم؛ لأنهم إخوانكم، والتناصر بين المسلمين واجب، ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ أي: إذا كان الكفار المستنصر عليهم بينهم وبين المسلمين المستنصر بهم ميثاق؛ فلا يجوز للمسلمين أن يقاتلوهم، وفاء بالعهد.

قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ هذا في الاستعانة، والاستعانة هي: طلب العون عند الحاجة في أمر يحتاج إلى الإعانة، هذا لا بأس به لمن يقدر، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] قال ﷺ: **«وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»**(١) أما الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله فلا يُستعان في طلبها إلا بالله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة] هذا فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ؛ يعني: لا نستعين إلا بك، فلا نستعين بمخلوق، هذا فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قوله: (فلا يُستغاث فيه إلا به)؛ يعني: لا يستغاث فيما لا يقدر عليه المخلوق إلا بالله ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

كغفران الذنوب والهداية وإنزال المطر والرزق ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال:

الشَّرح

(**كغفران الذنوب...**) هذا لا يقدر عليه إلا الله، فلا تستغيث فيه بأحد غير الله؛ كتفريج الكربات، هذا لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يُستغاث بالأموات والأضرحة، ولا بالأحياء ولا بالأموات فيما لا يقدرون عليه؛ لأن هذا من الشرك الأكبر، وهذا هو الواقع عند القبوريين أنهم يستغيثون بالأموات وأصحاب الأضرحة، وينادونهم في الشدائد، حتى إنهم إذا وقعوا في البحر وخافوا من الغرق؛ لا يستغيثون بالله وإنما يستغيثون بالأموات والأولياء والصالحين، فزادوا على المشركين الأولين، فالمشركون الأولون إذا وقعوا في الشدة في البحر أخلصوا الدعاء لله؛ لأنهم يعلمون أنه لا ينقذ من الشدائد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]، أما القبوريون فزادوا على المشركين أن شركهم دائم في الرخاء والشدة، بل هو في الشدة أكثر منه في الرخاء والعياذ بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا حصر، (مَنْ) بمعنى النفي (لا)؛ أي: لا يغفر الذنوب إلا الله، فلا أحد يغفر الذنوب إلا الله جل وعلا، فإذا أذنب الإنسان، إذا أشرك، فلا يغفر له إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيطلب المغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ يعني: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله، فلا تطلب المغفرة إلا من الله، لا تطلبها من مخلوق: لا نبي ولا غير نبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: فهداية القلوب لا يقدر عليها إلا الله، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فالهداية على قسمين:

الشَّرح

الأول: هداية الدلالة والإرشاد: وهذه يملكها الرسول والعلماء الربانيون فهم يدعون إلى الله، ويهدون الناس بأن يدلوهم إلى الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذا خطاب للرسول ﷺ أنه يهدي؛ أي: يدل ويرشد عليه الصلاة والسلام، وكل عالم محقق فإنه يدل الناس ويرشدهم ويدعوهم إلى الله.

الثانية: هداية التوفيق وإنزال الإيمان في القلوب: فهذا لا يقدر عليه إلا الله، ولما حرص النبي ﷺ على عمه أبي طالب لما سبق منه من حماية الرسول ﷺ والمدافعة عنه والصبر معه أراد الرسول ﷺ أن يكافئه، فلما مات ولم يدخل في الإسلام قال: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»(١)، وهذا من وفاء الرسول ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة].

وإن احتج أحد باستغفار إبراهيم ﵇ لأبيه: حين قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧]، فهذا عن موعدة وعدها أباه ووفَّى بوعده؛ فلا يقتدى به في ذلك؛ فالرسول ﷺ حرص على هداية أبي طالب، ولكن الله لم يكتب له الهداية بسبب حمية الجاهلية على دين أبيه عبد المطلب فأبى أن يقول: لا إلٰه إلا الله عند الموت؛ فمات على الكفر وعلى الشرك، فقال الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فهداية الدلالة والإرشاد: يقدر عليها المخلوق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ يعني: تدعو إليه وتبينه، وأما هداية القلوب فلا يقدر عليها أحد، لا الرسول ولا غيره، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هذا

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر].

الشَّرْح

خطاب للرسول ﷺ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فلا يضع الهداية إلا فيمن يعلم أنه يصلح لها، فهداية القلوب بيد الله ﷻ، وبعض الناس يغلط في هذا؛ إذا قلت له: أولادك لا يصلون، يقول: الهداية بيد الله! نعم هداية القلوب بيد الله، ولكن هدايتهم بالدعوة والإنكار بيدك، تنكر عليهم وتدعوهم للصلاة بل تضربهم، قال ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١)، نحن لا نطلب منك هداية القلوب، ولكن نطلب منك هداية الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾؛ أي: نعمه؛ لأن المفرد إذا أضيف يعم، فقوله: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نعم الله عليكم، ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا خالق إلا الله، فمنه النعم ﷻ، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣]، فهو الذي يُشكر ﷻ، والمخلوق يُشكر على قدر ما حصل على يده من المعروف ومن الإحسان، أما الشكر المطلق فهو لله ﷻ؛ لأنه هو المنعم الحقيقي، وإنما هذا المخلوق صار سببًا فقط، وقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ هذا استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا خالق يرزقكم من السماء والأرض إلا الله.

من أنواع العبادة: الاستغاثة، قال تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٩]؛ فالاستغاثة هي: طلب الغوث، ولا تكون إلا في حال الشدة والضيق، والاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا بأس بها؛ كأن يعينك

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥).

الشَّرْح

على رد عدوك أو يعينك في حاجة أنت مضطر إليها وهو يقدر عليها، لا بأس بذلك، كما ذكر الله ﷻ عن موسى عليه السلام - في قصته مع القبطي -: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: الذي من بني إسرائيل استغاث بموسى لأن موسى من بني إسرائيل، ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وهو القبطي، من آل فرعون، فموسى عليه السلام كان فيه نجدة وشجاعة وفيه بذل للمعروف والإحسان؛ لأنه طُبع على هذا عليه الصلاة والسلام، فلطم القبطي، ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾؛ يعني: لطمه بيده، وكان موسى عليه السلام قويًا، فقضت عليه هذه اللطمة، ثم ندم موسى عليه السلام وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، واستغفر ربه فغفر الله له، وفرعون وقومه أرادوا أن ينتصروا للقبطي القتيل، فكانوا يسألون عن الذي قتله؛ يريدون الفتك به، فأصبح موسى خائفًا منهم أن يعثروا عليه، ثم حصل شجار بين هذا الإسرائيلي وبين قبطي آخر، فطلب الإسرائيلي من موسى أن يغيثه، فقال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]، وأراد أن ينتقم من القبطي، فقال له القبطي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]، فانكشف أن موسى عليه السلام هو القاتل، وطار الخبر إلى الأقباط وتآمروا على قتل موسى، ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ يعني: مسرعًا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]؛ لأنه انكشف فأنجده الله بهذا الرجل الذي جاء منذرًا له.

وخرج موسى من مصر خائفًا يترقب؛ أي: هرب متوجهًا إلى أرض مدين يريد الفرار، ووصل إلى أرض مدين وكان محتاجًا إلى الماء؛ فجاء إلى البئر التي يستقون منها يريد أن يشرب فرأى امرأتين ضعيفتين، تدفعان غنمهما عن الماء، والناس يسقون، فرقّ لحالهما موسى عليه الصلاة والسلام فقد كان

الشَّرْح

فيه نجدة وشجاعة، وسألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] هذا دليل على ضعف المرأة، فهما امرأتان ولم تستطيعا أن تسقيا الغنم؟! فإن المرأة ضعيفة؛ فسقى لهما ﷺ وأنجدهما، ثم ذهبتا إلى والدهما الشيخ الكبير، وذكرتا له القصة، وما فعله موسى عليه السلام، وهما لا يعرفانه ولكن معروفه الذي بذله أثّر في الفتاتين، ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ هذا فيه أدب النساء، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ هذا أول الفرج لموسى عليه السلام، فذهب إليه وقص عليه القصص وأخبره بما حصل في مصر وأنه مطلوب وخائف، ﴿قَالَ﴾ له الشيخ الكبير: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] فهم ليس لهم سلطان عليك الآن، عند ذلك عرضت إحدى الفتاتين على أبيها أن يستأجره لرعي الغنم، لما رأت فيه من القوة والأمانة والشجاعة، قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، قوي: لأنه سقى لهما الغنم وزاحم الرجال، وأمين: لأنه لم ينظر لهاتين المرأتين؛ بل كان غاضًا لبصره عليه الصلاة والسلام، فعرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يرعى الغنم ثماني حجج ـ أي سنين ـ أو عشر، مهرًا لها، فدل على أنه يجوز أن يكون المهر منفعة، وليس بلازم أن يكون نقودًا أو مالًا، فاستأجره ورعى الغنم في المدة؛ إلى أن أكمل الأجل، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]، فحمل زوجته، وذهب إلى أرضه وديار قومه، وفي الطريق أرسله الله سبحانه وتعالى واختاره رسولًا وكليمًا، هذه قصة موسى، والشاهد منها: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، فدل على أن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزة، وأما الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك؛ لأنه نوع من أنواع العبادة، فلا تجوز الاستغاثة بالأموات والأضرحة والغائبين، ولا الحي الحاضر فيما لا يقدر عليه، فالأموات لا تجوز الاستغاثة

وعلى هذا يُحمل ما أخرجه الطبراني في «معجمه الكبير» أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **«إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، إِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ»**(١)، ....

الشَّـرْح

بهم مطلقًا، وأما الأحياء فيجوز أن يستغاث بمن يقدر فيما يقدر عليه، ولا يجوز أن يُستغاث بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

قوله: (فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بي، إِنَّمَا يُسْتَغَاثُ باللهِ») هذا فيما لا يقدر عليه إلا الله، فحمل المصنف رحمه الله الحديث على النوع الذي لا يقدر عليه المخلوق، وغيره من العلماء قالوا: هذا يقدر عليه المخلوق، فالرسول ﷺ قادر على أن يمنع هذا المنافق وأن يردعه، ولكنه أراد أن يحمي التوحيد من هذه اللفظة حمايةً للتوحيد، وإن كان هذا في الأصل جائزًا، ولكن يُخشى أن يتدرج منه إلى ما لا يجوز.

فالرسول ﷺ سدَّ الباب في هذا وقال: **«إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي»**، وجاءه قوم وقالوا له: «أَنْتَ سَيِّدُنَا» ولا شك أنه هو سيد ولد آدم، كما قال عليه الصلاة والسلام: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»**(٢)، ولكن لما قالوا له: «أَنْتَ سَيِّدُنَا»، خاف عليهم من الغلو، فقال ﷺ: **«السَّيِّدُ اللهُ»**، وإن كان هو سيدهم عليه الصلاة والسلام، والله تعالى قال في حق يحيى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]،

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ ابْنِ لَهِيعَةَ، وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ. (١٠/ ١٥٩) وهو في جامع المسانيد لابن كثير (٥٧٨٠)، وجاء في مسند الإمام أحمد (٢٢٧٠٦) بلفظ: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا يُقَامُ لِي، إِنَّمَا يُقَامُ لِلَّهِ»**. وبهذا اللفظ أيضًا في الطبقات لابن سعد (١/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

فمراده ﷺ أنه لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأما ما يقدر عليه المخلوق فلا مانع من ذلك، مثل أن يستغيث المخلوق بالمخلوق ليعينه على حمل الحجر، أو يحول بينه وبين عدوه الكافر، أو يدفع عنه سبعًا صائلًا أو لصًّا أو نحو ذلك.

وقد ذكر أهل العلم: أنه يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث، ولا مغيث على الإطلاق إلا الله سبحانه، ....

الشَّرح

لكن الرسول ﷺ أراد أن يسد الباب؛ لما رآهم يمدحونه خشي من الغلو، فقال: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»(١)، فهذا من باب حماية التوحيد.

قال المصنف: (فمراده ﷺ أنه لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله)، هذا الذي حمل المؤلف الحديث عليه، والحديث فيه احتمال آخر كما ذكرنا.

قوله: (مثل أن يستغيث المخلوق بالمخلوق ليعينه على حمل الحجر) كما لو أن حجرًا أضر به، أو وقع عليه، أو سد عليه الطريق ولا يقدر على إزالته، فيستغيث بمن يرفع معه هذا الحجر، فهذه استغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه.

يجب على أهل العلم أن يبينوا للناس أن الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله عبادة، فلا تجوز الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه؛ كالاستغاثة بالأموات والأولياء والصالحين والأضرحة، وكذا الاستغاثة بالأحياء فيما لا يقدرون عليه.

قوله: (ولا مغيث على الإطلاق إلا الله سبحانه)، فالمغيث على الإطلاق هو الله، أما إغاثة المخلوق فيما يقدر عليه؛ فالله هو الذي أقدره عليها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٨).

وأن كل غوث من عنده، وإذا حصل شيء من ذلك على يد غيره فالحقيقة له سبحانه، ولغيره مجاز. ومن أسمائه «المغيث والغياث».

قال أبو عبد الله الحَليمي(١): الغياث هو المغيث، وأكثر ما يقال: غياث المستغيثين، ومعناه: المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه، ومجيبهم ومخلِّصهم.

الشَّرْح

وهذا معنى **قوله**: (**وأن كل غوث من عنده**)، حتى إذا أغاثك أحد المخلوقين بما يقدر عليه؛ فهذا من عند الله هو الذي سخَّره لك وهو الذي ساقه إليك؛ فهو من عند الله أيضًا؛ لأنه هو الذي أقدره عليها.

قوله: (**فالحقيقة له سبحانه**)، فالحقيقة أن الإغاثة منه سبحانه، وهذا المخلوق سبب ساقه الله لك، فقول المصنف: (مجاز)، الأوضح أن يُقال: إن الاستغاثة الحقيقية هي من الله ﷻ، وأما إغاثة المخلوق فيما يقدر عليه فهي سبب.

قوله: (**ومن أسمائه المغيث والغياث**)؛ أي: من أسماء الله: (**المغيث**) و(**الغياث**)، والغياث بمعنى المغيث، يا غياث المستغيثين، يُنادى سبحانه فيقال: يا غياث، أو يا غوث المستغيثين.

قوله: (**قال أبو عبد الله الحليمي**) هو من الأئمة الأجلاء من الشافعية. قال هذا الإمام: (**الغياث هو المغيث**)؛ أي: هما بمعنى واحد. قال: (**وأكثر ما يقال: غياث المستغيثين**) أو يقال: يا غوث المستغيثين. (**ومعناه: المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه**) بأن ينقذهم من الدَرَك ومن الهلاك، ومن ذلك

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البُخَارِيُّ الشَّافِعِيُّ أَحَدُ الأَذكيَاء المُوْصُوفِيْنَ، وَمن أَصْحَابِ الوُجُوهِ فِي المَذْهَب، وَكَانَ مُتفنِّنًا سيَّال الذِّهن مُنَاظِرًا طَويْلَ البَاعِ فِي الأَدب وَالبيَان ولد سنة ٣٣٨هـ، وتوفي سنة ٤٠٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٣١)، تاريخ جرجان (١/ ١٩٨).

وفي خبر الاستسقاء في «الصحيحين»: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**»(١)، يقال: أغاثه إغاثةً وغياثةً وغوثًا، وهو في معنى المجيب والمستجيب. قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال، والاستجابة بالأقوال، وقد يقع كل منهما موقع الآخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض فتاواه ما لفظه: والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ﷺ ما هو اللائق بمنصبه

الشَّرْح

قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**»، فالرسول ﷺ نادى ربه في الاستسقاء، فقال: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**» فطلب الغوث من الله كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، وهذا حصل في غزوة بدر، لما تقابل المسلمون والمشركون، وكان المشركون يزيدون على المسلمين في العدد والقوة، فعدد المشركين يبلغ الألف أو أكثر، وعدد المسلمين لا يزيد على ثلاثمائة وبضعة عشر، فالنبي ﷺ وأصحابه استغاثوا بالله أن ينصرهم على المشركين فاستجاب لهم وقال: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فنزلت الملائكة تقوي عزائم المسلمين وتشجعهم على المشركين، وتلقي الرعب في قلوب المشركين، ونصر الله المسلمين، فنصر العدد القليل على العدد الكبير، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾؛ يعني: في بدر، ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

قوله: (يطلب من الرسول ﷺ ما هو اللائق بمنصبه)؛ يعني: يطلب من

---

(١) البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧).

لا ينازع فيه مسلم، ومن نازع في هذا المعنى، فهو إما كافر وإما مخطئ ضال.

وأما بالمعنى الذي نفاه رسول الله ﷺ فهو أيضًا مما يجب نفيها، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو أيضًا كافر، إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها(١).

الشَّرْح

الرسول ﷺ ما يقدر عليه، وهذا جائز ولا ينكره عالم من العلماء، ومن ينكره إما جاهل أو ضال.

قوله: (وأما بالمعنى الذي نفاه رسول الله ﷺ)؛ أي: بقوله: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي**».

قوله: (فهو أيضًا مما يجب نفيه)، فالذي لا يقدر عليه إلا الله يجب نفيه عن المخلوق، فلا يستغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قوله: (ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو أيضًا كافر) فمن أثبت للمخلوق أنه يُستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فهو كافر بلا شك؛ لأنه جعله شريكًا لله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قوله: (إذا قامت عليه الحجة التي يُكفَّر تاركها)؛ أي: أن مثل هذه المسائل قد تخفى على بعض الناس، فيُبين لمن استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ أن هذا شرك ولا يجوز؛ لأنه ربما تلتبس عليه الاستغاثة الجائزة بالاستغاثة الممنوعة، فيُبين له هذا، فإن أصرّ فإنه يُحكم بكفره، وعبّاد القبور الآن قامت عليهم الحجة ولكنهم عاندوا وأصروا على ما هم عليه، فهؤلاء لا شك بكفرهم.

---

(١) الفتاوى (١١/ ١٣).

ومن هذا الباب:

قول أبي يزيد البسطامي(١): استغاثة المخلوق بالمخلوق؛ كاستغاثة الغريق بالغريق.

الشَّرح

قوله: (قول أبي يزيد البسطامي) أبو يزيد البسطامي: من العبّاد ومن أئمة الصوفية القدماء.

قوله: (كاستغاثة الغريق بالغريق) هذا صحيح، فاستغاثة المخلوق بالمخلوق فيما لا يقدر عليه؛ كاستغاثة الغريق في لجة البحر بالغريق، فالغريق لا يقدر أن ينقذ نفسه فكيف يقدر أن ينقذ من استغاث به، وإنما الذي يغيث في هذا الموقف هو الله جل وعلا؛ ولهذا المشركون على شركهم إذا كانوا في البحر وهاجت عليهم الرياح وخشوا من الموت؛ فإنهم يتركون دعاء الأوثان والأصنام والأضرحة ويُخلصون الدعاء لله؛ لأنهم يعلمون أنه لا يخلّص من الشدائد، ولا يغيث في هذه المواقف إلا الله ﷻ، فهم يدعون الله مخلصين له الدعاء في حالة الشدة في البحر؛ لأنهم يعلمون أنه لا يغيث من ذلك إلا الله وهم مشركون، فيخلصون الدعاء لله، لكنهم إذا نجاهم إلى البر عادوا إلى الشرك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]، فيكفر نعمة الله ﷻ، وينسى الذي حصل له في البحر، فالمشركون يُخلصون في الشدة ويشركون في الرخاء، أما عبَّاد القبور فهم يشركون في الرخاء وفي الشدة، فشركهم دائم،

(١) طَيْفُوْرُ بنُ عِيْسَى بنِ شَرْوَسَان البِسْطَامِيُّ، أَحَدُ الزُّهَادُ، من أقواله: لَوْ نَظَرْتُم إِلَى مَنْ أُعْطِيَ مِنَ الكَرَامَاتِ حَتَّى يَطِيْرَ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَروا كَيْفَ هُوَ عِنْدَ الأَمْرِ وَالنَّهْي، وَحِفْظِ الحُدُوْدِ وَالشَّرْعِ، لَهُ نُكَتٌ مَلِيْحَةٌ، وَجَاءَ عَنْهُ أَشْيَاء مُشْكِلَةٌ لَا مَسَاغَ لَهَا، الشَّأْنُ فِي ثُبُوْتِهَا عَنْهُ، أَوْ أَنَّهُ قَالَهَا فِي حَالِ الدَّهْشَةِ فَيُطْوَى وَلَا يُحْتَجُّ بِهَا، توفي سنة ٢٦١هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦).

وقول الشيخ أبي عبد الله القرشي[١]: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون.

وأما الاستعانة بالنون: فهي طلب العون، ولا خلاف أنه يجوز أن يُستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه من أمور الدنيا؛ كأن يستعين به على أن يحمل معه متاعه، أو يعلف دابته، أو يبلغ رسالته، وأما ما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا فلا يُستعان فيه إلا به، ومنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

الشَّرْح

فإذا وقعوا في البحر وخشوا من الغرق؛ صاروا ينادون بالأولياء والصالحين ويستغيثون بهم، فصار المشركون الأولون أعلم منهم بالتوحيد.

قوله: **(وأما الاستعانة)** الاستعانة تكون عند الحاجة فقط، وهي بالنون، وتجوز بالمخلوق فيما يقدر عليه، قال الله جل وعلا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقال النبي ﷺ: «**وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[٢]، فتجوز الاستعانة بالمخلوق في أمور الدنيا والحاجة إلى المال، وأن يحمل معه شيئًا ثقيلًا، أو يعينه على بناء بيت وما أشبه ذلك، وليس هذا من الشرك، ويُثاب الذي يعين أخاه، أما الاستعانة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فهي شرك، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فلا يُستعان إلا بالله فيما لا يقدر عليه المخلوق؛ كأمور الآخرة كالمغفرة وقبول التوبة، فهذه لا يقدر عليها إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تقديم المعمول يفيد

(١) له أكثر من ترجمة. قال عنه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر قوله هذا: الْمَشْهُورِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ. وأثنى على قوله، انظر مجموع الفتاوى (١/ ١٠٦ ـ ١١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

وأما التشفع بالمخلوق: فلا خلاف بين المسلمين أنه يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا، وثبت بالسنة المتواترة، واتفاق جميع الأمة.........

الشَّرْح

الحصر، فنحصر العبادة لله، والاستعانة وسائر أنواع العبادة في الله وحده، فلا نعبد غيره ولا نستعين بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، وهناك أشياء يقدر عليها المخلوق، ودلت الأدلة على جواز الاستعانة به فيها، وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فهو المراد بالآية، فهذا لا يكون إلا لله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (وأما التشفع بالمخلوق) التشفع بالمخلوق فيما يقدر عليه من الدعاء، بأن يدعو الله لك فهذا شفاعة، فإذا دعا لك فقد شفع لك عند الله، وكذلك إذا كان له جاه أو معرفة بالناس، وشفع لك عند من عنده حوائج الناس من الأغنياء أو من الملوك؛ فلا بأس بذلك، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، وقال ﷺ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ**»(١)، فالشفاعة التي يقدر عليها المخلوق مرغّب فيها، ومن ذلك الدعاء: أن تطلب من أخيك أن يدعو الله لك، ومن هذا الصلاة على الجنازة فإنها شفاعة؛ لأن المصلين يدعون للميت، وهذا شفاعة له عند الله عَزَّ وَجَلَّ؛ أما الشفاعة في المحرّم فلا تجوز، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، فلا يجوز للإنسان أن يشفع في شيء محرم، والرسول ﷺ أنكر على أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أراد أن يشفع عنده في ترك قطع يد سارقة، قال: «**أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللهِ؟!**»، أما الشفاعة الحسنة ففي مصالح العباد؛ كأن تشفع لأحد عند السلطان، أو تشفع لأحد عند التجار، وعند من له قدرة أن يُعين، فلا بأس بهذا، وهذه الشفاعة تؤجر عليها.

وهذا معنى **قوله: (يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين)** الأحياء في

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢).

أن نبينا ﷺ هو الشَّافع المشفَّع، وأنه يشفع للخلائق يوم القيامة، وأن الناس يستشفعون به، ويطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربه،.......

الشَّرْح

الدنيا فيما يقدرون عليه، أما الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ فلا أحد يشفع عند الله فيها إلا بإذنه.

وقوله: (أن نبينا ﷺ هو الشافع المشفع) لا شك أن الشفاعة حق ولكن لها شروط؛ فإذا كانت الشفاعة في أمور الدنيا وفيما يقدر عليه الإنسان فلا بأس، وإذا كانت الشفاعة عند الله فلا تجوز إلا بشرطين:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: أن يرضى الله عن المشفوع فيه، بأن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، أما المشرك فلا تنفعه شفاعة الشافعين؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].

قوله: (أن نبينا ﷺ هو الشافع المشفع) وكذلك غير النبي ﷺ يشفع أيضًا، فدعاء المؤمنين بعضهم لبعض شفاعة عند الله ﷻ، وكذلك الأولياء والصالحون يشفعون لغيرهم يوم القيامة، والأطفال الصغار الذين ماتوا أفراطًا يشفعون.

قوله: (وأن الناس يستشفعون به)؛ أي: بالنبي ﵇ وهذه الشفاعة الكبرى؛ لأنها تشمل المؤمن والكافر، فهم يطلبون من الرسول أن يشفع لهم عند الله في أن يخلصهم من الموقف، فهذه شفاعة عامة للمؤمن والكافر، فيستأذن من ربه ويدعو ربه حتى يؤذن له، فيدعو الله أن يأتي لفصل القضاء بين الناس ويريحهم من الموقف.

قوله: (ولم يقل أحد من المسلمين بنفيها قط)، الشفاعة العظمى مجمع عليها، أما شفاعته في أهل الكبائر من أمته؛ فهذه يخالف فيها الجهمية والمعتزلة، يقولون: لا شفاعة فيمن دخل النار ولو كان من المؤمنين فلا

ولم يقع الخلاف إلا في كونها لمحو ذنوب المذنبين، أو لزيادة ثواب المطيعين، ولم يقل أحد من المسلمين بنفيها قط.

وفي «سنن أبي داود» أن رجلًا قال للنبي ﷺ: «إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ»، فقال: **«شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ»**(١)، ....

الشَّرح

شفاعة فيه، وينكرون الأحاديث الواردة في ذلك، أما أهل السُّنَّة والجماعة فيثبتونها.

قوله: (ولم يقع الخلاف إلا في كونها لمحو ذنوب المذنبين) فالشفاعة الأولى وهي الشفاعة العظمى لم يختلفوا فيها، وإنما الخلاف في الشفاعة في عصاة الموحدين، فالجهمية والمعتزلة نفوها.

قوله: (أو لزيادة ثواب المطيعين) فتكون الشفاعة في بعض أهل الجنان لرفعة درجاتهم في الجنة.

قوله: (ولم يقل أحد من المسلمين) الذين هم على السنة والجماعة بنفيها، وإنما خالفت فيها الفرق الضالة؛ كالجهمية والمعتزلة.

قوله: (وفي «سنن أبي داود») الحديث، وقد عقد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ بابًا على هذا الحديث، فقال: باب: لا يستشفع بالله على أحد من خلقه؛ لأن الرسول ﷺ أنكر على الرجل الذي جاء يطلب منه ﷺ أن يستسقي للمسلمين وقال: «ونَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ»، فغضب الرسول ﷺ عليه لما قال: «ونَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ»، فقال ﷺ: **(شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِك، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ)**؛ لأن المشفوع عنده أعظم من الشافع، فهو جعل الله شافعًا عند المخلوق، وهذا تنقص لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٨).

فأقره على قوله: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ»، وأنكر عليه قوله: «نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ»، وسيأتي تمام الكلام في الشفاعة.

الشَّرْح

(**فأقره على قوله: «نَسْتَشْفِعُ بكَ عَلَى اللهِ»**)؛ بمعنى: نطلب منك الدعاء لنا بالسقيا، فهذا لم ينكره الرسول ﷺ، وكان الصحابة يطلبون من الرسول أن يستسقي لهم.

قوله: (وأنكر عليه قوله: «نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ»)؛ لأن المشفوع عنده أعظم من الشافع، فهو بهذا جعل الرسول ﷺ أعظم من الله.

التوسل إلى الله جل وعلا: منه شيء ممنوع، ومنه شيء جائز، وهو أنواع:

أولًا: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، تقول: يا رحمٰن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا رزاق ارزقني؛ تتوسل إليه بأسمائه ﷻ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ وأيوب عليه السلام قال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء]، فتوسل إلى الله برحمته؛ لأنه أرحم الراحمين، فالله جَلَّ وَعَلَا استجاب له، فالتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته مشروع، بل هو مطلوب ومرغّب فيه.

ثانيًا: التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة التي أسلفها العبد، بأن يكون له أعمال صالحة ووقع في حاجة أو في شدة فيتوسل إلى الله بما سبق له من الأعمال الصالحة، وهذا جائز أيضًا، بدليل حديث أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة فسدت عليهم الغار، فقالوا: «**إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ**»، فتوسل الأول إلى الله ببره بوالديه، والثاني توسل إلى الله بحفظه لأجرة الأجير حتى جاء وأخذها، والثالث توسل إلى الله بعفته عن الزنى، فلما تمكن من المرأة التي كان يريدها

وأما التوسل إلى الله ـ سبحانه ـ بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربه؛ فقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي ﷺ؛ إن صح الحديث فيه(١).

الشَّرْح

ويراودها، ولم يبق إلا مواقعة الفاحشة وقد جلس بين رجليها، قالت: «**لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ**»(٢)، فقام الرجل وتركها وترك ما أعطاها من الدراهم، وتاب إلى الله، عند ذلك انفرجت الصخرة وخرجوا يمشون، فهذا من التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة.

ثالثًا: التوسل إلى الله بدعاء الصالحين، وهذا جائز، أن تطلب من رجل صالح أن يدعو لك.

أما التوسل الممنوع فهو التوسل بجاه الشخص، أو بحق النبي، أو بحق فلان، أو التوسل بذات الشخص، فهذا كله لا يجوز.

والشيخ عز الدين بن عبد السلام هو المسمى بسلطان العلماء، وهو من أئمة المالكية؛ **فقوله**: (**إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي ﷺ إن صح الحديث فيه**) هذا رأي لبعض العلماء، أنه يجوز التوسل بذات النبي إلى الله، ولكن الصحيح أنه لا يجوز إلا التوسل بدعاء النبي أما ذاته فلا يتوسل بها، فلا يتوسل بالمخلوق إلى الخالق؛ لأن هذا معناه الإقسام على الله، فقوله: أسألك بنبيك، هذا قسم، لأنك تقسم على الله بنبيه! هذا لا

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى (١/ ٣٧٤): «وَرَأَيْت فِي فَتَاوِي الْفَقِيهِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّلَام قَالَ: لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَوَسَّلَ إِلَى اللهِ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ إِلَّا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إنْ صَحَّ حَدِيثُ الْأَعْمَى: فَلَمْ يَعْرِفْ صِحَّتَهُ. . . ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَا يَدُلُّ إلَّا عَلَى التَّوَسُّلِ بِدُعَائِهِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الْإِقْسَامِ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَلَا مِنْ بَابِ السُّؤَالِ بِذَاتِ الرَّسُولِ كَمَا تَقَدَّمَ».

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٢).

ولعله يشير إلى الحديث الذي أخرجه النسائي في «سننه» والترمذي وصححه وابن ماجه وغيرهم: أن أعمى أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبت في بصري فادْعُ اللهَ لي، فقال له النبي ﷺ: «**توضأ وصل رَكْعَتَيْنِ، ثم قل: اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُك وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْك بِنَبِيِّك مُحَمَّدٍ، يَا مُحَمَّد إِني أَشْفَعُ بِكَ فِي رَد بَصري، اللَّهُمَّ شَفِّع نبيي فيَّ**»، وقال: «**فإن كان لك حاجة فمثل ذلك**»[(١)]، فرد الله بصره.

الشَّرْح

يجوز، وإنما تتوسل إلى الله باتباعك له وتصديقك به ومحبتك له، وهذا عمل صالح، فهذا جائز، أما التوسل بذات النبي؛ فلا يجوز، وإن كان ابن عبد السلام أجاز هذا.

قوله: (ولعله يشير إلى الحديث) وحاصله أن الأعمى توسل إلى الله بدعاء النبي ﷺ؛ لأنه طلب من النبي أن يدعو الله أن يرد عليه بصره، والنبي ﷺ أمره أن يتوضأ وأن يصلي وأن يدعو، والرسول ﷺ أيضًا يدعو له، وقال: (**اللَّهُمَّ شَفِّع نبيي فيَّ**)؛ أي: اقبل دعاءه لي، فتقبل الله دعاء النبي ﷺ ورد عليه بصره، فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ، وليس توسلًا بذاته، لأنه **قال: (فادْعُ اللهَ لي)**، **وقوله: (اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُك وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْك بنَبيِّك مُحَمَّدٍ)**؛ يعني: بدعائه؛ لأنه طلب من النبي أن يدعو له، فالحديث يفسر بعضه بعضًا.

قوله: (يَا مُحَمَّد إِني أَشْفَعُ بكَ فِي رَد بَصري، اللهم شَفِّع نبيي فيَّ)؛ يعني: اتشفع بدعاء النبي؛ لأنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فالرسول قال له: توضأ وصل وادعُ بهذا الدعاء، فالرسول دعا والرجل دعا، فاستجاب الله له، فهذا من التوسل بدعاء الشخص.

(١) رواه الإمام أحمد (١٧٢٤٠)، والترمذي (٣٥٧٨)، والنسائي (١٠٤٩٥)، وابن ماجه (١٣٨٥).

وللناس في معنى هذا قولان:

أحدهما: أن هذا التوسل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب لما قال: «**كُنا إذا أجدبنا نَتَوَسَّلُ بِنَبِيِّنَا إِلَيْكَ فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا**»، وهو في صحيح البخاري[(١)] ـ وغيره ـ؛ فقد ذكر عمر ﵁ أنهم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ في حياته في الاستسقاء، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته، وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه، فيكون هو وسيلتهم إلى الله، والنبي ﷺ كان في مثل هذا شافعًا وداعيًا لهم.

والقول الثاني: أن التوسل به ﷺ يكون في حياته، وبعد

الشَّرْح

قوله: (وللناس في معنى هذا قولان)؛ يعني: معنى هذا الحديث.

فقول عمر ﵁: (**نَتَوَسَّلُ بنَبيِّنَا إِلَيْكَ فَتَسْقِينَا**)؛ يعني: بدعاء النبي ﷺ.

وقوله: (وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بعَمِّ نَبيِّنَا) وذلك لما مات الرسول ﷺ وصار لا يمكن طلب الدعاء منه، فطلبوا من أقرب الناس إليه وهو عمه العباس، فطلب عمر من العباس أن يدعو للمسلمين بالغيث، فدعا العباس وهم يؤمِّنون، فسقاهم الله ﷻ، فهذا من التوسل بدعاء الصالحين؛ وقصة الأعمى من هذا النوع، حيث توسل إلى الله بدعاء النبي ﷺ.

فقوله: (كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ في حياته في الاستسقاء)؛ يعني: كانوا في حياة النبي ﷺ يطلبون منه الدعاء، بحيث يدعو ويدعون معه.

قوله: (والنبي ﷺ كان في مثل هذا شافعًا وداعيًا لهم)؛ أي: في حياته عليه الصلاة والسلام.

---

(١) برقم (١٠١٠).

موته، وفي حضرته ومغيبه، ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل به ﷺ في حياته، وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعًا سكوتيًا لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في التوسل بالعباس رضي الله عنه.

وعندي: أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي ﷺ كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام؛ لأمرين:

الأول: ما عرَّفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنهم.

والثاني: أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة، ومزاياهم الفاضلة، ....

الشَّرح

قوله: (ولا يخفاك)؛ أي: لا يخفاك أن الواقع أنهم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ في حياته بدعائه، يستغيث لهم ويدعو لهم وهم يؤمِّنون، وبعد موته استغاثوا بغيره وهو عمه العباس رضي الله عنه فدعا لهم، مثلما كانوا يستغيثون بدعاء الرسول ﷺ، فاستجاب الله لهم، فالاستغاثة بطلب الدعاء من الصالحين الحاضرين لا بأس بها.

قوله: (وثبت التوسل بغيره بعد موته)؛ أي: بعمه العباس رضي الله عنه.

قوله: (بإجماع الصحابة إجماعًا سكوتيًّا) فهذا الذي فعله عمر رضي الله عنه بحضرة المهاجرين والأنصار، ولم ينكره أحد، هذا يكون بمثابة الإجماع السكوتي.

قوله: (في توسله بالعباس)؛ يعني: بدعائه.

قوله: (ما عرفناك به من إجماع الصحابة)؛ يعني: التوسل بالدعاء، فلا إشكال في جواز التوسل بدعاء الصالحين الأحياء الحاضرين.

وقوله: (هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة) هذا فيه نظر؛ لأن أعمالهم الصالحة لهم، ولا يجوز للإنسان أن يتوسل إلا بأعماله هو، فلا

إذ لا يكون الفاضل فاضلًا إلا بأعماله.

فإذا قال القائل: اللَّهُمَّ إني أتوسل إليك بالعالم[1] الفلاني؛ فهو باعتبار ما قام به من العلم، ....

الشَّرح

يتوسل بأعمال غيره وصلاح غيره، وهذه نقطة مهمة، وظاهر كلام الشيخ هنا أنه يجيز هذا الأمر، لكن نحن لا نتوسل بأعمال غيرنا، وإنما نتوسل بأعمالنا الصالحة الخاصة بنا، ولا ينفعنا صلاح غيرنا، قال الله جَلَّ وَعَلَا لما انتسب اليهود والنصارى إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة] فكلٌّ يتوسل إلى الله بعمله هو؛ لا بعمل غيره.

قوله: (إذ لا يكون الفاضل فاضلًا إلا بأعماله) هذا صحيح، ولكن التوسل بأعمال الآخرين لا يجوز، وإنما يتوسل الإنسان بأعماله الصالحة هو.

مضمون كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يجوز التوسل بالأشخاص، وهو يرد على ابن عبد السلام الذي منع التوسل بالأشخاص إلا بالنبي ﷺ، فهو **يقول:** **(اللَّهُمَّ إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني فهو باعتبار ما قام به من العلم)** فمعناه أنك توسلت بعلمه وبعمله، وهذا فيه نظر؛ لأن التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة لا يكون بعمل الغير، وإنما يكون بعمل الإنسان نفسه، وحديث أصحاب الصخرة هو من هذا، فقد توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم هم، ولم يتوسلوا إلى الله بأعمال غيرهم، وقد قال الله جل وعلا ـ ردًّا على بني إسرائيل الذين يتعلقون بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ، قال الله جل وعلا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة]، فكل إنسان له عمله، ولا يتعلق به آخر، والتوسل بالأشخاص يكون

(١) في بعض النسخ: «بالعَلَم».

الشَّرح

بدعائهم، هذا هو الوارد وهذا سبق بيانه، وكالتوسل إلى الله بدعاء الصالحين الأحياء، كما توسل عمر بدعاء العباس، وكان الصحابة يتوسلون بدعاء النبي ﷺ قبل موته، فيطلبون منه أن يدعو الله لهم في السقيا، فهذا هو الحق في هذه المسألة، أن التوسل بالصالحين معناه: التوسل بدعائهم إذا كانوا أحياءً حاضرين، تطلب منهم أن يدعوا الله لك، وأما أنك تتوسل بصلاحهم وبعلمهم وبأعمالهم فهذا غير صحيح؛ لأن التوسل بالأعمال إنما يكون بعمل العامل نفسه لا بعمل غيره، وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية كما في كتاب «التوسل والوسيلة» وفي غيره من كتبه، وهو الحق الذي لا شك فيه، والشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين استدل بأصحاب الصخرة، يقال له: هل توسل أصحاب الصخرة بأعمال غيرهم؟ أو توسلوا بأعمالهم؟ بل توسلوا بأعمالهم، فهو استدلال في غير محله، فأصحاب الصخرة لما انطبقت عليهم الصخرة قالوا: **«إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ»**، وأحدهم توسل ببره بوالديه، والثاني توسل بأمانته وحفظه لأجرة الأجير التي عنده حتى جاء وأخذها مع نمائها، والثالث توسل إلى الله بعفته عن الزنى بعدما تمكن منه؛ تركه خوفًا من الله ﷻ، فانفرجت عنهم الصخرة، فهذا كلام واضح لا إشكال فيه، والنبي ﷺ قال: **«تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»**[(١)]، فأنت إذا أطعت الله في الرخاء فإذا وقعت في شدة فإن الله يخلصك منها بسابق عملك الذي قدمته، **«تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»**، فمعرفة الله لك في الشدة بمعنى أنه يفرج لك؛ لأنك تعرفت إلى الله في الرخاء، هذا كلام واضح من الأدلة ولا إشكال فيه، فلا تتوسل بعمل غيرك أو بعلمه أو بصلاحه، ولكن توسل بدعائه لك؛ إذا كان حيًّا حاضرًا.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٨٠٣).

وقد ثبت في «الصحيحين»[(١)] وغيرهما: أن النبي ﷺ حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله، فارتفعت الصخرة.

الشَّرْح

وأنواع التوسل الجائز - كما عرفنا - ثلاثة أنواع أو أكثر، وهي:

الأول: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته.

الثاني: التوسل إلى الله بدعاء الصالحين لك؛ إذا كانوا حاضرين عندك يدعون لك، ومنه صلاة الجنازة، فدعاء المصلين على الجنازة شفاعة له، ودعاء له بالمغفرة والرحمة.

الثالث: التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة.

الرابع: التوسل إلى الله بحالة المضطر، كما توسل أيوب عليه السلام إلى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فهو توسل إلى الله بشيئين:

الأول: بحالته، وأنه مسَّه الضر، **والثاني**: أن الله أرحم الراحمين؛ فهذا واضح.

الخامس: التوسل إلى الله بالتوحيد، ومنه قول يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء]، فتوسل إلى الله بكلمة التوحيد ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ وتوسل إلى الله بالاعتراف بخطأه ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا هو التوسل الجائز، أما أنك تتوسل بصلاح الآخرين وبعلم الآخرين وعمل الآخرين، هذا لا ينفعك، وليس لك فيه مجهود، وهذا خاص بهم.

قوله: (اللَّهُمَّ إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني...) هذا لم يرد في الحديث أن يقال: أتوسل إليك بالعلماء، وأتوسل إليك بالعالم الفلاني.

قوله: (حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة...) هذا لا يدل

---

(١) البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز، أو كان شركًا كما يزعمه المتشددون في هذا الباب كابن عبد السلام، ومن قال بقوله من أتباعه؛ لم تحصل الإجابة من الله لهم، ولا سكت النبي ﷺ عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم.

وبهذا تعلم: أن ما يورده المانعون من التوسل إلى الله بالأنبياء والصُلحاء من نحو قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ونحو قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، ليس بوارد..........................

الشَّرْح

على ما يقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما يدل على أنهم توسلوا بأعمالهم، ولم يتوسلوا بأعمال غيرهم.

قوله: (فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز...) التوسل بالأعمال الفاضلة الصادرة من الشخص نفسه لا الصادرة من غيره، فانتبهوا لهذا، فما استدل به رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يخدم ما يريد، فالتوسل بالأعمال الفاضلة جائز ولكن لمن عملها.

قوله: (كما يزعمه المتشددون في هذا الباب كابن عبد السلام) نحن ما رأينا كلام ابن عبد السلام ولا نقله رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى ننظر فيه، وإنما حكى مضمونه فقط، ولكن هذا التفصيل الذي ذكرناه هو الصحيح.

قوله: (ولا سكت النبي ﷺ عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم)؛ يعني: لم يسكت عن إنكار ما فعله أصحاب الصخرة، نعم هذا صحيح، بل أقره ﷺ، فدلَّ على أن توسل الشخص بأعماله الصالحة أمر جائز.

قوله: (ليس بوارد) نقول: هؤلاء لا يتوسلون بأعمال غيرهم، وإنما

بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه؛ فإن قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، مصرِّح بأنهم عبدوهم لذلك، والمتوسل بالعالم مثلًا لم يعبده؛ ....

الشَّرح

يدعون غير الله ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]؛ يعني: يتوسلون بهم بعبادتهم لهم، فهم يتوسلون بالشرك ـ والعياذ بالله ـ وهذا لا يَرد علينا في هذا الباب، نحن نقول: إن التوسل بأعمال الإنسان نفسه إذا كانت صالحة؛ فلا مانع من هذا.

قوله: (بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه) نقول ليس هناك شك أن هذا ليس دليلًا على محل النزاع، فهذا توسل المشركين، الذين يعبدون ما يتوسلون به ويتقربون إليه، ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ انظر: فقد اعترفوا أنهم يعبدونهم، حيث قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ هذا توسل ممنوع وهذا شرك، ولا يجوز التوسل إلى الله بالشرك.

قوله: (مصرح بأنهم عبدوهم لذلك) صرحوا أنهم عبدوهم، فهذا توسل بالشرك والعياذ بالله، ولا يجوز هذا، وأما ما نحن فيه فهو التوسل بدعاء الصالحين، وهذا جائز.

قوله: (والمتوسل بالعالم مثلًا لم يعبده)، وإنما توسل بدعائه رجاء أن يتقبله الله ولم يعبده، هذا ما نحن فيه الآن، الذي عليه القبوريون اليوم هو ما عليه المشركون الأولون، يأتون إلى القبور ويستغيثون بالأموات، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، وإذا قيل لهم وأنكر عليهم يقولون: نحن ما نعبدهم، وإنما نتوسل بهم؛ لأنهم ناس صالحون ونحن نتوسل بهم؛ نقول: هذا التوسل شرك، ولا يجوز، فهذا فعل أهل الجاهلية تمامًا، والميت لا يُطلب منه شيء؛ لا دعاء ولا إغاثة ولا شيء؛ لأنه انقطع عمله وهو مشغول بنفسه، ولا يملك لنفسه شيئًا، لا يتزود من الحسنات، ولا يتوب من السيئات؛ لأنه خُتم على عمله، فكيف

بل علم أن له مزية عند الله بحمله العلم؛ فتوسَّل به لذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فإنه نهى[(١)] عن أن يُدعى مع الله غيره؛ كأن يقول: يا الله[(٢)] ويا فلان، والمتوسِّل بالعالم مثلًا لم يدع إلا الله، وإنما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح عمله بعض عباده، كما توسَّل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم.

وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ الآية [الرعد: ١٤]، فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم، ولم يدعوا ربهم الذي يستجيب

الشَّرْح

يُتعلق به ويُتوسل به، فالميت لا يتوسل به، وإذا عبده فالأمر أشد.

قوله: (بل علم أن له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك): هذا ليس بصحيح، وسبق أن نبهنا عليه؛ فلا تتوسل بعلم فلان، لأن هذا صفة له هو؛ بل تتوسل بدعائه لك؛ أما أن تتوسل بعلمه أو بعمله فلا.

قوله: (وإنما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح عمله بعض عباده) نقول: هذا ليس بصحيح، فلا يتوسل الإنسان إلى الله بعمل عمله بعض عباده، وإنما يتوسل إلى الله بعمل عمله هو بنفسه.

قوله: (كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم) ولم يتوسلوا إلى الله بصالح أعمال غيرهم، فأنا لا أدري كيف التبس عليه رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الشيء.

قوله: (فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم، ولم يدعوا ربهم الذي يستجيب لهم) هذا صحيح، فهم دعوا من لا يستجيب لهم إلى يوم القيامة، ما

---

(١) في نسخة: نهي.
(٢) في نسخة: بالله.

لهم، والمتوسل بالعالم ـ مثلًا ـ لم يدع إلا الله، ولم يدع غيره دونه، ولا دعا غيره معه.

فإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع خروجًا زائدًا على ما ذكرناه؛ كاستدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ

الشَّرْح

الفائدة أنك تدعو واحدًا لا يستجيب لك؟! هذا لا يقوله عاقل، فالأموات لا يستجيبون، قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [فاطر: ١٤]، فكيف تدعو أحدًا: إما أنه لا يسمع منك، ولا يصل إليه صوتك لأنه ميت، ولو فرضنا أنه يسمع، فهو لا يقدر أن يعطيك ما تريد؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فهو مرهون بعمله، ولا يستطيع أن ينفع نفسه في هذه الحالة، فكيف ينفع غيره.

قوله: (والمتوسل بالعالم ـ مثلًا ـ لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه، ولا دعا غيره معه) صحيح أنه ما دعا غير الله، ولكن توسله بعمل الغير وهذا غير صحيح، فلا يتوسل بعلم الغير، أو بعمل الغير، أو صلاح الغير؛ هذا كله غير صحيح.

قوله: (لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل) التوسل الذي يريده المؤلف، وهو التوسل بأعمال الصالحين وصلاح الصالحين وهذا لا نوافقه عليه وإنما التوسل بدعائهم، وهذا إنما يكون في حياتهم وحضرتهم عند من يتوسل بدعائهم، هذا هو الوارد وهذا الذي جاء في الأدلة.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: المخالفون له في رأيه أنهم يستدلون بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ فهذا يدل على أنه لا يوجد توسل، نقول: نعم، لا

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار] فإن هذه الآيات الشريفة ليس فيها إلا أنه ـ تعالى ـ المنفرد بالأمر في يوم الدين، وأنه ليس لغيره من الأمر شيء، والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أن

الشَّرْح

تملك نفس لنفس شيئًا؛ لأن الأمر لله، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ ولا يملك هذا إلا الله ﷻ، أما في الدنيا إذا طلبت من الحي الحاضر من الصالحين أن يدعو لك، فهذا ليس مشاركة لله في الأمر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، الأمر لله ﷻ، إنما تطلب منه أن يدعو والدعاء مشروع؛ فيدعو لنفسه ويدعو لك، أنت تقول: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١] ألست تدعو لغيرك؟؛ تدعو لغيرك من الأحياء والأموات، هذا توسل إلى الله ﷻ بدعائهم، فإنك تطلب منه أن يدعو لك؛ هذا لا إشكال فيه، ولا مانع منه، وإنما الممنوع أن تدعو الله بعمل غيرك وصلاح غيرك وعلم غيرك؛ كما يراه المؤلف وهذا لا يوافق عليه.

قوله: (إلا أنه تعالى المنفرد بالأمر في يوم الدين)، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ وقال: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم: ٤]، فالأمر كله لله، فلا شك أن الأمر لله، فإذا توسلت بدعاء شخص حي صالح حاضر عندك ليس معناه أنه ينازع الله في الأمر، ولكن معناه أنه يتقرب إلى الله بالدعاء لك، فالرسول ﷺ قال الله له: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، لما قال: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا**»(١) يدعو عليهم لما حصل منهم من الضرر بالمسلمين، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقد تاب الله عليهم، فهؤلاء الذين دعا عليهم رسول الله ولعنهم أسلموا وحسن إسلامهم؛ لهذا قال: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ فالأمر لله ﷻ.

قوله: (والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٦٩).

لمن توسل به مشاركة لله جَلَّ وَعَلَا في أمر يوم الدين، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبيًا أو غير نبي فهو في ضلال مبين.

وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ....

الشَّرْح

لمن توسل به مشاركة لله ﷻ في أمر يوم الدين) هذا صحيح يوافق عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبيًّا أو غير نبي فهو في ضلال مبين) فالذين يعتقدون في الأولياء والصالحين أن لهم تصرفًا في الملك، وأنهم يملكون وأنهم يخلقون الأجنة في البطون والعياذ بالله، فيعتقدون أن الولي يقدر على أن يخلق الجنين في البطن، فهذا إيغال في الكفر والعياذ بالله، وإيغال في الشرك، والأمر كله لله، ولا يخلق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما الأولياء والصالحون فهم يقدرون على الدعاء ولا يملكون إلا الدعاء فقط، ولا يملكون أنهم يغيرون الملك، أو يجلبون لك الرزق أو الأولاد، لا يقدرون على هذا.

سبق أن عرفنا مناسبة أن الله قال لرسوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أن الرسول ﷺ جعل يدعو ويلعن فلانًا وفلانًا من المشركين، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ وقد تاب الله عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم؛ لأن الله يعلم ما يكون، والرسول لا يعلم ما يكون، فلا يعلم المستقبل، إنما الذي يعلم المستقبل هو الله جل وعلا، ومهما بلغ الإنسان من الشرك والإلحاد والكفر فلا تستبعد أن الله يهديه؛ فإن الله على كل شيء قدير، ولهذا في الحديث الصحيح أن رجلًا قال: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ**»، فقال تعالى: «**مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؛ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[(١)]، أحبط عمله؛ لأنه تألى على الله، وقنَّط من

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فإن هاتين الآيتين مصرِّحتان بأنه ليس لرسول الله ﷺ من أمر الله شيء، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملك لغيره، وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء والأولياء أو العلماء.

الشَّرْح

رحمة الله، فقال: إنه لا يغفر لفلان، فالله يغفر لمن تاب وآمن وأسلم؛ يغفر له، وهذا من فضله وإحسانه على عباده، أما من مات على الشرك والكفر الأكبر؛ فإن الله لا يغفر له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، فمن مات على الشرك فإن الله لا يغفر له ولا يُستغفر له، أما الحي فإنه لا ييأس من أنه يهديه الله ويتوب عليه، لا ييأس من هذا، ولا يجزم له أنه يموت على الكفر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فهو لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا إلا ما شاء الله سبحانه وتعالى، وليس في هذا منع للتوسل الجائز ـ الذي هو الدعاء ـ وإنما هو منع لمن يعتقد أن الرسول يملك النفع والضر من دون الله عز وجل، فالذي يقول: إن الرسول يملك الضر والنفع، أو الولي الفلاني يملك الضر والنفع من دون الله، فهذا كافر، أما من يقول: إن الرسول يملك أنه يدعو لمن طلب منه الدعاء، أو إنه يشفع له يوم القيامة؛ فهذا لا يدخل في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فلا يملك النبي ﷺ النفع والضر، وإنما هذا راجع إلى الله ومشيئة الله سبحانه وتعالى.

قوله: (وليس فيهما منع التوسل به)؛ أي: ليس في الآيتين منع التوسل الجائز المشروع، وإنما فيهما منع التوسل الممنوع الذي هو الشرك، ودعاء المتوسل به، والاستغاثة به، والذبح له، ويقول: يقربني إلى الله.

وقد جعل الله لرسوله ﷺ المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى، وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك، ويطلبوه منه، وقال له: «**سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»[1]، وقيَّد ذلك في كتابه العزيز بأنَّ الشفاعة لا تكون إلا بإذنه، ولا تكون إلا لمن ارتضى، ولعله يأتي تحقيق هذا المقام ـ إن شاء الله تعالى ـ.

الشَّرْح

قوله: (وقد جعل الله لرسوله ﷺ المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى) هذا يوم القيامة؛ لأنه حي حاضر عليه الصلاة والسلام حينذاك، والدعاء يُطلب من الحي الحاضر، ولا يُطلب من الميت، ولا يُطلب من الغائب، فالناس يوم القيامة يطلبون من الأنبياء؛ لأنهم أحياء حاضرون موجودون.

قوله: (الشفاعة لا تكون إلا بإذنه ولا تكون إلا لمن ارتضى) هذان شرط الشفاعة وهما: أن تكون بإذنه وأن يكون المشفوع فيه ممن رضي الله قوله وعمله، فلا تكون للمشركين، فالمشرك لا تنفعه شفاعة الشافعين، وإنما تنفع المؤمن الموحد إذا استحق دخول النار بمعصية؛ فإنه تنفعه شفاعة الشافعين بإذن الله.

والشفاعة كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «كشف الشبهات»، يقول: الشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

الشفاعة المنفية هي التي يطلبها المشركون.

الشافعة المثبتة هي التي يتوفر فيها الشرطان:

ـ إذن الله للشافع أن يشفع.

ـ ورضاه عن المشفوع فيه.

فإذا توفر الشرطان، فإن الشفاعة تنفع بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَلَا

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢).

وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء]، «**يا فلان بن فلان لَا أَمْلِكُ لك من الله شيئًا، يا فُلَانَةُ بنت فلان لا أملك لك من الله شيئًا، يا بني فلان لا أملك لكم من الله شيئا**»، فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه ﷺ لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضره، ولا ضر من أراد الله نفعه، ....

الشَّرْح

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم].

قوله: (فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه ﷺ لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضره) قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [الأنعام]، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ فدعا ﷺ قريشًا وعمم، فقال: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**». ثم خصص عمه وعمته وابنته، فقال: «**يَا عَبَّاسُ ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْك مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْك مِنَ اللهِ شَيْئًا**»(١)، فلا ينفعهم عمل غيرهم، ولا ينفعهم أن الرسول قريبهم، لا ينفعهم هذا، وإنما تنفعهم أعمالهم التي عملوها، وأما وهم على الكفر فلا ينفعهم أنهم أقارب الرسول ﷺ، أبو لهب ذكر الله جَلَّ وَعَلَا شأنه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد]، وهو عم الرسول ﷺ وعمه أبو طالب حرص الرسول ﷺ على أن يسلم، ولكنه لم يسلم، ومات على ملة عبد المطلب، وهي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣).

وأنه لا يملك لأحد من قرابته ـ فضلًا عن غيرهم ـ شيئًا من الله.

وهذا معلوم لكل مسلم، وليس فيه أنه لا يُتوسل به إلى الله، فإن ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر والنهي، وإنما أراد أن الطالب يقدم بين يدي طلبه ما يكون سببًا للإجابة ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع، وهو مالك يوم الدين.

وإذا علمت هذا فاعلم: أن الرزية كل الرَّزِيَّة، والبليَّة كل البليَّة أمر غير ما ذكرناه من التوسل المجرد، والتشفع بمن له الشفاعة، وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام، وبعض الخواص في أهل

الشَّرح

عبادة الأصنام فصار في النار، ولم يملك الرسول ﷺ له الإنقاذ منها.

قوله: (وأنه لا يملك لأحد من قرابته فضلًا عن غيرهم شيئًا من الله): إذا أراد الله ضرهم فلن يستطيع الرسول ﷺ أن يمنع ذلك، وإذا أراد الله نفعهم لن يستطيع الرسول ﷺ أن يمنع النفع، وهذا لا نزاع فيه.

وأما قوله: (وليس فيه أنه لا يتوسل به إلى الله) إن أراد أنه لا يتوسل به في حياته، والتوسل باتّباعه ﷺ ومحبته، والإيمان به؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران]، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فهذا توسل إلى الله بالإيمان بالرسول ﷺ، وهذا عمل للداعي نفسه وليس عمل لغيره، فهو توسل إلى الله بعملهم هم؛ وهو اتباع الرسول ﷺ والإيمان به.

قوله: (يقدم بين يدي طلبه ما يكون سببًا للإجابة)؛ أي: فالتوسل الجائز سبب للإجابة من الله ﷻ.

قوله: (ما صار يعتقده كثير من العوام...)؛ أي: من الاعتقاد في الموتى أنهم ينفعون ويضرون وأنهم يرزقون وأنهم وأنهم..

القبور، وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا ويفعلون ما لا يفعله إلا الله ﷻ حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله، وتارةً استقلالًا، ويصرخون بأسمائهم، ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعًا زائدًا على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء.

الشَّرْح

قوله: (ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع) فإذا احتاجوا أو وقعوا في شدة فإنهم ينادون الحسن والحسين وعليًا وعبد القادر والشاذلي والبدوي وغيرهم!، فهم ينادونهم إذا وقعوا في شدة أو احتاجوا إلى شيء، هذا هو الشرك الأكبر، وإن سموه توسلًا فهو الشرك الأكبر وليس توسلًا، وهو من جنس شرك المشركين الأولين، لا فرق بينهم وبين شرك أبي جهل وأبي لهب.

قوله: (يدعونهم تارة مع الله تعالى)؛ أي: يقول: يا الله، يا عبد القادر، يا علي، يا عباس، فيدعونهم مع الله.

قوله: (وتارةً استقلالًا)؛ أي: وتارة لا يذكرون الله أصلًا، وإنما يذكرون أولياءهم فقط، إذا وقعوا في شدة فإنهم يهتفون، لينقذوهم مما وقعوا فيه، وينسون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (ويخضعون لهم خضوعًا زائدًا)؛ ولهذا في كل بلد من هذه البلدان قبور يلجؤون إليها ويدعونها، ومن جاء من تلك الجهات يعلم ماذا يحصل عند القبور من العبادات للأموات، والتقرب إليهم، مثل ما كان يحدث عند اللات والعزى ومناة، لا فرق، وهم يقولون: لا إله إلا الله، ويتناقضون، يقولون: لا إله إلا الله، ثم يتخذون آلهة مع الله، أين قول لا إله إلا الله؟.

قوله: (على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء)؛

وهذا إذا لم يكن شركًا فلا ندري ما هو الشرك، وإذا لم يكن كفرًا فليس في الدنيا كفر.

وها نحن أولاء نقص عليك أدلة في كتاب الله ﷻ، وفي سُنَّة رسوله ﷺ فيها المنع مما هو دون هذا بمراحل، وفي بعضها التصريح بأنه شرك، وهو بالنِّسبة إلى هذا الذي ذكرناه يسير حقير، ثم بعد ذلك نعود إلى الكلام على مسألة السؤال.

فمن ذلك ما أخرجه أحمد في «مسنده» بإسناد لا بأس به عن عمران ابن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلًا بيده حَلْقَةٌ من صُفْرٍ، فقال: **«مَا هَذِهِ؟»**، قال: **«مِنَ الْوَاهِنَةِ»**، قال: **«انزعها فَإِنها لَا تَزِيدُكَ إلا وَهْنًا،**

الشَّرْح

أي: خضوعًا زائدًا على الخضوع بين يدي الله؛ يخشعون عند القبر أكثر مما يخشعون في المساجد، وبين يدي الله ﷻ، في المساجد لا تدمع أعينهم ولا يخشعون، ولكن عند القبور يخشعون ويبكون وينوحون.

قوله: (وهذا إذا لم يكن شركًا فلا ندري ما هو الشرك، وإذا لم يكن كفرًا فليس في الدنيا كفر) فهذا هو الشرك الواضح؛ وإذا لم يكن كفرًا، فما هو الكفر إلا هذا، مع أنهم يقولون: لا إلٰه إلا الله، فنقول لهم: أنتم تقولون لا إلٰه إلا الله، ولكن تناقضونها ولا تعملون بها، فهي مجرد لفظ لا ينفع.

قوله: (وهو بالنسبة إلى هذا الذي ذكرناه يسير حقير)؛ أي: يسير ولكن الله سماه شركًا فكيف بدعاء غير الله والذبح والنذر لغير الله.

قوله: (رأى رجلًا بيده حَلْقَةٌ من صُفْرٍ...) فالرسول ﷺ سأله: لماذا هذه الحلقة، قال: **«مِنَ الْوَاهِنَةِ»**؛ يعني: الحُمى، تقيه منها ويعتمد على الحلقة في دفع الضرر!، فقال ﷺ: **«انزعها فَإِنها لَا تَزِيدُكَ إلا وَهْنًا»**؛ أي: ضعفًا في إيمانك وفي عقيدتك وفي جسمك، نقيض ما يقصد، ثم قال ﷺ:

لو مِتَّ وَهِي عَلَيْك ما أَفْلَحْتَ أَبَدًا»(١).

وأخرج أيضًا عن عقبة بن عامر مرفوعًا: **«مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»**(٢)، وفي رواية: **«مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»**(٣).

الشَّرْح

«لو مِتَّ وَهِيَ عَلَيْك ما أَفْلَحْتَ أَبَدًا» نعم لأنه مات على الشرك ومن مات على الشرك فإنه لا يفلح أبدًا، وهذا فيه النهي عن تعليق الخيط والحلقة ونحوهما لدفع البلاء أو رفعه، كما ترجم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب التوحيد فقال: (باب: من لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه)؛ أي: رفع النازل أو دفع الذي لم ينزل، ثم أورد هذه الأحاديث.

قوله ﷺ: (**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**)؛ يعني: علق قلبه بها أو اعتمد عليها، والتميمة: شيء يعلقونه على الأولاد لمنع العين، فمن تعلقها لغرض فلا أتم الله له أمره ومقصده، هذا في تعليق تميمة فكيف بالذي يصرخ ويدعو صاحب القبر؟! هذا أشد من تعليق التميمة.

قوله: (**وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلا وَدَعَ اللهُ لَهُ**)، الودعة: الخرزة، يجعلون خرزًا يعتقدون أنه يدفع عنهم العين، ويدفع عنهم الحمى، **«فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»** يعني: لا ترك له خيرًا، دعا عليهم الرسول ﷺ.

قوله: (**وفي رواية: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»**)، في الحديث الأول قال: **«فَلَا أَتَمَّ الله له»**، وفي هذه الرواية قال: **«فَقَدْ أَشْرك»**؛ لأنه اعتمد على غير الله في دفع الضّر.

---

(١) المسند (٢٠٠٠٠)، وابن ماجه (٣٥٣١).

(٢) المسند (١٧٤٠٤).

(٣) المسند (١٧٤٢٢).

ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رجلًا في يده خيط للحمَّى فقطعه، وقرأ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف](١).

وفي «الصحيح» عن أبي بَشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «**أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ إِلَّا قُطِعَتْ**»(٢).

وأخرج أحمد وأبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»(٣).

الشَّرْح

قوله: (عن حذيفة أنه رأى رجلًا في يده خيط للحمى فقطعه...) هذا صاحب رسول الله ﷺ، رأى رجلًا في يده خيط، فأنكر عليه وقطعه، وهذا فيه إنكار المنكر باليد لمن يملك ذلك، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ يؤمن أكثرهم بتوحيد الربوبية، ويشرك في توحيد الألوهية.

قوله: (أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلادَةٌ مِنْ وَتَرٍ إِلَّا قُطِعَتْ) كانوا يقلدون الإبل في الجاهلية القلائد؛ لاتقاء العين والضرر، والوتر: الجلد المدبوغ، كانوا يجعلونه للسهام ورمي النبل؛ فإذا أخلق الوتر جعلوه في رقاب الإبل؛ ليقيها من العين، فالنبي ﷺ في بعض أسفاره أرسل رسولًا: «**أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ**»؛ يعني: أو من غيره «**إِلَّا قُطِعَتْ**»، وهذا فيه إزالة لوسائل الشرك وإبطال لاعتقاد الجاهلية، لأن النفع والضر بيد الله سبحانه وتعالى، لا بيد هذه الأوتار والحلقات والتمائم والخرزات وما أشبه ذلك.

قوله ﷺ: (إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ)، هذا الحديث فيه حماية

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٢٠٤٠). (٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٥).
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٥).

الشَّرْح

التوحيد من الشرك وأسبابه، فكما أن الله ورسوله بيّنا حرمة الشرك وحكمه، والوعيد عليه؛ كذلك وضعا سياجًا وحمًى لهذا التوحيد، وبالنهي عن الوسائل التي تفضي إلى الشرك وإلى انتهاك حمَى هذا التوحيد، ومن ذلك هذا الحديث والأحاديث التي ستأتي ـ إن شاء الله ـ، أن الرسول ﷺ قال: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»؛ أي: من أنواع الشرك.

قوله: «**الرُّقَى**»: جمع رقية، وهي ما يُقرأ على المريض من دعاء غير الله أويُعلّق عليه، أما القراءة على المريض من الآيات القرآنية ومن الأدعية النبوية فلا بأس بذلك، فالرسول ﷺ فعلها، وفعلها الصحابة وأقرّهم على ذلك، أما التعليق بأن يعلَّق الرقية على المريض؛ كأن يُكتب شيءٌ من القرآن أو من الأدعية وتعلّق على المريض، فهذا اختلف العلماء فيه على قولين:

منهم: من أجازه؛ كابن عمر رضي الله عنه، نظرًا لأنه لا محذور فيه، ولأنه من القرآن ومن الأدعية الشرعية، فلا بأس أن يُكتب ما يعلّق على المريض.

ومنهم: من منع ذلك لأمور منها:

أولًا: لعموم هذا الحديث، فإنه لم يستثنِ شيئًا.

ثانيًا: أن في هذا تعريضًا للقرآن للإهانة، حيث يعلّق على الصبي الذي لا يتحرز من النجاسة، وعلى الحائض والنفساء، وغير ذلك، ففيه إهانة لما يُكتب من القرآن.

ثالثًا: أن هذا سبب لاعتماد المعلّق عليه على هذه التميمة أو هذه الرقية، فيتعلّق قلبه بها، فيظن أنها هي التي جلبت له الشفاء.

رابعًا: من المحاذير أنها قد يُدس فيها شيء لا يجوز، لأن كثيرًا من الذين يكتبون هذه التمائم وهذه الرقى من الجهال أو ممن عقيدتهم سيئة؛ لأن قصدهم أخذ المال فقط، والتكسب بذلك، ففتح الباب في هذا يفضي إلى

وأخرج أحمد والترمذي عن عبد الله بن حكيم[١] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»[٢].

الشَّرْح

هذه المحاذير، لذلك حرّمها بعض العلماء ومنهم بعض علماء هذه البلاد.

قوله: «**وَالتَّمَائِمَ**»: جمع تميمة، وهي أيضًا ما يعلّق على الأولاد، وكان هذا معروفًا في الجاهلية، وأنهم يعلقون التمائم على دوابهم وعلى أولادهم، فهذا مظهر من مظاهر الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، أو على الأقل هو وسيلة للشرك.

قوله: «**وَالتِّوَلَةَ**»: شيء يصنعونه يزعمون أنه يُحبب المرأة إلى زوجها، ويحبب الزوج لزوجته، ويسمونه الصرف والعطف، وهذا أيضًا فيه محذور؛ لأنهم يزعمون أنه يجلب المحبة في القلوب، وهو نوع من السحر؛ فلذلك نهى النبي ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة، فقال: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**».

قوله ﷺ: (**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**) هذا فيه عموم لكل ما يعلق من تميمة أو رُقية أو خرزات أو ودع، فكل من تعلّق شيئًا من هذه الأمور يتقي بها العين، أو خيطًا يعقده على ذراعه أو على عضده يتقي به العين أو يتقي به الحمى كما يزعمون فقد أشرك؛ لأنه اعتمد على غير الله عَزَّ وَجَلَّ؛ حيث اعتمد على هذا المعلَّق، وظن أنه يجلب له الشفاء أو يدفع عنه المرض أو العين، فهو اعتمد عليه لرفع البلاء أو دفعه، فهذا قصدهم، والواجب أن يتعلق المسلم بربه عَزَّ وَجَلَّ، وأن يعتقد أن الشفاء من الله، وأن يسأل الله ويدعو الله، فإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء]، والنبي ﷺ قال في دعائه: «**اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ**

---

(١) كذا، والراوي هو: عبد الله بن عُكيم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٨٧٨١)، والترمذي (٢٠٧٢).

وأخرج أحمد عن رويفع رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ الناس أَنَّهُ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أو تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أو عَظْمٍ** ....

الشَّرْح

سَقَمًا»(١)، فالدعاء لله والتعلق يكون بالله عز وجل، لا بتميمة أو بخيط أو برقعة أو غير ذلك.

قوله ﷺ: (**يا رُوَيْفِعُ**): النبي ﷺ أوصى رويفعًا وهذه الوصية لجميع المسلمين، قال له: (**لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بكَ**)؛ أي: تُعمّر، وقد عُمّر هذا الرجل، ففيه معجزة للرسول ﷺ، وعلم من أعلام نبوته، أن الله أطلعه أن هذا الرجل سيُعمّر، فعُمّر كما قال النبي ﷺ.

قوله ﷺ: (**فَأَخْبِرِ النَّاس**) هذا فيه البلاغ، وأنه يجب إخبار الناس بما يضرهم ويؤثر على عقيدتهم، لا يكفي أن يتعلم الإنسان هذا في نفسه ويتجنبها في نفسه؛ بل مع هذا يجب عليه أن يبلغ الناس.

قوله ﷺ: (**أَنَّهُ من عَقَدَ لِحْيَتَهُ**)، قالوا: هذا من عادات الجاهلية، أنهم كانوا يعقدون لحاهم عند الحرب؛ لأجل أن ينتصروا، وقيل: إن هذا فيه النهي عن الترف، فترجيل اللحية وكدها ودهنها، وتجعيدها هذا فيه ترف.

قوله ﷺ: (**أو تَقَلَّدَ وَتَرًا**)، والوتر هو: وتر القوس، فإذا أخلق هذا الوتر وصار لا يستعمل للرماية يتبركون به ويعلقونه قلائد على الدواب، ليحميها من العين بزعمهم، ففيه النهي عن تعليق الأشياء والتبرك بها، أو تعوذًا بها، من الأوتار أو الخيوط أو القلائد أو غير ذلك.

قال ﷺ: (**أَوِ اسْتَنْجَى برَجِيعِ دَابَّةٍ، أو عَظْم**)، هذا ورد فيه أحاديث، أن الإنسان إذا استنجى من البول أو من الغائط لا يستنجي بالعظم، ولا

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٢).

فإن مُحَمَّدًا بريء منه»[١].

فانظر: كيف جعل الرقى والتمائم والتولة شركًا، وما ذلك إلا لكونها مظنة لأنْ يصحبها اعتقاد أن لغير الله تأثيرًا في الشفاء من الداء، وفي المحبة والبغضاء،........................

الشَّرْح

يستنجي برجيع الدابة وهو روثها، وجاء تعليل ذلك بأن هذا طعام الجن؛ فالعظم طعام المسلمين من الجن، والروث طعام دوابهم، ذلك أن الله يعيد العظم أوفر ما كان لحمًا للمؤمنين من الجن، ويعيد هذا الروث علفًا تأكله دوابهم، فلا يلوثه عليهم.

(**فإن مُحَمَّدًا بريء منه**)، هذا فيه التحذير الشديد؛ لأنه إذا تبرأ الرسول ﷺ من شيء فهذا يدل على أنه كبيرة من كبائر الذنوب، ففعل هذه الأشياء كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنها وسيلة من وسائل الشرك والاعتقاد الفاسد.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فانظر**)؛ أي: انظر أيها المسلم.

(**كيف جعل الرقى والتمائم والتولة شركًا**)؛ لأن القلب يتعلق بها من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، ويظن أنها هي التي تنفع أو تدفع عنه البلاء، فينصرف قلبه عن الله، وهذه من مظاهر الشرك.

قوله: (**اعتقاد أن لغير الله تأثيرًا في الشفاء من الداء**)؛ أي: أنها تؤثر في الشفاء من الداء مع أن الشافي هو الله وحده، فيجب أن يتعلق قلبه بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله: (**مظنة**)، فإذا كانت المظنة تُمنع فكيف إذا كانت يقينًا، وأنه فعل هذا اعتقادًا، ولكن من قال: أنا لا أعتقد هذا، ولكني أنا ظننت أنها سبب من الأسباب واتخذتها مثل ما يتخذها الناس، وظننت أنها تنفع؛ نقول: ظنك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٩٩٥ ـ ١٦٩٩٥ ـ ١٧٠٠٠).

فكيف بمن نادى غير الله، وطلب منه ما لا يُطلب إلا من الله، واعتقد استقلاله بالتأثير، أو اشتراكه مع الله ﷻ.

ومن ذلك ما أخرجه الترمذي وصححه عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه

الشَّرح

هذا حرام ولا يجوز، والعقيدة لا تبنى على الظن، قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، فالعقيدة تُبنى على أمور يقينية، ولا تُبنى على ظنون.

قوله: (فكيف بمن نادى غير الله، وطلب منه ما لا يُطلب إلا من الله)؛ أي: إذا كان هذا فيمن اتخذ هذه الأشياء ظانًّا أنها تنفع، فكيف بمن ينادي غير الله ويستغيث بغير الله من عباد القبور، والأضرحة؟ فالأمر أشد؛ حتى قال بعضهم: إن الأولياء يقدرون على خلق الأجنة في البطون!.

قوله: (وطلب منه ما لا يُطلب إلا من الله): أما ما يُطلب من المخلوق فلا بأس به فيما يقدر عليه، أما الشيء الذي لا يقدر عليه المخلوق؛ فلا تطلبه إلا من الله.

قوله: (واعتقد استقلاله بالتأثير)؛ أي: اعتقد استقلال غير الله بالتأثير في هذه الأشياء، وأنهم قادرون على أن يوجدوها وأن يخلقوها؛ فهذا أشد، وهذا شرك في الربوبية، ينشأ عنه شرك في الألوهية.

حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه واضح في أن الجهل بالتوحيد يوقع في الشرك، وأنه يجب تعلّم التوحيد وتعلُّم ما يضاده من الشرك، ودراسة هذه الأمور؛ لأن هناك من يُزهِّد في تدريس التوحيد، ومعرفة أمور الشرك، وجعل ذلك في المناهج الدراسية؛ يقولون: أولاد المسلمين موحدون ولا حاجة إلى تدريسهم التوحيد، ونقول: كم انحرف من مسلم بسبب هذه الجهالات وهذه الضلالات؟؛ فلا بد للمسلم أن يعرف هذه الأمور، فإذا لم يعرفها فقد يقع فيها، مثلما ورد في هذا الحديث.

قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر،

الشَّرْح

قول أبي واقد رضي الله عنه: **(خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين)**؛ يعني: إلى غزوة حنين، وكانت بعد فتح مكة في شوال؛ لأن فتح مكة كان في رمضان، ثم لما بلغ قبيلة هوازن، وكانوا بجوار مكة، ولما بلغهم أن الرسول ﷺ فتح مكة، وانتصر على أهلها خافوا أن يصل إليهم، فاجتمعوا وجمعوا كيدهم يريدون غزو رسول الله ﷺ قبل أن يغزوهم، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأمر المسلمين ممن جاء معه من المهاجرين والأنصار ومن حولهم من أهل مكة أن يتجهزوا إليهم، فتجهز باثني عشر ألف مقاتل مدججين بالأسلحة، وخرجوا يريدون حنينًا، وهو واد قريب من مكة، عند الجعرانة، وكان العدو قد اجتمع في هذا الوادي، فالتقى رسول الله مع المشركين هناك، وجرت الواقعة ـ كما ذكره الله ـ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة]، فحصل على المسلمين ضنك، وضيق في هذه الغزوة، حتى إنهم انهزموا ولم يبق إلا الرسول ﷺ قريبًا من العدو على بغلته، ونادى الصحابة، وأمر عمه العباس وناداهم، فلما سمعوا الداعي رجعوا إلى الرسول ﷺ وأحاطوا به، ودارت المعركة من جديد، وأنزل الله الملائكة تساعد المسلمين وتخذل الكفر، فانتصر المسلمون على المشركين، وغنموا ما معهم، فقد جاءوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم إلى هذا المكان، فلما انتصر المسلمون عليهم، أخذوها غنيمةً في سبيل الله عز وجل، فكانت قوة للمسلمين، ثم إن الله هدى هوازن وأسلموا وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرد عليهم ما أخذ منهم، فالرسول ﷺ جمع الصحابة وعرض عليهم أن يردوا على هوازن ما أخذ منهم، فطابت أنفس الصحابة بذلك، وردوا عليهم ما أخذوا منهم، هذا ملخص هذه الغزوة.

وَلِلْمُشْرِكِينَ سدرة يعكفون عليها، وينوطون بها أَسْلِحَتَهُمْ، يُقال لها: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لنا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كما لهم، فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر،**

الشَّرح

والشاهد منها: أن هؤلاء الذين خرجوا مع الرسول ﷺ منهم من أسلم عام الفتح، قريبًا، ليس له إلا أيام في الإسلام ويجهل مسائل التوحيد؛ لهذا قال: (ونحن حدثاء عهد بكفر)؛ أي: شرك وجاهلية، ما عرفوا أحكام التوحيد بعد، فمرو على قوم من المشركين يعكفون على سدرة؛ أي: يقيمون عندها، ويجلسون عندها تبركًا بها.

قوله: (وينوطون بها أَسْلِحَتَهُمْ)؛ أي: يعلقون بها أسلحتهم تبركًا بها، **(يُقال لها: ذَاتُ أَنْوَاطٍ)**؛ لأنهم ينوطون بها أسلحتهم تبركًا بها، فاستحسن هؤلاء ـ الذين هم حديثو العهد بالإسلام ولم يتمكنوا من معرفة التوحيد معرفة تامة ـ استحسنوا هذا الشيء لجهلهم، فقالوا: **(يا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لنا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كما لهم)** ذَاتَ أَنْوَاطٍ، وهذا من باب التقليد والتشبه، وهو خطر على هذه الأمة، فالتقليد والتشبه بالكفار والمشركين أخطر شيء على هذه الأمة، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يخصص لهم شجرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم؛ لجهلهم في حكم ذلك، والحمد لله أنهم لم يُقدِموا على هذا، بل سألوا الرسول ﷺ.

وهكذا المسلم إذا أشكل عليه شيء، أو استحسن شيئًا لا يقدم عليه إلا بعد أن يسأل أهل العلم: هل يجوز أو لا يجوز، فهؤلاء سألوا الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما لهؤلاء المشركين ذات أنواط، والرسول ﷺ أنكر هذا وتعجب، وكبَّر فقال: **(الله أكبر)**، وكان من عادته ﷺ أنه إذا أعجبه شيء أو استنكر شيئًا أن يكبر، فكبر الله تنزيهًا له عن فعل هذا الشيء، فقال: «**الله أكبر، إنها السنن**»؛ أي: طُرق الأولين التي يقلدها من جاء بعدهم،

قُلتم وَالَّذِي نَفْسِي بيده، كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف] **لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قَبْلَكُمْ»**(١).

الشَّرح

(**قُلتم وَالَّذِي نَفْسِي بيده، كما قالت بنو إسرائيل:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾)، فبنو إسرائيل لما نجاهم الله من فرعون وقومه وأغرق عدوهم، وسار بهم موسى عليه السلام بعد النصر على عدوهم، أول ما حدث منهم أنهم مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

وهذا من باب التقليد والتشبه، وهما آفة الأمم، فالرسول ﷺ بيّن أن السبب في طلب هؤلاء أن يجعل لهم ذات أنواط هو الجهل بالتوحيد، فقال: «**قُلتم وَالَّذِي نَفْسِي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ هم لم يقولوا: نريد آلهة؛ بل قالوا: نريد سدرة نعكف عندها ونعلق بها أسلحتنا، فهذا الفعل من اتخاذ الآلهة، قال موسى لقومه: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فالجهل بالتوحيد يوقع في مثل هذه الأمور، ثم قال موسى لقومه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف]، ثم ذكّرهم بنعمة الله عليهم إذ خلصهم من عدوهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف].

هذا ما حصل من بني إسرائيل مع موسى، وهذا موقف موسى عليه السلام من هذه القضية: الإنكار، والتوبيخ، وبيان أن الجهل يسبب هذا الشيء، فكذلك

(١) الترمذي (٢١٨٠)، والإمام أحمد (٢١٨٩٧ ـ ٢١٩٠٠).

فهؤلاء إنما طلبوا أن يجعل لهم شجرة ينوطون بها أسلحتهم كما كانت الجاهلية تفعل ذلك، ولم يكن من قصدهم أن يعبدوا تلك الشجرة أو يطلبوا منها ما يطلبه القبوريون من أهل القبور، فأخبرهم ﷺ أن ذلك بمنزلة الشرك الصريح، وأنه بمنزلة طلب آلهة غير الله.

الشَّرْح

في هذه الأمة، لما وقعت هذه القضية تذكر الرسول ﷺ ما وقع لأخيه موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، فهذا دليل على شؤم التشبه بالكفار، والتشبه بأهل الجاهلية، وأنه يفضي إلى الشرك، ففيه وجوب تعلم التوحيد، ومعرفة الشرك وأنواعه من أجل أن تجتنب، فهذا هو المطلوب.

فدل هذا على أنه لا يجوز التعلق بالأشجار، ولا بالأحجار، ولا بشيء من دون الله عز وجل، يعتقد فيه أنه يؤثر وينفع ويضر أو أنه يجلب البركة.

قوله: (فهؤلاء إنما طلبوا أن يجعل لهم شجرة ينوطون بها أسلحتهم)، فلم يقولوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ كما قالت بنو إسرائيل، بل قالوا: «**اجْعَلْ لنا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كما لهم**» ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فالرسول ﷺ اعتبر هذا من اتخاذ الآلهة، وعده مثل قول بني إسرائيل: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ فالذي يتعلق بشيء من دون الله فقد اتخذه آلهة؛ تنفعه وتضره من دون الله عز وجل.

قوله: (ولم يكن من قصدهم أن يعبدوا تلك الشجرة أو يطلبوا منها ما يطلبه القبوريون من أهل القبور)، فقصدهم أقل من ذلك وهو التبرك بها فقط، وقد عده النبي ﷺ من اتخاذ الآلهة، فكيف بمن يصرح بالشرك، ويستغيث بالأموات ويذبح لهم وينذر لهم، صريحًا بفعله وقوله.

قوله: (فأخبرهم ﷺ أن ذلك بمنزلة الشرك الصريح)، حيث قال: «**قُلتم وَالَّذِي نَفْسِي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى**: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾»، وهؤلاء قالوا: «**اجْعَلْ لنا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كما لهم**» ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فالمعنى واحد وإن اختلف اللفظ، فكله تعلق بغير الله عز وجل.

ومن ذلك: ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن علي بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ قال: حَدَثَنِي رَسولُ الله ﷺ بأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: **«لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ،** ....

الشَّرْح

علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة، وأبو الحسن والحسين رضي الله عنهم، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وهو رابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، والنبي ﷺ حدثه بهذه الكلمات الأربع وهي للأمة كلها، كان ﷺ يأمر بعض أصحابه أو ينهاهم وهو يريد الأمة كلها، يُحمِّل هذا الشخص أن يبلغ عنه هذه الأمور التي تحملها؛ ولذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يكتم هذه الأشياء بل بيّنها وبلغها للأمة رضي الله عنه وأرضاه.

وأما قوله: (كرَّم الله وجهه) فهذه اللفظة ينبغي أن تُترك ولا يخصص بها علي رضي الله عنه، بل يُقال له ـ كما يقال لإخوانه من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة] إلى أن قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، فرضي الله عن الصحابة أجمعين، ومنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا يُقال: كرّم الله وجهه؛ بل يقال: رضي الله عنه، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾.

وقد أخبر أن النبي ﷺ أوصاه بأربع كلمات:

الأولى: قوله: (لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ)، بأن يتقرب بالذبح لغير الله، سواء ذبح للقبور أو الأضرحة، ذبح للأولياء والصالحين؛ أما من ذبح ذبيحة

لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيه، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثًا..................

الشَّرْح

لضيف يكرمه بها، فهذا ليس من العبادة، بل هذا من المباحات، فقد ذبحها للحم، ولم يذبحها للتقرب، ليكرم بها هذا الضيف العزيز عليه، وقد أباحه الله ﷻ، ولكن من ذبح لغير الله يتقرب للمخلوق بهذه الذبيحة، ويعظمه بهذه الذبيحة حيًا أو ميتًا، فقد لعنه الله ﷻ، فدلّ على شناعة هذا الذنب وأن صاحبه مستحق للعنة؛ لأنه مشرك ومن ذلك الذبح لتعظيم الملوك وغيرهم عند نزولهم عن دوابهم ومركوباتهم.

الثانية: قوله: (لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيه)، وكيف يلعن والديه؟ سئل النبي ﷺ: «وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟»، فقال: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أمه فيسب أُمَّهُ**»[(١)]، فهو المتسبب في لعن أبيه وأمه، فإذا لعن رجلًا فإن ابن هذا الرجل سيلعن والد هذا الذي لعن والده، فيكون متسببًا في ذلك، فكيف إذا باشر هذا بأن لعنهما صراحة؟ قال: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيه**».

الثالثة: قوله: (لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثًا)؛ أي: حمى ودافع عن من وجب عليه حد من حدود الله، فيأتي شخص ويمنع إقامة الحد عليه: من قصاص أو رجم أو جلد، أو غير ذلك، فهذا ملعون، وفي رواية: «**مُحْدَثًا**»[(٢)] بالفتح؛ أي: بدعة، فمن ناصر البدعة وأيدها فهو ملعون، ومن كتب يؤيد البدع ويصحح البدع فهو ملعون؛ لأنه آوى مُحْدَثًا، فالحديث فيه روايتان:

الرواية الأولى: «مَنْ آوى مُحْدِثًا»، بكسر الدال والمراد: من وجب عليه حد من حدود الله، فلا بد أن يطبق عليه الحد كائنًا من كان، ولا ينظر إلى مكانته، فمن حماه ومنعه من إقامته عليه فهو ملعون.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣).

(٢) انظر شرح السُّنَّة للبغوي (٧/ ٣١٠)، المعلم بفوائد مسلم (٢/ ١١٨)، عمدة القاري (١٠/ ٢٣٣).

لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأرضِ»[1].

الشَّرْح

الرواية الثانية: «**مَنْ آوى مُحْدَثًا**» بفتح الدال أي: بدعة في الدين بأن نشرها أو نصرها.

الرابعة: قوله: (**لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأرضِ**)، المنار: جمع منارة، وهي العلامة، والمراد بـ«مَنَارَ الأرضِ» قيل: العلامات التي تحدد أملاك الجيران المتجاورين في الملكيات في المزارع أو في الأراضي، فإنهم يضعون علامات تحدد ملك هذا من ملك هذا، تسمى بالمراسيم، فهذه منار الأرض التي تبين وتبرز حقوق الناس بعضها من بعض، فإذا جاء واحد وتصرف في هذه العلامات بأن قدّمها أو أخرها فهو ملعون؛ لأنه اعتدى على حقوق الناس.

وقيل: المراد بـ«**مَنَارَ الأرضِ**»: أعلام الحرم المنصوبة على حدود الحرم، فلا يغيرها فيدخل في الحرم ما ليس منه، أو يخرج من الحرم ما هو منه.

وقيل: المراد بـ«**مَنَار الأرضِ**»: العلامات التي على الطرق، يهتدي بها المسافرون، فإذا غيَّرها ضل المسافرون، وعلامات الطرق سواء كانت حجارة أو لوحات، أو غير ذلك، لا يجوز تغييرها.

والحديث عام في منار الأرض، وعام لهذه الأمور كلها، فلا يجوز تغييرها لما يترتب عليه من الضرر.

والشاهد من الحديث قوله: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**»؛ لأن هذا شرك، يستحق صاحبه اللعنة، فهؤلاء الذين يذبحون عند القبور ملعونون على لسان رسول الله ﷺ، ملعونون إلى أن تقوم الساعة، من الذي يرفع عنهم اللعنة؟ لا أحد يرفع اللعنة إلا التوبة، فإذا تابوا إلى الله والتزموا بالتوحيد،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

وأخرج أحمد عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَاب أن رسول الله ﷺ قال: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ» قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: **«مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، قَالَ: فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا قَالَ:**

الشَّرْح

فالله يتوب على من تاب، وترتفع عنهم اللعنة، أما إذا استمروا على هذا أو أمروا به أو حسَّنوه؛ فهم ملعونون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وأنهم يحبون الصالحين، وأنهم يعظمون الصالحين، فهم يشركون بالله ويقولون: هذا تعظيم للصالحين!.

هذا حديث عظيم، فيه أن قومًا من المشركين عند صنم وهو على الطريق، فمر بهما رجلان من المسلمين، فقالوا لأحدهما: **(قَرِّبْ)**؛ يعني: اذبح لهذا الصنم لأجل أن نسمح لك بالمرور، فقال: **(مَا كُنْتُ لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيْئًا)**؛ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا، **(دُونَ اللهِ ﷻ)**؛ أي: غير الله، فالتقرب بالذبح لا يجوز لغير الله، **(فَضَرَبُوا عُنُقَهُ)**؛ أي: قتلوه، **(فَدَخَلَ الْجَنَّةَ)**؛ أي: ختم الله له بخير؛ لأنه صبر على دينه وأنكر الشرك ولم يفعله، فدخل الجنة بشيء يسير، وهو الامتناع من الذبح لغير الله، ولو ذبح الذباب لجعلوه يمضي، ولكنه سيدخل النار، وصاحبه تساهل وذبح الذباب، هو لم يقل: لا يجوز الذبح لغير الله، فعندما قالوا له: **(قَرِّبْ)** قال: **(لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ)** اعتذر بأنه ليس معه شيء، فقالوا له: **(قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا)** فقرب ذبابًا يعظم به هذا الصنم، **(فَخَلَّوْا سَبِيلَه)** ولكن أين ذهب؟ ذهب للنار والعياذ بالله، فدخل النار بهذا الفعل، فدل هذا على تحريم الذبح لغير الله، ولو كان يسيرًا حتى الذباب؛ لأن العبرة ليست في المذبوح، وإنما العبرة في اعتقاد القلب، فدل هذا على تحريم الذبح لغير الله ولو كان ذبابًا، فكيف بمن يذبحون الرعايا من

مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ ﷻ، قَالَ: فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»(١)؛ فانظر لعنه ﷺ لمن ذبح لغير الله، وإخباره بدخول من قرَّب لغير الله النار، وليس في ذلك إلا مجرد كون ذلك مظنَّةً للتعظيم الذي لا ينبغي إلا لله، فما ظنُّك بما كان شركًا بحتًا، قال بعض أهل العلم: إن إراقة دماء الأنعام عبادة؛ لأنها إما هديٌ أو ضحية

الشَّرح

الأغنام، ومن الإبل عند قبر البدوي وغيره، هذا أشد، يجلبون نفائس أموالهم ويذبحونها عند القبور، يتقربون بها إلى الأموات، وهم يقولون: لا إله إلا الله ثم يناقضونها ويفسدونها بالشرك، ولا يمكن أن يجتمع الشرك الأكبر مع التوحيد، فالشرك الأكبر والتوحيد لا يجتمعان، أما الشرك الأصغر فيجتمع معه التوحيد لكنه ينقصه، والذبح لغير الله من الشرك الأكبر، وليس من الشرك الأصغر.

قوله: (فانظر لعنه)، واللعن لا يكون إلا على كبيرة من كبائر الذنوب.

قوله: (وإخباره)؛ أي: إخبار النبي ﷺ **(بدخول من قرَّب لغير الله النار)** ولو كان شيئًا يسيرًا كالذباب.

قوله: (وليس في ذلك إلا مجرد كون ذلك مظنَّة للتعظيم الذي لا ينبغي إلا لله) هذا هو السبب في التحريم، دون النظر إلى المذبوح، وإنما النظر إلى تقرب القلب لغير الله، ولو يسيرًا.

قوله: (فما ظنُّك بما كان شركًا بحتًا)، ما ظنك بما هو أكبر من ذلك من تقديم القرابين الكثيرة للقبور والأضرحة.

قوله: (لأنها إما هدي) أي الذبائح: هدي في الحج، **(أو ضحية)**؛ أي:

---

(١) الإمام أحمد في الزهد (١٥)، وحلية الأولياء (١/٢٠٣) عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي.

أو نسك، وكذلك ما يُذبح للبيع؛ لأنه مكسب حلال فهو عبادة.

ويتحصل من ذلك شكل قطعي، هو: أن إراقة دماء الأنعام عبادة، وكل عبادة لا تكون إلا لله، فإراقة دماء الأنعام لا تكون إلا لله، ودليل الكبرى قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

الشَّرْح

أضحية في عيد الأضحى، **(أو نسك)**؛ أي: قربانًا يتقرب به إلى الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام] فقرن النسك مع الصلاة، وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر] فقرنه مع الصلاة، فدل على أنه عبادة ولا يجوز إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، سواء أكان ذلك نسكًا في الحج أو كان أضحية، أو كان عقيقة للمولود، أو كان صدقة يذبحها فيوزعها على الفقراء والمساكين، فيذبح باسم الله، وعلى التوحيد، ولا يسمي غير الله عَزَّ وَجَلَّ في جميع الذبائح.

قوله: (**وكذلك ما يُذبح للبيع؛ لأنه مكسب حلال فهو عبادة**)؛ لأن الذي يذبح ليبيع اللحم يتقرب إلى الله؛ ولذلك يذكر اسم الله على جميع الذبائح.

قوله: (**ودليل الكبرى**)؛ يعني: المقدمة الكبرى، وهي قوله: (**إراقة دماء الأنعام عبادة**) والعبادة لا تصلح إلا لله، فذبح الأنعام لغير الله شرك.

فالمقدمة: أن ذبح الأنعام عبادة.

النتيجة: العبادة لغير الله شرك.

قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بما في ذلك الذبح؛ لأن الذبح نوع من أنواع العبادة، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩] فلا تذبحوا لغيره.

قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] تقديم المعمول يفيد الحصر، مثل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ فالعبادة محصورة لله عَزَّ وَجَلَّ، ولا

[الفاتحة: ٥]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

ومن ذلك أنه ﷺ نهى عن الحلف بغير الله، ....

الشَّرْح

تكون لغيره، ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾؛ يعني: لا تعبدوا غيري، بأي نوع من أنواع العبادة.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قدم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على العامل وهو ﴿نَعْبُدُ﴾، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليفيد الحصر، فهذا من صيغ الحصر في اللغة العربية، فالعبادة محصورة لله ﷻ، بكل أنواعها من ذبح وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿وَقَضَىٰ﴾؛ يعني: أمر ووصى، بأن لا تصرفوا العبادة لغيره من ذبح وغير الذبح، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾؛ أي: ما أمروا بأي أمر من أمور العبادة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الدين: الدعاء، فلا يدخله شرك، فالعبادة إذا دخلها شرك بطلت.

قوله: (ومن ذلك)؛ أي: من حماية النبي ﷺ لجناب التوحيد، والمنع من وسائل الشرك: **(أنه ﷺ نهى عن الحلف بغير الله)**؛ لأن الحلف بغير الله تعظيم للمحلوف به، على وجه يعتقد فيه أن هذا المحلوف به يستحق التعظيم، وهذا شرك بالله؛ لأن التعظيم حق لله ﷻ، وهو نوع من العبادة، فالذي يحلف بغير الله يعظِّم هذا المحلوف به، ومن ثم صار هذا شركًا، كما قال ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[١]، وهذا شك من الراوي، هل قال الرسول: كفر، أو قال: أشرك، والمعنى واحد، ولكن هذا من تحفظهم في الرواية، واحتياطهم لها.

---

(١) انظر الترمذي (١٥٣٥) والحاكم (٧٨١٤).

وقال: «**مَنْ كان حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أو لِيَصْمُتْ**»[١]، وقال: «**مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَرجع إلى الْإِسْلَامِ سالمًا**»، أو كما قال[٢]، وسمع رجلًا يحلف بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى فأمره أن يقول: ....

الشَّرح

الشاهد من ذلك: أن الحلف بغير الله شرك؛ كالذي يحلف بالنبي وما أكثر ما يجري على ألسنة بعض الجهال الذين نشؤوا على ذلك ولم يتعلموا التوحيد.

وقوله ﷺ: (مَنْ كان حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ)، وقوله ﷺ: (مَنْ حَلَفَ بمِلَّةٍ غَيْرِ الإسْلامِ لَمْ يَرجع إلى الإسْلامِ سالمًا): من الحلف المنهي عنه أن يحلف الإنسان بملة غير الإسلام؛ كأن يقول: هو يهودي أو نصراني أو مجوسي إن كان الأمر كذا، أو إن لم يكن الأمر كذا يريد التأكيد بذلك؛ فهذا خطير إن كان كاذبًا في حلفه فهو كما قال، يصير يهوديًا أو نصرانيًا من أهل الملة التي حلف بها، وإن كان صادقًا لم يعد إلى الإسلام سالمًا بل عليه إثم، لأن هذا تعظيم لليهودية وللنصرانية، والحلف إنما يشرع بالله ﷻ أو صفة من صفاته.

قوله: (وسمع)؛ أي: النبي ﷺ، **(رجلًا يحلف باللَّاتِ وَالْعُزَّى)**، العزى: صنم كبير لأهل مكة قريب من عرفات، وهو أحد الأصنام الثلاثة: اللات والعزى ومناة، هذه أكبر الأصنام عند العرب، ولما فتح الله لرسوله ﷺ مكة، وأزال الأصنام التي حول الكعبة وحطمها؛ وفوق الصفا والمروة، وأرسل إلى الأصنام الثلاثة من يهدمها، فأرسل إلى مناة علي بن أبي طالب،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩).

(٢) جاء في صحيح البخاري (٦٠٤٧): «**مَنْ حَلَفَ عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ كَمَا قَالَ**»، وفي سنن أبي داود (٣٢٦٠) بلفظ: «**مَنْ حَلَفَ فَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا**».

«لا إلٰه إلا الله»[١]، وأخرج الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، من حديث عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»**[٢].

وهذه الأحاديث في دواوين الإسلام، وفيها أن الحلف بغير الله يخرج به الحالف عن الإسلام؛ وذلك لكون الحلف بشيء مظنة تعظيمه، فكيف بما كان شركًا محضًا يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق في طلب النفع أو استدفاع الضر، ....

الشَّرْح

وأرسل إلى العزى خالد بن الوليد، وأرسل إلى اللات المغيرة بن شعبة وأبا سفيان، فهُدمت ولله الحمد، والحاصل أن من حلف بالعزى فقد أشرك؛ ولذلك قال: «فليقل: لا إلٰه إلا الله»؛ لأن (لا إلٰه إلا الله) كلمة التوحيد يُكفَّر بقولها حلفه بغير الله، فدل على أن الحلف بغير الله شرك، يحتاج قائله إلى أن يقول: **(لا إلٰه إلا الله)**، ومن الألوهية لله الحلف به.

قوله ﷺ: (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ) أيًّا كان ذلك، ولو كان نبيًّا، أو ملكًا من الملائكة **(فَقَدْ أَشْرَكَ)**؛ أي: أشرك بالله؛ لأن الحلف إنما يكون بالله أو بصفة من صفاته، هذا هو التوحيد.

قوله: (وهذه الأحاديث)؛ أي: التي ساقها، هي موجودة **(في دواوين الإسلام)**؛ أي: في كتب السنة.

قوله: (وفيها أن الحلف بغير الله يخرج به الحالف عن الإسلام)، هذا صريح الأحاديث، **«فَقَدْ أَشْرَكَ»**، **«فَقَدْ كَفَرَ»**، **«فليقل: لا إلٰه إلا الله»**، لكن هذا الخروج قد يكون خروجًا كليًّا والعياذ بالله وردة، وقد يكون خروجًا جزئيًا

(١) أخرجه البخاري (٤٨٦٠).
(٢) الترمذي (١٥٣٥)، والحاكم (٧٨١٤).

وقد يتضمن تعظيم المخلوق زيادة على تعظيم الخالق كما يفعله كثير من المخذولين، فإنهم يعتقدون أن لأهل القبور من جلب النفع ودفع الضر ما ليس لله؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فإن أنكرت هذا، فانظر أحوال كثير من هؤلاء المخذولين، فإنك تجدهم كما وصف الله سبحانه: ....

الشَّرْح

وذلك بالشرك الأصغر، وعلى كل حال هو شرك، والشرك الأصغر لا يُستهان به؛ لأنه يجر إلى الشرك الأكبر ولأنه لا يغفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلا يُتساهل بالشرك الأصغر، فكيف بالأكبر؟.

قوله: (وقد يتضمن تعظيم المخلوق زيادة على تعظيم الخالق) كما ذكروا أن بعضهم إذا طلبت منه اليمين بالله يبادر ولا يتلكأ، وإذا طلبت منه اليمين بالمخلوق الذي يعظمه توقف وارتعد وخاف من أن يُصاب من ذلك المخلوق.

قوله: (كما يفعله كثير من المخذولين...)؛ ولذلك يخافون من الأموات أكثر مما يخافون من الله ﷻ؛ لأنهم يعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، والشيطان يريد أن يهلك بني آدم ولا يقف عند حد، ولهذا قال الله ﷿: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ينتقم منهم لأنه تعهد بذلك، حين حدث منه ما حدث في حق أبينا آدم عليه السلام، تعهد أنه سيتتبع ذريته، ولا يدخر وسعًا في إضلالهم، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، تعهد بهذا وهو على ما تعهد وجادٌّ في ذلك؛ ولذلك يتطور بالقبوريين إلى أن يعظموا المقبور، ويخافوا منه ويرجوه أشد مما يخافون من الله، ويعظمونه أشد مما يعظمون الله، ويرجونه أشد مما يرجون الله ﷿؛ ولذلك لا تجد لله ذكرًا على ألسنتهم، وإنما

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر]، ....

الشَّرح

يلهجون بذكر الأولياء والصالحين ـ نسأل الله العافية ـ، حتى صار التوحيد عندهم هو دعاء الصالحين والاستغاثة بالأموات، وإذا نُهوا عن ذلك فإنهم يغضبون، يقولون: هذا من الخوارج! هذا وهابي!... إلى آخر ما يقولون؛ لأنهم نشأوا على هذه العقيدة، فصار التوحيد غريبًا عندهم أو مجهولًا لا يعرفونه، وإنما التوحيد عندهم تعظيم القبور، والعبادة عندهم بالبدع ليست بالسنن، هذا هو الغالب على كثير من العالم الإسلامي اليوم، فالدين الصحيح غريب، أما التسمي بالإسلام فكثير.

فالله أخبر عن هؤلاء وأشباههم وأتباعهم، أنهم إذا ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ ذكر التوحيد ونُهي عن الشرك، ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ الذين نشأوا على هذه العقائد الفاسدة المتوارثة؛ يستغربون هذا ويستنكرون ويغضبون، فهذا واقع الآن، فالدعاة بعضهم يقول: لا تذكروا التوحيد، لكي لا تنفروا الناس، اتركوا الناس على عقائدهم، اجعلونا نتوافق، نجتمع فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا عليه!، وهذه القاعدة، يسمونها الذهبية وهي طاغوتية، يقولون: لا تنكروا على الناس على ما هم عليه من الشرك والكفر، اتركوا الناس على ما هم عليه، ولكي نجتمع ونتعاون ونرد على الزنادقة، وعلى الملاحدة، وعلى الشيوعيين وعلى العلمانيين فقط، وأما فيما بيننا فاتركوا كل أحد على ما هو عليه، ولا يمكن أن نقف في وجوه الملاحدة والزنادقة والكفار ونحن هكذا، اليهودي ماذا قال للرسول ﷺ لما أدرك خطًا من بعض الناس، قال: «**نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ**»، احتج بهذا على المسلمين، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، قال: «**لا تقولوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ولكن قولوا: مَا شَاءَ اللهُ وحده، وَقولوا: وَرب**

ومن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عنه ﷺ عند موته أنه كان يقول: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا[(١)].

وأخرج مسلمٌ عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ

الشَّرْح

الْكَعْبَةِ»[(٢)]، فالرسول قبل منه هذه الملاحظة ونهى عنها، فيجب على الدعاة أن ينظروا إلى هذه الأمور وأن يمحصوها، ويُخلِّصوا المسلمين منها قبل أن يدعو الكفار إلى الدخول في الإسلام؛ فيصلحون أنفسهم أولًا قبل كل شيء.

قوله: (ومن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عنه ﷺ عند موته أنه كان يقول: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا): النبي ﷺ كان يدعو إلى التوحيد حتى بعدما نصر الله الإسلام وظهر، فإنه كان يحذر من الشرك، ولم يقل: انتهى الأمر أو أن الناس أصبحوا مسلمين، ولا يُخاف عليهم؛ لأنه ﷺ الناصح الأمين ففي أحرج حالات سكرات الموت التي يعاني منها، يطرح خميصة على وجه فإذا اغتم بها كشفها، وعنده ماء ينضح على وجهه من شدة النزع، فقال وهو كذلك: «**لَعْنَةُ اللهِ على الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» لِمَ قال هذا في هذه الحالة؟ قال هذا (**يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا**)؛ أي: لا تقعوا في مثل ما وقعوا فيه، بل احذروا، ولم يقل: المسلمون الآن عرفوا؛ بل إنه خاف عليهم من بعده عليه الصلاة والسلام، يحذر ما صنعوا، وقالت عائشة رضي الله عنها ـ وهي راوية الحديث ـ: «لَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٠)، مسلم (٥٣١).
(٢) مسند الإمام أحمد (٢٣٣٣٩ ـ ٢٧٠٩٣)، سنن ابن ماجه (٢١١٨).
(٣) أخرجه مسلم (٥٢٩).

يقول: «**إِنَّ من كان قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، فلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إني أَنْهَاكُمْ عن ذلك**»[١]، وأخرج أحمد بسند جيد، وأبو حاتم في «صحيحه» عن ابن مسعود مرفوعًا: «**إن مَنْ شِرَارِ الناس من تُدْرِكْهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالذين يَتَّخِذُون الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**»[٢]، ....

الشَّرْح

قال ﷺ: (**وَإِنَّ من كان قَبْلَكُمْ**) من اليهود والنصارى مع أنهم أهل كتاب، وأهل دين سماوي ينتسبون إلى الأنبياء: إلى موسى وعيسى، (**كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»)؛ يعني: يصلون عندها؛ رجاء لبركتها وقبول الدعاء عندها، سواء بُني عليها مسجد أو لم يُبن عليها، فما صليت فيه فإنه مسجد لك، «**كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؛ يعني: مُصليات يصلون عندها، رجاء القبول ورجاء البركة، فهذا وسيلة من وسائل الشرك، فإذا تقرب إلى القبر فهذا شرك أكبر، وإن كان قصده التقرب إلى الله فالمكان غير صالح للصلاة؛ لأنه وسيلة إلى الشرك فابتعد عن هذا.

قوله ﷺ: (**مَنْ شِرَارِ النَّاس**)؛ أي: أشدهم شرًّا، فشرار الناس صنفان:

الصنف الأول: (**من تُدْرِكْهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ**)؛ لأن الساعة لا تقوم وفي الأرض من يقول: الله الله، وإنما تقوم على شرار الخلق؛ أما المؤمنون فتُقبض أرواحهم قبل ذلك، بأن يرسل الله ريحًا طيبة فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ويبقى شرار الناس، والقرآن يُرفع من المصاحف ومن الصدور، ويبقى الناس في جاهلية جهلاء وظلماء؛ لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، ثم تقوم عليهم الساعة.

الصنف الثاني ـ وهو محل الشاهد ـ: (**وَالذين يَتَّخِذُون الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**»)، فهؤلاء هم شر الناس، وهم يقولون: نحن خير الناس، وهذا محبة

---

(١) صحيح مسلم (٥٣٢).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣٨٤٤ ـ ٤١٤٣)، وانظر: صحيح البخاري (٤٢٧ ـ ٧٠٦٧).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وفيها التصريح بلعن من اتخذ القبور مساجد، مع أنه لا يعبد إلا الله، ....

الشَّرْح

للصالحين، وتعظيم للصالحين، وتعظيم الصالحين ليس بالبناء على القبور؟! بل تعظيم الصالحين بمحبتهم واتباعهم، والدعاء لهم والاستغفار لهم.

قوله: (والأحاديث في هذا الباب كثيرة) الأحاديث في بيان الشرك والتحذير منه، وما وقع فيه الناس بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد القرون المفضلة شيء كثير، وكلما تأخر الزمان يزيد الشر وتزيد الفتن إلى أن تقوم الساعة، فالإسلام الصحيح غريب في آخر الزمان، كما قال ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»(١)، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قال: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إذا فَسَدَ النَّاسُ**»(٢)، وفي رواية: «**الَّذِينَ يُصلِحُونَ ما أَفسَدَ النَّاسُ**»(٣)، فهم صالحون في أنفسهم ويصلحون ما أفسد الناس، فهؤلاء هم الغرباء؛ لأن من يخالفهم كثير، ومن يمقتهم كثير، حتى ممن ينتسبون إلى الإسلام، يمقتونهم ويذمونهم، فيصيرون غرباء بين الناس.

قوله: (وفيها التصريح بلعن من اتخذ القبور مساجد مع أنه لا يعبد إلا الله) فصلاته لله ولم يقصد القبر، وإنما ظن أن الصلاة عند القبر فيها فضيلة، وأنها يُرجى قبولها، فهو ملعون، مع أنه يتقرب إلى الله، واللعن: معناه الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فهم مطرودون من رحمة الله ومبعدون عنها إذا صلوا لله عند القبور، فكيف إذا صلوا يتقربون إلى الميت بصلاتهم ويستغيثون به، ويذبحون له وينذرون له؟! فهذا شرك صريح؛ فالواقع من كثير من الناس عند القبور أنهم يتقربون إليه بأنواع الطاعات، وهذا شرك أكبر صريح مخرج من الملة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥).
(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٦٦٩٠).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠).

وذلك لقطع ذريعة التشريك، ودفع وسيلة التعظيم.

وورد ما يدل على أن عبادة الله عند القبور بمنزلة اتخاذها أوثانًا تُعبد، أخرج مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ الله على قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**[(١)]، وبالغ في ذلك حتى لعن زائرات القبور، كما أخرجه أهل السنن من حديث ابن عباس قال: **«لَعَنَ رسول اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عليها الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»**[(٢)]، ....

الشَّرْح

قوله: (وذلك لقطع ذريعة التشريك)؛ أي: لقطع وسيلة الشرك، فالذريعة: هي الوسيلة، فإذا صليت عند القبور وإن كنت لا تدعو إلا الله، ولا تصلي إلا لله؛ لكن المكان ليس محلًّا للصلاة؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك.

قوله: (وورد ما يدل على أن عبادة الله عند القبور بمنزلة اتخاذها أوثانًا تُعبد) أي ورد في الأحاديث أن عبادة الله عند القبور تصيِّرها أوثانًا تعبد من دون الله؛ ولهذا عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في كتاب التوحيد: (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!)، وقال في باب آخر: (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانًا تعبد من دون الله)، واستدل بقوله ﷺ: **«اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»**، فدعا الله أن يصون قبره ﷺ من أن يُجعل وثنًا يعبد من دون الله، فهل بعد هذا البيان وهذه النصيحة للأمة أبلغ من هذا.

قوله ﷺ: («اللهمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»)، قبر الرسول ﷺ يكون وثنًا؟ إذا صُلي عنده وعُبد الله عنده؛ ولهذا قال: **«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، ولا**

---

(١) الموطأ (٢/ ٢٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٣٨)، والترمذي (٣٢٠).

ولعل وجه تخصيص النساء بذلك لما في طباعهن من النقص المفضي إلى الاعتقاد والتعظيم بأدنى شبهة، ولا شك أن علة النهي عن جعل القبور مساجد، وعن تسريجها وتجصيصها ورفعها وزخرفتها، هي ما ينشأ عن ذلك من الاعتقادات الفاسدة.

الشَّرْح

تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عليَّ فإن صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»(١)، كل هذا حماية للتوحيد؛ ولذلك حمى الله قبر رسوله ﷺ وصانه استجابة لدعاء الرسول ﷺ؛ ولهذا يقول ابن القيم في نونيته:

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

قوله: (ولعل وجه تخصيص النساء)؛ أي: تخصيص النساء له أسباب:

أولًا: أن النساء ناقصات عقل ودين، فهن أقرب إلى التأثر بالخرافات.

ثانيًا: أنها ضعيفة لا تصبر فإذا رأت قبر قريبها، فإنها تجزع.

ثالثًا: أن خروجها إلى المقابر، يعرضها للفتنة وللفساق، وهي مأمورة بالقرار في بيتها.

ولهذه الأمور نُهيت عن زيارة القبور في حديث: **(لَعَنَ رسول الله ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ)**، وفي رواية: «**زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ**»(٢)؛ لهذه العلل المذكورة.

وقوله: (وَالْمُتَّخِذِينَ عليها الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ) فالجهال لا يعظمون المسجد إلا الذي فيه قبر، ففي بعض البلاد لا يقصدون إلا المسجد الذي فيه قبر الولي، أما المساجد التي ليس فيها قبور فإنهم يتجنبونها ويزهدون فيها، فمساجد التوحيد يبتعدون عنها!، وهذا من الفتنة.

قوله: (هي ما ينشأ عن ذلك من الاعتقادات الفاسدة) فالسبب هو ما ينشأ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٥٦).

كما ثبت في «الصحيح» عن عائشة ﵂: أن أم سلمة ﵂ ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال: «**أُولَئِكَ إذا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ ـ أو العَبدُ ـ الصَّالِحُ بَنَوْا على قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فيه تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**»(١)، ....

الشَّرح

عن هذه الأمور من الاعتقادات الفاسدة؛ لأنها إذا بُني عليها وأسرجت وزُخرفت؛ فإن العوام يعتقدون أن هذا قبر ولي وأنه ينفع ويضر ويتعلقون به، ويترددون عليه وهذا شيء واضح.

قوله: (ولا شك أن علة النهي عن جعل القبور مساجد وعن تسريجها، وتجصيصها ورفعها وزخرفتها هي ما ينشأ عن ذلك من الاعتقادات الفاسدة): التي تنشأ عن هذه الأمور.

أم سلمة ﵂ كانت ممن هاجر إلى الحبشة، والحبشة أرض النصارى، وفيها كنائس مزخرفة ومزينة وفيها صور، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ مستغربة له، فقال ﷺ: («**أُولَئِكَ إذا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ ـ أو العَبدُ ـ الصَّالِحُ بَنَوْا على قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فيه تِلْكَ الصُّوَرَ**) فتصبح هذه الصور أوثانًا تعبد من دون الله؛ كما حصل لقوم نوح مع صور الصالحين.

(**أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**») شرار: جمع شر، أو جمع شرير، أفعل تفضيل؛ أي: إن أشر الخلق عند الله هؤلاء، لأنهم ضلوا وأضلوا فهم شر الخليقة، وهم يزعمون أنهم خير الخليقة وأن عملهم هذا عمل صحيح، وأنه تقدير للصالحين واحترام لهم واحتفاظ بمكانتهم، وصور تذكارية تذكر بأحوالهم!، هذا هو الذي حذر منه ﷺ هذه الأمة، وهو واقع

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧ ـ ٤٣٤).

ولابن خزيمة عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم]، قال: كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره[(١)].

وكل عاقل يعلم أن لزيادة الزخرفة للقبور، وإسبال الستور الرائعة عليها، وتسريجها والتأنق في تحسينها تأثيرًا في طبائع غالب العوام، ....

الشَّرْح

في الأمم السابقة، كما حصل لقوم نوح مع صور الصالحين.

وقوله جلَّ وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ بالتخفيف، أو (اللَّاتَّ) بالتشديد، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ هذه أكبر أصنام العرب، اللات في الطائف، والعزى حول مكة، ومناة حول المدينة للأوس والخزرج يُحرمون منها للحج، وهذه أكبر أصنام العرب، يقول الله جلَّ وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ أين ذهبت؟ هل دافعت عن نفسها؟ هل أغنت عن نفسها شيئًا؟ فكيف تعبدونها وهي حجارة وقبور، هل أغنتكم؟، هل دفعت عن أنفسها لما هدمت.

فدل هذا على أن ما يعتقد فيه من دون الله من شجر أو حجر أو قبر؛ فإنه يكون صنمًا ووثنًا يُعبد من دون الله، مثل اللات والعزى ومناة؛ لا فرق في ذلك.

قوله: (وكل عاقل... إلخ) كل عاقل يعلم أن القبور إذا زخرفت بأنواع الزخارف ورُفع عليها البنيان وأُسرجت وكُتب عليها، وكُسيت بالستور الفاخرة، أن ذلك يجذب قلوب العوام فيعتقدون فيها؛ ولذلك نهى النبي ﷺ عن رفع القبور، والبناء على القبور، ونهى عن تجصيص القبور، ونهى عن الكتابة عليها، كل ذلك سد لذريعة الشرك، قال ﷺ لعلي رضي الله عنه: **«لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إلا**

(١) أخرجه الطبري في تفسيره سورة النجم: الآية (١٩).

ينشأ عنه التعظيم والاعتقادات الباطلة، وهكذا إذا استعظمت نفوسهم شيئًا مما يتعلق بالأحياء، ....

الشَّرْح

طَمَسْتَهُ» وفي رواية: «**ولا صُورَةً إلا طَمَسْتَهَا**»، ثم قال: «**ولا قَبْرًا مُشْرِفًا**» يعني: مرتفعًا، «**إلا سَوَّيْتَهُ**»[(١)] يعني: أزلت ارتفاعه؛ لأن هذا يسبب انجذاب قلوب العوام له فيعتقدون فيه، وهذا معنى قوله: (**ينشأ عنه التعظيم والاعتقادات الباطلة**)، أما لو كانت القبور مثل قبور المسلمين وقبور الصحابة، وقبور التابعين والسلف الصالح، ليس فيها ما يجذب الأنظار، ولا ما يميز قبرًا عن قبر؛ لما حصلت هذه الفتنة، ولا انسدت هذه الذريعة، ولكن لما حدث تعظيم القبور وزخرفتها والبناء عليها؛ حدثت الفتنة والشرك بالله ﷻ.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وهكذا إذا استعظمت نفوسهم شيئًا مما يتعلق بالأحياء**)؛ أي: حتى الأحياء إذا حصل تعظيمهم الزائد، فإن ذلك وسيلة لأن يُعبد من دون الله ﷻ، ولذلك لمَّا قال رجل للنبي ﷺ: «ما شَاءَ الله وَشِئْتَ»، قال لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(٢)]، لأن قوله: «ما شَاءَ الله وَشِئْتَ» تسوية للرسول ﷺ بالله؛ لأن (الواو) تقتضي التسوية والتشريك، ولكن لو قال: ما شَاءَ الله ثُم شِئْتَ، فإنه يقتضي أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، ومرتَّبة على مشيئة الله، وهكذا الألفاظ يجب أن تعرف فيؤخذ الألفاظ التي لا محذور فيها، وتترك الألفاظ التي فيها محذور، فالذي قال هذا للرسول ﷺ لم يقصد الشرك، ولكن قصد تعظيم الرسول ﷺ، وجاء بهذا اللفظ، فالرسول ﷺ نهى عن ذلك؛ لأنه يقتضي التسوية بين الله وبين المخلوق في المشيئة، ولما قال الصحابة: «قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ من هذا الْمُنَافِقِ»، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يُستغاث بي وإنما يُستغاث بالله** ﷻ»[(٣)]، خشي عليهم

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).
(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٨٣٩).
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٧).

وبهذا السبب اعتقدت كثيرٌ من الطوائف الألوهية في أشخاص كثيرة.

ورأيت في بعض كتب التاريخ[(١)]: أنه قدم رسول لبعض الملوك على بعض خلفاء بني العباس، فبالغ الخليفة في التهويل على ذلك الرسول، وما زال أعوانه ينقلونه من رتبة إلى رتبة حتى وصل إلى

الشَّرْح

من الشرك في هذه المقولة، وإن كانوا لا يقصدون بذلك سوءًا ولكن هذا اللفظ لا يُقال؛ لأنه قد يأتي من يقوله معتقدًا أن المخلوق يُستغاث به من دون الله، فالرسول ﷺ سد الذريعة، والرسول ﷺ أراد أن يُعلم أمته ويربيهم على التوحيد حتى في الألفاظ، فقال: «**إنه لا يُستغاث بي وإنما يُستغاث بالله** ﷻ».

قوله: (وبهذا السبب اعتقدت كثيرٌ من الطوائف الألوهية في أشخاص كثيرة): بسبب التعظيم والغلو والإطراء؛ ولهذا قال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كما أَطْرَتْ النَّصَارَى ابن مَرْيَمَ**»[(٢)]؛ الإطراء هو الزيادة في المدح، والرسول ﷺ لا يحب المدح في حضوره، لا يحبه لنفسه ولا يحبه لأصحابه؛ لأن هذا وسيلة للشرك؛ وذلك لأمرين:

أولًا: لأن الممدوح قد يُعجب بنفسه.

وثانيًا: أنه قد يعتقد في هذا الممدوح ما يخل بالعقيدة، ولو على المدى البعيد.

قوله: (ورأيت في بعض كتب التاريخ...): جاء مندوب من بعض الدول إلى أحد خلفاء بني العباس، فأراد هذا الخليفة أن يظهر أمامه بالمظهر العجيب، فصنع كل ما تمكن منه من تعظيم المجلس، وتعظيم القصر، وتنظيم الناس في الجلوس، وصار هو في برج منفصل مرتفع على الناس، وقصده من هذا أن يبعث في نفس هذا المندوب تعظيمه، حتى يذهب إلى دولته ويخبر بعظمة سلطان المسلمين، وما هكذا تكون العظمة.

عمر بن الخطاب ؓ خليفة المسلمين في المشرق والمغرب، رعيته

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).
(٢) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي (١/ ٣٥١)، والغنية عن الكلام وأهله (ص٢١).

المجلس الذي يقعد الخليفة في برج من أبراجه، وقد جُمّل ذلك المنزل بأبهى الآيات، وقعد فيه أبناء الخلفاء وأعيان الكبراء، وأشرف الخليفة من ذلك البرج وقد انخلع قلب ذلك الرسول مما رأى، فلما وقعت عيناه على الخليفة قال لمن هو قابض على يده من الأمراء: أهذا الله؟ فقال ذلك الأمير: بل هذا خليفة الله! فانظر ما صنع ذلك التحسين بقلب هذا المسكين!.

وروي لنا: أن بعض أهل جهة القبلة وصل إلى القبة الموضوعة على قبر الإمام أحمد بن الحسين(١) ....

الشَّرح

غطت مشارق الأرض ومغاربها، ومع هذا كان يخرج من بيته وينام على الرمل مثل الناس، يبحث له عن الظل للشجر أو الحيطان، ثم يجمع ترابًا ويتوسّده فينام عليه، رضي الله عنه، مع أنه أكبر خليفة وأكبر ملك في وقته، فليس التعظيم بالمظاهر وإنما التعظيم بتقوى الله سبحانه وتعالى، والعمل بشريعته، وتوحيد الله عز وجل، هذا هو سر العظمة الصحيحة، لا العظمة المزيفة.

فلما دخل هذا المندوب وصار يُنقل من مجلس إلى مجلس، وكل مجلس فيه من الأبهة الشيء العجيب، ووصل إلى البرج الذي فيه الخليفة، ورأى الخليفة في هذا البرج، فقال لمن يمسك بيده ويدله: (أهذا الله؟) فقال ذلك الأمير: (بل هذا خليفة الله)، حمله ما رأى من الأبهة والبهرجة أن

(١) أحمد بن الحسين بن القاسم بن عبد الله القاسمي خرج في اليمن وبها قتل سنة ٦٥٦هـ، انظر: السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/ ٥٤٢ ـ ٥٤٧ ـ ٥٤٨)، الأعلام للزركلي (١/ ١١٧).

صاحب ذي بين[١] رَحِمَهُ اللَّهُ فرآها وهي مسرجة بالشمع، والبخور ينفخ في جوانبها، وعلى القبر الستور الفائقة، فقال عند وصوله إلى الباب: أمسيت بالخير يا أرحم الراحمين!.

وفي (الصحيح) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]،

الشَّرْح

يقول: (أهذا الله؟) وهكذا يصنع البهرج بقلوب الناس، حتى يعتقدوا في المخلوق ما للخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من العظمة.

قوله: (**صاحب ذي بين**)؛ يعني: من أئمة آل البيت.

قوله: (**أمسيت بالخير يا أرحم الراحمين**) لما رأى هذه القبة على القبر وما صُنع حولها من البهرج والبخور الفاخر والستور عليها والأنوار، فلما وصل إلى هذا المكان قال: (**أمسيت بالخير يا أرحم الراحمين**) ناداه بصفة الله عَزَّوَجَلَّ، بسبب البهرجة والمبالغة على هذا القبر.

فدل هذا على أن المظاهر لها دور في إضلال الناس بالشخص حيًا أو ميتًا، ففي المثال الأول: هذا شخص حي، فقال: (أهذا الله؟)، والمثال الثاني مثال لتعظيم القبر وزخرفة القبر، وأن هذا يجر إلى الاعتقاد في هذا المخلوق أنه هو الله.

---

(١) كذا في النسخ، وهي: مديرية ذيبين في منطقة عمران شمال اليمن الآن، ويوجد بها قبر أحمد بن الحسين، انظر القبورية في اليمن (ص٢٦٩)، تحذير المسلمين من القبوريين (١/ ١٤١).

قال: «هذه أَسْمَاءُ رِجَالٍ من قَوْمِ نُوحٍ، لما هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمْ التي كَانُوا يَجْلِسُونَ عليها أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا فلم يُعْبَدوا، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِي الْعِلْمُ عُبِدَتْ»(١).

الشَّرْح

هذه قصة قوم نوح عليه السلام، فقد كان الناس على دين التوحيد بعد آدم عليه السلام إلى عشرة قرون، ولما كان في زمن قوم نوح عليه السلام رجال صالحون وعلماء؛ وماتوا جميعًا في عام واحد فحزن الناس عليهم لما فقدوهم؛ لأن فقد العلماء مصيبة، فلما رأى الشيطان ما أصابهم من الحزن على هؤلاء الأموات استغل الفرصة وقال لهم: صوروا صورهم وانصبوها على مجالسكم؛ حتى تتذكروا أحوالهم فتنشطوا على العبادة.

وهذا فيه دليل على أنه لا يجوز عمل شيء يفضي إلى الشرك؛ حتى وإن كان هذا الجيل لا يتوقع منهم الشرك، لكن يأتي بعدهم جيل يتصور منهم ذلك؛ مع الجهل ومع طول المدة.

فصوروهم ولم تُعبد في هذا الجيل لما فيهم من العقيدة الصحيحة ومن العلماء الذين ينهون عن الشرك، فالشيطان لا يقصد هذا الجيل، فلما هلك هذا الجيل وهلك العلماء نُسي العلم وجاء جيل جاهل؛ فأتاهم الشيطان فقال: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها وبها كانوا يسقون المطر؛ فعبدوها من دون الله؛ فحدث الشرك في الأرض من ذلك الوقت.

فأرسل الله نبيه نوحًا عليه السلام ـ وهو أول رسول إلى أهل الأرض بعد حدوث الشرك ـ أرسله إليهم يدعوهم إلى الله وإلى توحيد الله عز وجل، وبالغ في دعوتهم وأطال وطال عمره معهم، كما ذكر الله في سورة نوح، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. في كل هذه المدة وهو يدعوهم إلى الله عز وجل، وما ترك طريقًا من طرق

(١) انظر صحيح البخاري (٤٩٢٠).

الشَّرْح

الدعوة إلا وسلكه عليه الصلاة والسلام فلم يُجْدِ ذلك فيهم، ولم يؤمن معه إلا قليل منهم، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ولما أخبره الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من أمن ـ كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] ـ، عند ذلك دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح] فأهلكهم الله بالطوفان: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. والطوفان: هو الماء الذي أغرقهم جميعًا ولم ينجُ إلا أصحاب السفينة: وهم نوح ومن معه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، والبقية هلكوا حيث أخذهم الله بالطوفان.

والشاهد من هذا: أنه تمكن الشرك من قلوبهم، وهذه الأصنام أثرت فيهم، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح] هذه أسماء الرجال الصالحين الذين صوّرت صورهم ونصبت فعبدوها من دون الله؛ قالوا لا تطيعوا نوحًا في توحيد الله وتتركوا هذه الآلهة، فقد سَمَّوها آلهة ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وهذا تمامًا مثل ما قاله المشركون لنبينا محمد ﷺ، لما قال لهم: «**قُولُوا: لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»(١)، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ﴾ [ص]؛ يعني: ما كان عليه آباؤنا، وهذا احتجاج بما عليه الناس دون دليل وبرهان وإنما قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص]؛ يعني: هذا كذب، فيصفون الرسول ﷺ بأنه كذاب مختلق.

انظروا كيف يفعل الشرك بالقلوب والعياذ بالله، إذا تُرك ولم يعالج يستعصي في القلوب؛ فهذا فيه عبرة.

والآن أصحاب القبور لا يمكن أن يتخلوا عنها، بل تزيد عبادتهم لها؛

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٠٢٣).

وقال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم.

ومن ذلك ما أخرجه أحمد بإسناد جيد عن قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت**»(١). وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان أيضًا، وأخرج أبو داود بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»(٢).

الشَّرْح

ولكن من أراد الله هدايته وقبل الحق اهتدى، وأما الأغلبية فلا تقبل الحق؛ لأنه إذا أهمل الشيء تعاظم وصعب علاجه.

(وقال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم) عكفوا على قبورهم أي عكفوا على قبور الصالحين أو أنهم صوروا صورهم ونصبوها، فكلتا الآفتين من وسائل الشرك، العكوف على القبور والصور المعلقة كلها من وسائل الشرك.

قوله: (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)؛ يعني: من السحر، والعيافة: هي زجر الطير، كانوا يعتقدون في الطيور إذا مرّت ينظرون في حركاتها، وهذا يسمى بالعيافة وهي زجر الطير، وهي التطير بالسوانح والبوارح، إن طارت إلى جهة كذا دل على الخير، وإن طارت إلى جهة كذا دل على الشر وهكذا، وهو من أمور الجاهلية.

والطرق: هو خط يخطه الرمّال في الأرض ويخبر عن المستقبل، وهم الذين يسمّون الرمَّالين يخطون في الرمل ويقولون: سيحصل كذا وسيحصل كذا.

قوله: (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر): الذين

(١) مسند الإمام أحمد (٢٠٦٠٤)، ابن حبان (٦١٣١)، النسائي (١٦٢٩٢).

(٢) انظر: سنن أبي داود (٣٩٠٧)، مسند الإمام أحمد (٢٠٠٠).

الشَّرْح

يعتقدون في النجوم بأنها تؤثر في الكون وهي الطوالع والغوارب، إذا غرب النجم الفلاني يحدث كذا، وإذا طلع النجم الفلاني في الفجر وغاب رقيبه من الغرب، فكل نجم له رقيب، تتعاقب فإذا غاب هذا طلع هذا، وهم يعتقدون بالنجوم إذا طلعت أو غربت أنه يحدث في الأرض حوادث إما خير وإما شر؛ فهذا هو التنجيم، فالتنجيم: هُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكِيَّةِ، هكذا عرَّفه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، وهذا اعتقاد بغير الله عَزَّوَجَلَّ، وادعاء لعلم الغيب، ولهذا قال: «**من اقتبس شعبة من النجوم**» يعني: اعتقد في النجوم أنها تُحدث أشياء «**فقد اقتبس شعبة من السحر**» والسحر كفر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ يعني: الملكان لا يعلمان أحدًا السحر حتى ينصحاه عن تعلمه، فالله أنزلهما فتنة للناس ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: يعلمانه السحر ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ ينصحاه؛ لأنهم ملائكة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ يعني: اختبار ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ يعني: لا تتعلم السحر؛ فدل على أن السحر كفر: تعلمه وتعليمه.

والمنجمون سحرة؛ لأنهم يعتقدون أن النجوم تؤثر كما يؤثر السحر، وكله اعتقاد في غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما الاستدلال بالنجوم والشمس والقمر على الحساب فهذا لا بأس به، وهذا يسمونه علم التسيير، والأول: علم التأثير؛ فعلم التأثير لا يجوز، وعلم التسيير وهو معرفة الحساب بمنازل الشمس ومنازل القمر وطلوع النجوم؛ ليعرف به وقت الزراعة ووقت البذور، فهذا من مصالح الناس وهذا يسمى: علم التسيير؛ فالزراعة لها أوقات تعرف بذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢).

وأخرج النسائي من حديث أبي هريرة ﵁: **«مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فيها فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ»**

الشَّرح

والشمس والقمر في سيرهما يستدل بهما على أوقات الصلاة، ويستدل بهما على اتجاه القبلة، ويستدل بها على الطرق وعلى القبلة، وهذا لا بأس به وهو من علم التسيير ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل]. يهتدي بها المسافر، ولهذا يقول بعض السلف: «خَلَقَ الله هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ»[(١)]، من اعتقد فيها غير هذه الأمور الثلاثة؛ بأن اعتقد فيها أنها تنفع وتضر وتتصرف في الكون؛ فقد أخطأ وأضاع نصيبه من الدين والعياذ بالله.

قوله ﷺ: (في الحديث: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فيها فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ»): هذا الحديث فيه التحذير من السحر، وأنه شرك وكفر بالله ﷻ، وهذا في القرآن: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فدل على أن تعلم السحر وتعليمه كفر بالله ﷻ وشرك بالله، ومعنى قوله: **«مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً»** السحرة يعقدون العقد في الخيوط، ثم ينفثون فيها ويستعينون بالشيطان، فالساحر لا ينفذ سحره ولا يتم إلا إذا استعان بالشياطين، وهذا وجه كون السحر شركًا، أنه استعانة بالشياطين، والاستعانة بغير الله شرك، فلا يمكن أن ساحرًا يسحر إلا ويستعين بالشيطان؛ وإلا لم ينعقد سحرهم، ولن يضر أحدًا، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ

(١) أورده البخاري عن قتادة معلقًا في (بَابٌ فِي النُّجُومِ).

وَمَنْ تَعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليه»[١]، وهذه الأمور إنما كانت من الجبت والشرك؛ لأنها مظنة للتعظيم الجالب للاعتقاد الفاسد، ومن ذٰلك ما أخرجه أهل السنن والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين،

الشَّرح

ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق]، وهن السواحر يعقدن العقد وينفثن فيها ويستعنَّ بالشيطان، وإلا فالخيط مجردًا والنفث لا يعملان شيئًا، ولكن الاستعانة بالشيطان هي التي تؤثر بإذن الله، فالسحرة لهم تعاون وتعلق مع الشياطين ولولا ذلك ما نفذ سحرهم، قوله: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فيها فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ**»، لأنه استعان بالشياطين في عمل السحر، فهذا شرك أكبر.

ثم قال ﷺ: (وَمَنْ تَعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليه): من تعلق قلبه بشيء يرجوه أو يخافه فإن الله يكله إليه استدراجًا له، فإذا تعلق بمخلوق أو بشجر أو بحجر، يعتقد فيه أنه ينفع ويضر؛ فإن الله يكله إلى ذلك المخلوق، كما أن من تعلق قلبه بالله عز وجل، وتوكل على الله كفاه الله عز وجل، فتعلق القلوب يجب أن لا يكون إلا بالله عز وجل، فمن تعلق بغيره فقد أشرك بالله عز وجل.

لهذا يجب على المسلم أن يتعلق قلبه بالله ويستعين بالله ويتوكل على الله، ولا يتعلق قلبه بغير الله بأن يرجوه أو يخافه؛ لأن هذا شرك بالله عز وجل.

قوله: (وهذه الأمور إنما كانت من الجبت والشرك) الجبت قيل: الشيطان، وقيل: السحر، قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، فالجبت هو الشيطان أو هو السحر، وهو شرك بالله عز وجل.

قوله: (لأنها مظنة للتعظيم الجالب للاعتقاد الفاسد)؛ لأنه إذا تعلق بشيء فإنه قد عظمه كتعظيم الرب سبحانه وتعالى؛ فيكون مشركًا بذلك.

---

(١) سنن النسائي (٤٠٧٩).

عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أو عرافًا فَصَدَّقَهُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ**»(١)، وأخرج أبو يعلى بسند جيد

الشَّرْح

قوله ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أو عرافًا» الكاهن والعراف بمعنى واحد، وهو الذي يدّعي علم الغيب، تتنزل عليهم الشياطين، فتخبرهم بشيء هم لا يعرفونه، والشياطين يعرفونه، والشياطين تصعد إلى السماء وتستمع إلى الملائكة، يسترقون السمع كما قال ﷻ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ وهم الكهان، ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء]، يسمع كلمة واحدة من كلام الملائكة ويكذب معها مائة كذبة كما في الحديث(٢) لأجل الفتنة، فهؤلاء هم عملاء الكهان، ولما قال المشركون: إن محمدًا تنزل عليه الشياطين بالقرآن، قال ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾؛ أي: القرآن، ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء] لا يستطيعون أن يقربوا الوحي فيحرقهم، ثم قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ عن الوحي، ﴿لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء]، أي مبعدون فالوحي لا ينزل به إلا الملك وهو جبريل عليه السلام الأمين.

ثم قال ﷻ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ ردًا على قولكم: إنها تنزل على الرسل، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ يعني: كذاب، ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء]، فعملاء الكهان هم الشياطين، وهم يعتمدون على الكذب، وأكثر ما يخبرون به الكذب، فبضاعتهم الكذب، ومع هذا يصدقهم من يصدقهم من الناس ويذهب إليهم ويسألهم؛ ولهذا قال ﷺ: (**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أو عرافًا فَصَدَّقَهُ فَقَدْ كَفَرَ بمَا أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ**)، فلا

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٦)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، والحاكم (١٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢١٠).

مرفوعًا: «مَنْ أتى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يقول فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ»(١)، وأخرج نحوه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن(٢)، والعلة الموجبة للحكم بالكفر ليست إلا اعتقاد أنه مشارك لله ﷻ في علم الغيب، ....

الشَّرْح

يستوي ولا يجتمع تصديق الكهان وتصديق القرآن، لا يجتمعان أبدًا، فهذا فيه أن من سأل الكهان وصدقهم أنه يكفر؛ لأنه صدق بالكفر، ومن صدق الكافر فقد كفر، فلا يجوز الذهاب إلى الكهان والسحرة والمشعوذين؛ لأن هذا يفسد العقيدة ويخل بالتوحيد وينافيه، فلا يجوز الذهاب إليهم، ولو ذهب إليهم وسألهم ولم يصدقهم لن تقبل له صلاة أربعين يومًا، كما في صحيح مسلم: **«مَنْ أتى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عن شَيْءٍ لم تُقْبَلْ له صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»**(٣)، فكيف إذا صدقه.

فلا يجوز الذهاب إلى السحرة والكهان والمخرفين والمنجمين وسؤالهم عن الأمور الغائبة، لأن هذا من ادعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، أو من أطلعه الله على شيء من غيبه؛ كالرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن]، فإن الله يطلعه على شيء من الغيب لمصلحة البشرية، وهذا من معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأما غيرهم فلا يمكن اطلاعه على الغيب ومن صدّق فإنه يكفر، لأنه شارك الله ﷻ في علم الغيب، وهي صفة من صفاته جل وعلا.

قوله: (والعلة الموجبة للحكم بالكفر ليست إلا اعتقاد أنه مشارك لله تعالى في علم الغيب)؛ أي: تصديقه في ادعاء علم الغيب، فمن صدقه في

(١) مسند أبي يعلى (٥٤٠٨).
(٢) في المعجم الكبير (٩٨٦٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

مع أنه في الغالب يقع غير مصحوب بهذا الاعتقاد، ولكن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ومن ذلك: ما في (الصحيحين) وغيرهما: عَنْ زَيْدِ بن خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قال: صلى بِنَا رسول اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ على

الشَّرح

ادعاء علم الغيب فقد كفر بالله عَزَّ وَجَلَّ، وأشرك بالله في صفة من صفاته سبحانه وهي علم الغيب، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

قوله: (مع أنه في الغالب يقع غير مصحوب بهذا الاعتقاد، ولكن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه)؛ أي: لو لم يصدقهم ولم يعتمد على كلامهم؛ فإنه حام حول حمى الشرك وحمى الكفر، فلا يجوز أن يذهب إليهم ويقول: هذا من باب الاطلاع وإلا فإنا غير مصدقهم!.

قوله: (ومن ذلك)؛ أي: ومن ذلك التحذير من التنجيم، وهو الاعتقاد بالنجوم وأنها تؤثر في إنزال المطر، وحدوث الحوادث في الأرض، فالتنجيم هو الاعتقاد في النجوم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التنجيم: هُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكِيَّةِ»(١)، يقولون إذا طلع النجم الفلاني ينزل المطر، إذا طلع النجم الفلاني يموت أحد، أو يولد أحد، يسمونه سوء الطالع، أو حسن الطالع، وهذا كله من عبارات الجاهلية، فالطالع أو الغارب ليس له أمر، بل هي نجوم مسخرة لمصالح البشر وهي مخلوقة، فليس للطوالع أي تأثير في الكون، فالتنجيم بهذا المعنى كفر بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه ادعاء لمشاركة الله عَزَّ وَجَلَّ في تدبيره وخلقه وأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢).

إِثْرِ سمَاءٍ كانت من اللَّيْلِ، فلما انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فقال: «**هل تَدْرُونَ مَاذَا قال رَبُّكُمْ؟**»، قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «**قال أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قال: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»(١)، ولا يخفى على عارف

الشَّرْح

قوله: (على إِثْرِ سمَاءٍ)؛ يعني: على إثر مطر، فالمطر يسمى سماء؛ لأنه نازل من السماء.

فالنبي ﷺ صلى بأصحابه في الحديبية، وهو موضع قريب من مكة، على حدود الحرم من الجهة الغربية، يسمى الآن الشميسي، **(صَلاةَ الصُّبْحِ)**؛ أي: صلاة الفجر، **(على إِثْرِ سمَاءٍ)** أي: على إثر مطر، **(فلما انْصَرَفَ)** أي: سلم، قال: **(هل تَدْرُونَ مَاذَا قال رَبُّكُمْ؟)**، هذا فيه التعليم بطريقة السؤال والجواب؛ لأنه أبلغ، **قالوا: (الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)**، هذا فيه أن من سئل عن شيء وليس عنده علم؛ أنه لا يتخرص ويتكلم فيه، بل يكل ذلك إلى الله ﷻ، وإلى رسوله ﷺ في حياته، فيقول: الله ورسوله أعلم، عند ذلك تطلّعوا إلى الجواب، فقال ﷺ: **(قال)** أي: قال الله ﷻ: **(أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ)**، فمن نسب المطر إلى الله، وقال: **(مُطِرْنَا بفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ)**، فهذا مؤمن بالله ﷻ كافر بالكوكب، ومن قال: **(مُطِرْنَا بنَوْءِ كَذَا وَكَذَا)**؛ أي: بطلوع النجم أو غروب النجم الفلاني، **(فَذَلِكَ كَافِرٌ بي)**؛ أي: كافر بالله ﷻ، **(مُؤْمِنٌ بالْكَوْكَب)**؛ لأنه اعتقد أن الكوكب يدبر شيئًا وينزل المطر، إلى غير ذلك.

فهذه أمور خطيرة، يجب على المسلم أن يعرفها ليتجنبها ويحذر منها،

---

(١) البخاري (٨٤٦)، مسلم (٧١).

أن العلة في الحكم بالكفر هي ما في ذلك من إيهام المشاركة، وأين هذا ممن يصرح في دعائه عندما يمسه الضر، بقوله: يا الله ويا فلان، وعلى الله وعلى فلان؛ فإن هذا يعبد ربين، ويدعو اثنين،

الشَّـرْح

لأنها خطيرة تفسد العقيدة ولا يتجارى الإنسان مع الناس واصطلاحاتهم، فهذه أمور يجب معرفتها، والرسول ﷺ نبه عليها لخطورتها، ولأنها على ألسنة كثير من الناس، فنسبة الحوادث إلى النجوم على ألسنة كثير من الناس، ويسمونها الحظوظ، ويسمونها النحوس، ويقولون: نجمك في أي نجم، ففي بعض الصحف أو بعض المجلات باب يسمونه باب الحظ، ومن ولد في النجم كذا يحصل له كذا. . . إلى آخره، فالجاهلية لم تمت، عند بعض الناس، وإبليس يروجها، ودعاة الضلال يروجونها، فيجب الحذر من مثل هذه الأمور؛ لما في ذلك **(من إيهام المشاركة)** لله ﷻ، في تدبير الكون وإنزال المطر.

قوله: (وأين هذا ممن يصرح في دعائه عندما يمسه الضر، بقوله: يا الله، ويا فلان، وعلى الله وعلى فلان)، إذا كان من اعتقد في النجم أنه يؤثر في إنزال المطر، فإن هذا كفر، فكيف بمن ينادي مع الله غيره في الدعاء، إذا مسه الضر يقول: يا الله، يا فلان، يا عبد القادر، يا علي، يا حسين، يا بدوي، فهذا والعياذ بالله شرك صريح واضح، لأنه يدعو غير الله مع الله ﷻ، الله جل وعلا قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، والدعاء هو العبادة، وهُو أعظم أنواع العبادة، فلا يُدعى مع الله غيره، بل إن بعضهم ينسى الله ﷻ ويدعو الأموات، ويستغيث بالأضرحة وينسى الله ﷻ، فالأمر خطير ولا بد من معرفة العقيدة الصحيحة وما يضادها أو يؤثر عليها، فلا نغفل عن هذا.

قوله: (فإن هذا يعبد ربين)؛ لأن قوله: يا الله يا فلان؛ فإنه سوّى فلانًا بالله ﷻ، وهذا شرك أكبر.

وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فهو لم يقل أمطره ذلك النوء بل قال: أُمطر به، وبين الأمرين فرق ظاهر.

ومن ذلك ما أخرجه (مسلم) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ﷻ: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١)، وأخرج أحمد عن

الشَّرْح

قوله: (وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فهو لم يقل أمطره ذلك النوء بل قال: أمطر به، وبين الأمرين فرق ظاهر)، إذا قال: مطرنا في نوء كذا، يعني في وقت كذا، ووقت الأمطار معروف، فالأوقات التي يُتحرى فيها الأمطار معروفة، فإذا قال (في نوء) يعني في الوقت، فلا بأس بذلك، أما قول: (مطرنا بنوء) بالباء؛ فهذا لا يجوز، وفرق بين التعبيرين، نقول: مطرنا في الموسم، مطرنا على دخول الموسم، في دخول الموسم، في وقت كذا، هذا ليس ممنوعًا أنك تخبر عن وقت نزول المطر ـ بإذن الله ﷻ ـ؛ فإن شاء أن ينزل المطر في ذلك الوقت، وإن شاء لم ينزل.

قول الله: (تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)، هذا فيه أن الشرك يحبط العمل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]، ولما ذكر الأنبياء في سورة (الأنعام) قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾، فالشرك يحبط الأعمال ويبطلها، ولا يصح معه عمل، ويخلّد صاحبه في النار ويحرم من دخول الجنة، فالشرك خطير جدًّا في الدنيا والآخرة، الشرك يبيح قتل المشرك، قال ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَه إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فإذا فَعَلُوا ذلك عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ،**

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

أبي سعيد مرفوعًا: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَسِيحِ الدجال**؟ قال: قُلْنَا: بَلَى، **قال: الشِّرْكُ الخفي، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُزَيّن صَلاته لما يرى مِنْ نَظر الرَّجُلِ**»[١].

الشَّرْح

وَحِسَابُهُمْ على اللهِ»[٢].

والشرك نوعان:

النوع الأول: الشرك الأكبر وهو يخرج من الملة، ويخلد صاحبه في النار إذا لم يتب منه، ويحبط جميع أعماله، ومنه: دعاء غير الله والنذر لغير الله، والذبح لغير الله، والاستغاثة بالقبور والأضرحة.

النوع الثاني: الشرك الأصغر، وهذا يصدر من بعض المسلمين، وهو نوعان:

الأول: شرك في الألفاظ، مثل: الحلف بغير الله، ومثل قول: لولا الله وأنت، ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك من الألفاظ، هذا شرك.

الثاني: شرك خفي في النيات والمقاصد، وهذا هو الرياء والسُّمعة.

والشرك الأصغر قد يصدر من مسلم؛ ولذلك خافه النبي ﷺ على أصحابه، وهو الرياء في الأعمال، كان الصحابة يتحدثون عن الدجال وفتنته بما سمعوا من الرسول ﷺ من الإخبار عنه، فجلسوا يتحدثون عن الدجال، فخرج عليهم الرسول ﷺ، فقال: («**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمسِيحِ الدجال**»؟) قالوا: (**بَلَى، قال**: «**الشِّرْكُ الخفي**») فخافه النبي ﷺ على أفضل الخلق بعد الأنبياء وهم الصحابة، ثم فسّره فقال: («**أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُزَيّن صَلاته لما يرى مِنْ نَظر الرَّجُلِ**»)، أو يحب الإنسان أنه يثنى عليه

---

(١) انظر المسند (١١٢٥٢)، وسنن ابن ماجه (٤٢٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥).

الشَّرح

بالطاعة والأعمال الصالحة، فإذا أحب ذلك فهذا من الرياء، والرياء يحبط العمل الذي حصل فيه، ولا يحبط جميع الأعمال، فهذا من الفروق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وهو أن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، أما الشرك الأصغر فهو يحبط العمل الذي وقع فيه إن لم يتب منه صاحبه، وقلَّ من يسلم من ذلك، فإذا دخل هذا في العبادة فهذا رياء، فعليه أن يتوب إلى الله ويستغفر، ويخلص عمله لله ﷻ، والسمعة: أن يحب الإنسان أن يُسمع كلامه، وأن تسمع خطبته وأن تسمع موعظته، وأن تسمع محاضراته من أجل أن يعظمه الناس، من أجل أن يمدحوه بالعلم، فإذا أحب ذلك فهذه سمعة، فالسُمعة تكون فيما يُسمع من الأقوال، والرياء يكون فيما لا يُسمع من الأعمال، كالصلاة والصيام والجهاد وغير ذلك.

والرياء على قسمين أيضًا:

الأول: رياء المنافقين، وهذا لا يكون معه إيمان أبدًا، قال الله جل وعلا في المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢]، فهذا رياء المنافقين، وهذا لا يجتمع معه إيمان.

النوع الثاني: رياء يجتمع معه الإيمان وهو الرياء من المؤمن، الذي ليس فيه نفاق، ولكن قد يدخل عليه الرياء بأن يحب المدح ويحب السمعة، وهو مؤمن ولكن إذا راءَ بعمله، بطل ذلك العمل ولم يقبله الله، «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، وفي رواية: «**فَأَنا منه بريء وهو لِلَّذِي أَشْرَكَ**»[1]، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٧٩٩٩)، وسنن ابن ماجه (٤٢٠٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فإذا كان مجرد الرياء الذي هو: فعل الطاعة لله ﷻ مع محبة أن يطلع عليها غيره، أو يُثنى عليه بها، أو يستحسنها، شركًا، فكيف بما هو محض الشرك؟، ومن ذلك ما أخرجه النسائي أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: «إنكم تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة»، فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: «ورب الكعبة» وأن يقولوا: **«ما شاء الله، ثُمَّ مَا شئت»**[(١)]، وأخرج

الشَّرْح

يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأنعام]، تبرَّأ الله منه، فكل عمل خالطه الرياء فإن الله لا يقبله، وهو حابط وباطل ولو كان صادرًا من مسلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هذا فيه النهي عن الشرك الأصغر، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وليحذر من الرياء، فـ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

قوله: (فكيف بما هو محض الشرك؟)؛ أي: كيف بالشرك الذي ليس معه إيمان، وهو الشرك الأكبر، فالشرك خطير جدًّا، الأكبر منه والأصغر، فلا يُتساهل فيه فيقال: هذا شرك أصغر؛ لأنه يحبط العمل الذي وقع فيه، فيصير العمل تعبًا بلا فائدة، بل يأثم صاحبه، وإذا كان الرسول ﷺ تخوفه على صحابته وحذرهم منه فكيف بغيرهم؟. ومنه الشرك في الألفاظ كما في حديث: **(أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم)** تشركون **(تقولون ما شاء الله وشئت)**؛ يعني: يقول بعضكم هذا، **(وتقولون: والكعبة)**؛ أي: تحلفون بالكعبة، **(فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا)**: ما شاء الله ثم شاء فلان، وأن يقولوا: **(ورب الكعبة)**؛ أي: أن يحلفوا بالله ﷻ، فالرسول ﷺ قبل منه هذه

(١) أخرجه النسائي (٣٧٧٣).

النسائي أيضًا عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا أن رجلًا قال: «ما شَاءَ الله وَشِئْتَ»، قال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! ما شاء الله وحده**»[(١)].

وأخرج ابن ماجه عن الطفيل قال: رأيت كأني أتيت على نفر

الشَّرْح

الملاحظة، وحذّر أصحابه منها، فهذا فيه قبول الحق ممن جاء به، ولو كان عدوًا، التنبيه على الخطأ يقبله المسلم ولو كان من أفضل الناس، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه فهم الإنسان إذا كان له هوى»، فاليهودي فهم الشرك الأصغر من أجل أن يُعير به المسلمين وله هوى ومغزى، وليس خوفًا من الشرك أو بغضًا للشرك، ولكن من أجل أن يُعيِّر به المسلمين.

قوله: (قولوا: ورب الكعبة)؛ أي: احلفوا بالله عَزَّ وَجَلَّ، ولا تحلفوا بالكعبة لأنها مخلوقة، فلا يجوز الحلف بمخلوق، حتى ولو كان له فضل ومكانة، قال ﷺ: «**مَنْ كان حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أو لِيَصْمُتْ**»[(٢)].

وفي الحديث (**أن رجلًا**) خاطب النبي ﷺ، فـ(**قال: ما شَاءَ الله وَشِئْتَ**)، فقال النبي ﷺ: (**أجعلتني لله ندًّا؟!**)؛ يعني: شريكًا ومشابهًا، قل: (**ما شاء الله وحده**)، فالمسلم يقول: ما شاء الله وحده، أو يقول: ما شاء الله ثم شاء فلان، فيأتي بـ«ثُمَّ».

قوله: (عن الطفيل)، هو أخو عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأمها، وقد جاء إلى الرسول ﷺ وقص عليه رؤيا رآها، فالرسول ﷺ استمع لهذه الرؤيا وحذّر مما فيها.

قوله: (رأيت كأني)؛ يعني: في الرؤيا.

---

(١) أخرجه النسائي (١٠٧٥٩) بلفظ: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»، وفي الأدب المفرد (٧٨٣). عن ابن عباس: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «**جعلت لله نَدًّا ما شاء الله وحده**».

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٧٩).

من اليهود فقلت: إِنَّكُمْ لَأنتم القَوْمُ لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَأَنْتُمْ لأنتم القَوْمُ لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثم مررت بنفر مِنَ النَّصَارَى، فقلت: إِنَّكُمْ لأنتم القَوْمُ لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَأَنْتُمْ لأنتم القَوْمُ لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النَّبِيِّ ﷺ، فَأخبرته، قال: «**فهل أَخْبَرْتَ بها أَحَدًا؟**» قلت: نعم، قال: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: «**أما بعد: فإن طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا، أَخْبَرَ بها من أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم، فلا تَقُولوا: ما شَاءَ الله وشاء مُحَمَّدٌ، ولكنْ قُولُوا: مَا شاءَ اللهُ وحده**»(١)، والوارد في هذا الباب كثير،

الشَّرح

قوله: (إِنَّكُمْ لأنتم القَوْمُ لَوْلا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ)، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وعزير اسم رجل من بني إسرائيل، قيل: إنه نبي، وقيل: إنه رجل صالح.

(تقولون: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ)، مثل ما قاله اليهودي في الحديث الذي قبله.

قوله: (أخبرت بها من أخبرت)؛ يعني: قصَّها على من قصَّها عليه.

قوله ﷺ: (يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم)، قيل: كان يمنعه الحياء، وقيل: منعه أنه لم ينزل عليه فيها شيء، والله أعلم.

فهذا مثل الحديث الذي قبله، وأنه لا يجوز التشريك في المشيئة

(١) سنن ابن ماجه (٢١١٨). وانظر: مسند الإمام أحمد (٢٠٦٩٤ ـ ٢٣٣٣٩).

وفيه أن التشريك في المشيئة بين الله ورسوله، أو غيره من عبيده فيه نوع من الشرك؛ ولهذا جعل ذلك في هذا المقام الصالح كشرك اليهود والنصارى بإثبات ابن لله ﷻ، وفي تلك الرواية السابقة أنه إثبات ند لله ﷻ، ومن ذلك قوله ﷺ لمن قال: «مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى»، فقال رسول اللهِ ﷺ: «**بِئْسَ خَطِيبُ القوم أنت**»، وهو في الصحيح[1].

الشَّرح

بـ (الواو)، أما الإتيان بـ (ثم) فإنه يصحح العبارة لأنه رتّب مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق، فالمخلوق له مشيئة ولكنها بعد مشيئة الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير] فالعبد له مشيئة، ولكنها لا تشرك مع مشيئة الخالق بالعطف بالواو التي هي للتشريك، ولكن بالعطف بـ (ثم) التي هي للترتيب، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (ما شاء الله ثم شاء فلان).

قوله: (**فيه نوع من الشرك**)؛ يعني: الشرك الأصغر.

قوله: (**وفي تلك الرواية السابقة أنه إثبات ند لله ﷻ**) لقوله ﷺ: «أجعلتني لله ندًّا».

قوله: (**قال رسول اللهِ ﷺ: «بِئْسَ خَطِيبُ القوم أنت»**) لما خطب رجل عند الرسول ﷺ فقال: (**مَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى**)، فجمع بين الله ورسوله في قوله: (يعصهما)، فأنكر عليه الرسول ﷺ وقال: «**قُلْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[2].

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٨٧٠).
(٢) أخرجه مسلم (٨٧٠).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، أنه قال: «الأنداد أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: واللهِ وحياتِك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، هذا كله شرك»(١). انتهى.

الشَّرح

ابن عباس رضي الله عنهما فسر هذه الآية من سورة (البقرة): ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فسَّرها بالشرك الأصغر، (لولا الله وأنت)، (لولا البط لأتى اللصوص) فجعله مما تشمله الآية، فالآية تشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: في الشرك الأكبر والأصغر، وكذا في الحديث السابق قوله ﷺ: «**أجعلتني لله ندًّا**»، فالشرك الأصغر أيضًا تنديد، فابن عباس فسَّرها بالشرك الأصغر لأنها تشمله.

وقوله: (الأنداد أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل)؛ لأنه يأتي بعبارات لا ينتبه لها الناس، فهي خفية؛ ولذلك سماه بعض الناس بالشرك الخفي؛ لأنه (**أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل**) وهذا خطير وهو لا ينتبه له الناس.

قوله: (وحياتك يا فلان) هذا حلف بغير الله، وهو شرك.

قوله: (لولا كلبة هذا لأتانا) لأن الكلب يحرس فينبه على اللصوص إذا جاؤوا، فالكلب سبب ولكن لا تجعله هو الذي منع اللصوص.

قوله: (لولا الله وفلان) هذا لا يجوز؛ لأن الواو للتشريك ولكن لو قلت: لولا الله ثم فلان؛ جاز ذلك، ما شاء الله ثم شاء فلان؛ لأن (ثم) للترتيب.

قوله: (هذا كله شرك) أي من أنواع الشرك الأصغر.

---

(١) برقم (٢٢٩).

ومن ذلك ما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَقُلْ أحدكم: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، ولا يَقُلْ أحدكم: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، وفَتَاتِي، غُلَامِي**»[1]، ووجه هذا النهي ما يُفهم من مخاطبة السيد بمخاطبة العبد لربه، والرب لعبده، وإن لم يكن ذلك مقصودًا.

الشَّرح

فالمسلم يتجنب هذه الألفاظ التي فيها إيهام بإنزال المخلوق منزلة الخالق، فلا يقال للعبد: (**أَطْعِمْ رَبَّكَ**)؛ يعني: سيدك؛ لأن لفظ الرب إنما يُطلق على الله جل وعلا لا على غيره؛ فلا يطلق على المخلوق إلا مقيدًا فيقال: رب الدار، رب الدابة؛ فلا يقول للمملوك: (**أَطْعِمْ رَبَّكَ**)؛ يعني: سيدك.

قوله: (**وَضِّئْ رَبَّكَ**)؛ يعني: ائت له بالوضوء؛ لأن هذا اللفظ فيه إيهام.

من وسائل الشرك: التصوير، وهو إيجاد صورة تشبه الصورة التي خلقها الله، وذلك بعمل المصور إما بالرسم باليد وإما بالنحت بالصور المجسمة وبناء الصورة، وإما بالالتقاط بالآلة الكهربائية، مما ينتج عنه وجود صورة تشبه الصورة التي خلقها الله، وهذا مضاهاة لخلق الله عز وجل.

فهذا المصور يحاول أن يحاكي الصورة التي خلقها الله، ولذلك سماه النبي ﷺ: مضاهاة لخلق الله؛ أي: مشابهة، فالمصور يحاول أن يوجد صورة تشبه الصورة التي خلقها الله.

وهو وسيلة للشرك؛ لأن قوم نوح لم يشركوا إلا بسبب الصور التي نصبوها للصالحين على مجالسهم، واعتقدوا فيها أنها تنفع وتضر بتسويل من الشيطان فعبدوها من دون الله.

---

(١) انظر صحيح البخاري (٢٥٥٢).

ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيْرَةً**»[(١)].

ولهما عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ**

الشَّرح

فأول شرك حصل في الأرض هو بسبب التصوير، فلا يتهاون في هذه الجريمة؛ لأن التصوير أصبح فنًّا من الفنون الآن! وله تخصصات ومدارس مع أنه محرم شديد التحريم وملعون من فعله، ومع هذا صار فنًّا من الفنون التي تنفق فيها الأموال وتفتح لها المدارس ومعاهد الفنون، وهذا كله بإملاء الشيطان لبني آدم، وإلا فما المصلحة من التصوير؟! أما إذا كان التصوير ضروريًا مثل ما يوضع في البطاقة الشخصية ومثل إثبات الجرائم وتصوير المجرمين والمشبوهين، فهذه الصور يحتاج إليها الأمن.

وقد حصل الآن وسيلة أحسن من التصوير وأسلم منه، وهي البصمة بالأصبع، فهذه لا تتشابه الناس فيها؛ حيث كل إنسان له بصمة خاصة؛ فأصبحت تغني عن التصوير، فلا حاجة إلى التصوير الآن.

فقوله ﷺ: «**وَلَا صُورَةً**»؛ هذا عام، «**طَمَسْتَهَا**»[(٢)] حتى يزول شكلها، إلا الصور الضرورية التي يحتفظ بها للضرورة فهذه لا بأس، وإن كان حصل الآن ما يغني عنها.

قوله: (**وَمَنْ أَظْلَمُ**) لا أحد أظلم من المصور، فهذا دليل على شدة تحريم التصوير لأنه أعظم الظلم، وتحدى الله المصورين فقال: (**فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً**) وهي النملة الصغيرة (**أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً**) من الحبوب؛ لأن الحبوب فيها حياة، ولذلك تنبت وتنمو، (**أَوْ شَعِيْرَةً**) حبة الشعير؛ لأن الخالق هو الله جل وعلا، لا يقدر على الخلق إلا الله.

لما قدم الرسول ﷺ من سفر وأراد أن يدخل حجرة عائشة رأى سترة على الجدار فيها تصاوير، فأبى أن يدخل وغضب ﷺ، وقال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ**

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١). (٢) أخرجه مسلم (٩٦٩).

الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ»[١]. ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»**[٢].

ولهما عنه مرفوعًا: **«مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»**[٣].

الشَّرْح

الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ» ﷺ؛ حتى هتكت عائشة الستره وقطعتها وجعلتها وسائد، فدخل رسول الله ﷺ.

قوله: (كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ) هذا عموم سواء صوّر بالقلم والرسم أو صور بالنحت والبناء أو صور بالآلة الكهربائية؛ لأن هذا عموم لا يخرج منه شيء؛ فالذين يحاولون أن يقولوا: إن التصوير الفوتوغرافي ليس بتصوير؛ هذه محاولة فاشلة، فهو تصوير، بدليل أنكم أنتم تقولون: إنه تصوير، وما دام أنه تصوير فهو حرام، فليس العبرة بالوسيلة التي توجد بها الصورة، وإنما العبرة في وجود الصورة واقتناء الصور بأي شيء سواء بنيت أو رسمت أو التقطت هذه الصورة؛ لقوله ﷺ: **(كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ)**، فلا يستثنى أحد من المصورين.

هذا وعيد شديد فالله جل وعلا هو الذي يخلق الصور وينفخ فيها الأرواح فتحيا بإذن الله، وهذا المصور الذي يحاول أن يشارك الله في خلقه يقال له يوم القيامة: أحي ما خلقت. فيكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ؛ لأن الروح من أمر الله عز وجل، لا يقدر على خلقها إلا الله، ولكنه يؤمر أمر تعجيز وتعذيب أن ينفخ في كل صورة صورها الروح، ولن يقدر على هذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠).
(٣) أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).

وأخرج مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[1].

فانظر إلى ما في هذه الأحاديث من الوعيد الشديد للمصورين، لكونهم فعلوا فعلًا يشبه فعل الخالق، وإن لم يكن ذلك مقصودًا لهم، ....

الشَّرْح

قوله: (**أن لا تدع صورة**) هذا عموم يشمل أي صورة: (**إلا طمستها**).

وقوله: (**ولا قبرًا مشرفًا**)؛ يعني: مرتفعًا عن القبور بالبناء عليه أو بتراب كثير غير ترابه (**إلا سويته**) إلا أزلت ارتفاعه وجعلته كسائر القبور حتى لا يعرف من بينها.

يقول المؤلف رحمه الله: (**انظر إلى ما في هذه الأحاديث من الوعيد الشديد**) المتنوع كله يدل على تغليظ تحريم التصوير وشدة عذابه عند الله يوم القيامة.

قوله: (**لكونهم فعلوا فعلًا يشبه فعل الخالق**)؛ لأن التصوير من اختصاص الله، فهم يريدون أن يشابهوا الله في خلقه وما هو من خصائصه سبحانه.

قوله: (**وإن لم يكن ذلك مقصودًا لهم**) فالنظر إلى الفعل وليس إلى النية، لو قال: أنا ما قصدت مضاهاة خلق الله! نقول: فعلك هذا مضاهاة لخلق الله، نويت ذلك أم لا، لكن إذا نويته فالأمر أشد.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).

وهؤلاء القبوريون قد جعلوا بعض خلق الله شريكًا له، ومِثْلًا وندًّا، فاستغاثوا به فيما لا يستغاث فيه إلا بالله، وطلبوا منه ما لا يطلب إلا من الله مع القصد والإرادة.

الشَّرح

قوله: (وهؤلاء القبوريون قد جعلوا بعض خلق الله شريكًا له ومثلًا وندًّا)، القبوريون: نسبة إلى القبور؛ لأنهم يعبدون أصحابها ويعبدون الأموات المقبورين فيها؛ لكن العقول تنتكس والعياذ بالله؛ لأن الأموات أموات رميم تراب كيف يعبدونهم من دون الله؟! فالقبوريون هم الذين يعبدون المقبورين بأنواع من العبادات، منها:

الاستغاثة بهم، والميت لا يقدر على شيء، أما في الحياة فهناك أشياء يقدر عليها المخلوق، فيستغاث به فيما يقدر عليه، وما لا يقدر عليه لا يستغاث به، أما الميت فلا يقدر على شيء.

والاستغاثة نوعان:

- نوعٌ فيما يقدر عليه المخلوق الحي، وهذا جائز، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

- ونوع لا يجوز وهو ما لا يقدر عليه إلا الله. هذا بالنسبة إلى الحي، أما الميت فلا يقدر على شيء إطلاقًا؛ فلا يستغاث به.

قوله: (شريكًا له ومثلًا وندًّا) الند هو الشبيه والمثيل.

قوله: (فاستغاثوا به فيما لا يستغاث فيه إلا بالله) لا يستغاث بالميت مطلقًا؛ لأنه لا يقدر على شيء، أما الحي فيستغاث به فيما يقدر عليه.

قوله: (وطلبوا منه ما لا يطلب إلا من الله) الميت ما يطلب منه شيء؛ لأنه غير قادر، والحي فقط يطلب منه ما يقدر عليه من المساعدة والإعانة، وأما ما لا يقدر عليه فلا يطلب منه، أما الميت فلا يطلب منه شيء؛ لأنه لا يقدر على شيء.

ومن ذلك ما أخرجه النسائي بسند جيد عن عبد الله بن الشِّخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، قال: «**السيد الله** سبحانه وتعالى»، قلنا: وأفضلنا وأعظمنا طولًا،

الشَّرْح

قوله: (ومن ذلك) أي من أنواع الوسائل التي تفضي إلى الشرك: شدة المدح، لأنها تفضي إلى الشرك، خصوصًا إذا كان المدح بحضور الممدوح وفي وجهه، فلا يجوز المدح والإطراء، ولا يجوز مدح الإنسان بحضوره وفي وجهه؛ لأن هذا قد يطغيه فهو وسيلة من وسائل الشرك.

قوله: (فقلنا: أنت سيدنا، قال: «السيد الله سبحانه وتعالى») لأنهم واجهوه بالمدح فخشي عليهم من الغلو، فسد الطريق عليهم وقال: «**السيد الله**»، والسيد: معناه المالك المتصرف، فلا يطلق إلا على الله جل وعلا، وأما أن يقال: سيد العبد، أو سيد بني فلان، بمعنى أنه رئيسهم وزعيمهم فهو سيدهم، فهذا مضاف غير مطلق، ولهذا قال ﷺ للأنصار: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»[1]؛ يعني: سعد بن معاذ رضي الله عنه فهذه سيادة خاصة، أما السّيادة العامة فهي لله عز وجل.

والرسول سيد بلا شك؛ لأنه قال في الحديث الصحيح: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**»[2]، وقال ﷺ في الحسن بن علي رضي الله عنهما: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»[3]. فهذه سيادة خاصة، أما السيادة العامة فلا تطلق إلا على الله عز وجل، ولا يقال للشخص في وجهه وبحضوره: أنت سيدنا؛ لأن هذا فيه إطراء، وقد يغتر الشخص ويعجب بنفسه.

وهذا من سد الوسائل إلى الشرك، حيث خشي عليهم من الغلو مع أنه سيدهم عليه الصلاة والسلام، فهو سيد البشر، لكنه خشي عليهم من الغلو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣).
(٢) أخرجه الترمذي (٣١٤٨).
(٣) أخرجه البخاري (٧١٠٨).

قال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»(١)، وفي رواية: «**لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ**»(٢).

وبالجملة فالوارد عن الشارع من الأدلة على قطع ذرائع الشرك، وهدم كل شيء يوصل إليه في غاية الكثرة، ....

الشَّرْح

والإطراء فسدّ هذا الطريق، كما أنهم لما قالوا: «قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق»، قال: «**إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله**»، وهذا من باب سد الطرق المفضية إلى الشرك ومنع الغلو والإطراء.

قوله: (**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**)؛ يعني: القول العادي الذي ليس فيه مبالغة، وهذا منه ﷺ تعليم للأمة وتحذير من الغلو.

قوله: (**أنا محمد عبد الله ورسوله**) هذه منزلته ﷺ أنه عبد ورسول، وهذا هو الشرف أن يكون عبدًا لله ورسولَه؛ أرسله الله ﷻ إلى البشرية، فهذه صفاته ﷺ التي يواجه بها: يا نبي الله، يا رسول الله، وبهذا يخاطب ﷺ، فيقال: عبد الله ورسوله، ولا يقال أكثر من هذا.

قوله: (**وبالجملة**) الفرق بين (بالجملة) و(في الجملة): أن (بالجملة) يشمل كل الصور، أما (في الجملة) فهو يتناول بعض الصور.

قوله: (**في غاية الكثرة**)؛ أي: هنا كثير، ولكنه ذكر نموذجًا من الأدلة

(١) في السنن الكبرى (١٠٠٧٤)، وانظر: مسند الإمام أحمد (١٣٥٩٦، ١٦٣١١، ١٦٣٠٧، ١٦٣١٦)، وأبا داود (٤٨٠٨).
(٢) مسند الإمام أحمد (١٢٥٥١).

ولو رُمْتَ حصر ذلك على التمام لجاء في مؤلف بسيط، فلنقتصر على هذا المقدار، ونتكلم على حكم ما يفعله القبوريون من الاستغاثة بالأموات، ومناداتهم لقضاء الحاجات، وتشريكهم مع الله في بعض الحالات، وإفرادهم بذلك في بعضها.

الشرح

في سد الذرائع التي تفضي إلى الشرك. وقاعدة سد الذرائع مجمع عليها بين العلماء في التوحيد وفي المعاملات وفي غيرها، فهي قاعدة عظيمة مُسلمة، لكن جاء من المعاصرين ومن الجهال ومن المنافقين من يريد فتح الذرائع ويقول: لا يوجد سد للذرائع!، وينكرون الأحاديث وينكرون الآيات القرآنية التي فيها سد الذرائع، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، فالمعنى واحد في راعنا أو انظرنا، لكن لما كان اليهود يستغلون راعنا ويقصدون بها الرعونة، قال الله لنا: قولوا: انظرنا، ولا تقولوا: راعنا، سدًّا للذريعة على اليهود أن لا يتخذوا هذه اللفظة وسيلة لتنقص الرسول ﷺ؛ لأن ﴿رَٰعِنَا﴾ تحتمل الرعونة وتحتمل النظر، فاتركوا الذي فيه اشتراك واذهبوا إلى اللفظ الذي ليس فيه اشتراك وهو: ﴿ٱنظُرْنَا﴾.

والأمثلة على هذا كثيرة، ذكر ابن القيم ـ في كتابيه: إغاثة اللهفان، وإعلام الموقعين ـ تسعة وتسعين مثالًا لسد الذرائع من الكتاب والسُّنَّة.

قوله: (ولو رُمْتَ حصر ذلك على التمام لجاء في مؤلف بسيط) فابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر منها تسعة وتسعين مثالًا، ولو أفردت هذه الأمثلة لأصبحت كتابًا مستقلًّا.

فنقول: اعلم أن الله لم يبعث رسله وينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق لهم والرازق لهم، ونحو ذلك، فإن هذا يقر به كل مشرك قبل بعثة الرسل، ....

الشَّرْح

التوحيد نوعان: **الأول**: توحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعاله سبحانه؛ من الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتقدير والتدبير، وهذا يُقر به كل المخلوقين، لا ينكره إلا مكابر، وسيذكر المؤلف أمثلة في القرآن تدل على أن المشركين يقرون به ولا ينكرونه. **الثاني**: توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بالعبادة، وهذا أنكره أكثر الخلق، وجاءت الرسل بالدعوة إليه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ﴿إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. كل الرسل جاءوا بالدعوة إلى توحيد الألوهية ولم يطلبوا من الخلق توحيد الربوبية لأمرين: **الأول**: لأنه موجود فيهم بفطرهم؛ فهم يقرون بتوحيد الربوبية. **الثاني**: أنه لا يغني وحده، فلو أقروا بتوحيد الربوبية لم يدخلهم ذلك في الإسلام؛ لأن المشركين أقروا به، ولم يدخلهم في الإسلام، والرسل طالبتهم بتوحيد الألوهية، ولم تطالبهم بتوحيد الربوبية؛ لأنهم يقرون به. وعلماء الكلام في عقائدهم التي تُدرَّس الآن في مدارسهم كلها مبنية على توحيد الربوبية، وهو الإقرار بالخالق والرد على الملحدين وو..، لكن توحيد العبادة لا يذكرونه، ولا يذكرون الألوهية في مؤلفاتهم، فهي هباء منثور لا يغني شيئًا، إنما المطلوب معرفة توحيد الألوهية والعبادة، هذا هو الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، ودعا إليه الأنبياء والمرسلون والمصلحون من العلماء، وتوحيد الأسماء والصفات داخل في توحيد الربوبية، ولكن لما ظهرت الفرق من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وأتباعهم، وتكلموا في الأسماء والصفات وأوّلوها؛ أفرد العلماء توحيد الأسماء والصفات وجعلوه قسمًا مستقلًّا، فقالوا: التوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والأصل أن التوحيد نوعان: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

قوله: (فإن هذا يقر به كل مشرك قبل بعثة الرسل)؛ يعني: توحيد

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ

الشَّرْح

الربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ يعني: لئن سألت المشركين: من الذي خلقهم؟ ليقولن: الله.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾: فلا يقولون: خلقها البدوي، أو خلقها علي بن أبي طالب، أو الحسين، أو عبد القادر، لا يستطيعون أن يقولوا هذا، قال تعالى متحديًا المشركين: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠] يتحداهم بذلك؛ فهم يعبدون من لا يخلق ولا يرزق.

وكذلك قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١] فالمشركون مقرون بتوحيد الربوبية، وأن الأصنام والقبور لا ترزق، إنما الرزاق هو الله جل وعلا.

قوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لو أراد الله أن ينزع سمعك أو بصرك فمن الذي يرده؟ لا يمكن أن يرده أحد، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، فلا يقدر على رد البصر إلا الله جل وعلا، فلو جئت بمهرة الأطباء ليعيدوا البصر؛ وليحولوا الأعمى إلى بصير لا يستطيعون، ولو جئت بهم كلهم ليردوا السمع إلى الأصم ما استطاعوا، لكن ربما إذا كان في السمع أو في البصر مرض فإنهم يعالجونه، أما أنهم يردون السمع المفقود وكذا البصر المفقود فلا يمكن أبدًا.

قوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ من الذي يخرج النبات من الحب الميت، ويخرج الجنين من النطفة الميتة، ويخرج

وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ [يونس]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ....

الشرح

الفرخ من البيضة، من هو؟ هو الله ﷻ ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [يونس: ٣١] يخرج الكافر من المؤمن، ويخرج البيضة من الطائر، فالبيضة ميتة والطائر حي، ويخرج الورق والنبات من الحبة.

قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ فالذي يدبر الأمر عمومًا؟ هو الله جل وعلا، لا أحد يدبر الأمر إلا الله.

فتوحيد الربوبية إنما يُذكر لإقامة الحجة على توحيد الألوهية، فيحتج عليهم بما أقروا به على ما أنكروه.

وقوله: ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تتقون الله الذي تقرون به فتعبدوه! فهذه براهين قاطعة.

وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [المؤمنون] من الذي يملك الأرض ومن فيها؟ سيقولون: الله، ولا يقدرون أن يقولوا: إن فرعون يملك الأرض ومن فيها، أو النمرود، أو الملك الفلاني!! لأنهم لا يملكون إلا مِلْكًا مؤقتًا، ولا يملكون الأرض ومن فيها من المخلوقات العظيمة؛ من الذي يملكها؟ هو الله جل وعلا وحده.

قوله: ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا يتذكرون أن الله هو الذي يستحق العبادة؟ إذا كان هو الذي يملك السماوات والأرض؛ أفلا يتذكرون أنه هو الذي يستحق العبادة وأن معبوداتهم لا تملك شيئًا؟.

قوله: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أفلا تتقون الله الذي تشركون به وهو رب السموات

قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون].

ولهذا نجد كل ما ورد في الكتاب العزيز في شأن خالق الخلق ونحوه في مخاطبة الكفار مُعَنْوَنًا باستفهام التقرير: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، ....

الشَّرح

السبع العظيمة؟ وأعظم منها العرش، وهو رب الجميع العرش.

قوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملكوت هو الملك والذي يملك ذلك هو الله جل وعلا، فالمُلك المطلق لله جل وعلا، وملك المخلوق للشيء ليس من ذاته وإنما الله ملّكه إياه.

قوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ من لجأ إلى الله لا أحد يستطيع أن يؤذيه أو يضره، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ لو أن الله طلب أحدًا ما استطاع كل من في الأرض أن يمنعوه من الله جل وعلا.

قوله: **(معنونًا باستفهام التقرير)** استفهام التقرير غير استفهام الإنكار، فاستفهام التقرير يؤتى به، لأجل إلزامهم وإبطال ما هم عليه، ومن أمثلته:

قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ هذا استفهام تقرير؛ أي: لا خالق غير الله، فهم يقرون بهذا.

قوله: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يشكون في ربوبية الله أبدًا.

قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾؛ أي: لا ولي إلا الله عز وجل.

قوله: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ هذا تحدٍّ لهم بأن هؤلاء

بل بعث الله رسله وأنزل كتبه لإخلاص توحيده وإفراده بالعبادة، ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢]، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح]، ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]،

الشَّرح

الذين تعبدونهم أروني ماذا خلقوا من هذا الكون، لا يستطيعون أن يقولوا: إنهم خلقوا كذا وخلقوا كذا؛ فهذا إلزام وإفحام لهم: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]. تحدٍّ من الله ﷻ لهم.

وقوله: (بل بعث الله رسله وأنزل كتبه لإخلاص توحيده وإفراده بالعبادة) هذا الذي أرسل الله به الرسل؛ أنها تطالب الخلق بإفراد الله بالعبادة ولا تطالبهم بالإقرار بالربوبية؛ لأنهم يقرون بها، لم يدخلوا في الإسلام حتى يعبدوا الله وحده لا شريك له، فتوحيد الربوبية إنما هو موصل لتوحيد الألوهية.

قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ كل رسول يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلم يقولوا: يا قوم أقروا بأن الله هو الرب وأنه هو الخالق، فلا أحد من الرسل طالب بهذا؛ لأنه موجود فيهم، إنما يطالبون بالعبادة.

قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالرسل يقولون لقومهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود] كما قالها نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل، لم يقولوا: أقروا لله بالربوبية، فتوحيد الربوبية موجود فيهم، ولا يغني شيئًا إذا اقتصر عليه.

قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ كما قاله نوح عليه السلام لقومه.

قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ يقول الكفار للرسول: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ وهذا دليل على أن الرسل طالبوا بعبادة الله وحده وترك الشرك.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وإخلاص التوحيد.........................

الشَّرح

قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ نفي وإثبات، نفي للألوهية عن غير الله وإثباتها لله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِيَّٰىَ﴾ قدم المعمول (إياي)؛ فتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

قوله: **(وإخلاص التوحيد)**؛ أي: تصفيته من جميع أنواع الشرك: الأكبر والأصغر، ولا يقبل الله إلا التوحيد الخالص، وأما التوحيد الذي يخالطه شرك فهذا لا يقبل عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا يسمى توحيدًا، وإن سماه الناس بذلك؛ لأن التوحيد معناه: إفراد الله بالعبادة بجميع أنواعها: من الدعاء، والخوف، والرجاء، والاستغاثة، والاستعانة، والتوكل، وكل أنواع العبادة وهي كثيرة، فلا بد أن تكون كلها خالصةً لله، أما أن يخص الله ببعضها، ويشرك الأنداد في بعضها؛ كأن يدعو الأموات وغيرهم ولو في بعض أموره؛ فهذا لا يقبل الله منه شيئًا، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾؛ لأنهم لا يقدرون على شيء، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، أي ينكرون دعاءكم لهم وينكرون كل ما وجهتموه إليهم؛ لأنهم لا يقدرون على شيء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف]؛ أي: ينكرون عبادة من عبدهم، فهذا مآل المشركين يوم القيامة؛ فكيف بعاقل يقدم على دعاء غير الله، ويستغيث بغير الله من الأموات ومن المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر من دون الله: من

لا يتم إلَّا بأن يكون الدعاء كله لله، والنداء والاستغاثة والرجاء واستجلاب الخير، واستدفاع الشر له، ومنه لا لغيره ولا من غيره، ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]،

الشَّرْح

الأشجار، والأحجار، وغير ذلك، أين عقول من يتركون الخالق سبحانه القادر على كل شيء الذي أمرهم بدعائه ووعدهم أن يستجيب لهم، ويذهبون إلى مخلوقين ضعفاء وجمادات، هذا من خبل العقول، ولا حول ولا قوة إلا الله.

قوله: (لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله لله)، بل لا يصح له دعاء ولا يقبل إلا أن يكون الدعاء كله لله، فلا يتحقق التوحيد إلا بذلك.

قوله: (يكون الدعاء كله لله، والنداء، والاستغاثة، والرجاء، واستجلاب الخير، واستدفاع الشر)، فكل هذا حق لله ﷻ، فكل أنواع العبادة لله، لا يستحقها أحد غيره من المخلوقين.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ فالذي يدعو الله، ويدعو معه أحدًا: مشرك ولا ينفعه دعاؤه لله، وكذلك كل أنواع القربات والطاعات إذا لم تكن خالصة لله فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره، وتصير هباءً منثورًا.

قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لله ﷻ ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ فالدعاء الصحيح والنافع هو دعاء الله ﷻ، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأحجار والأشجار والقبور، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد]؛ أي: خطأ وهلاك، وإن اتعبوا أنفسهم في ذلك فإنه لا ينفعهم؛ لأنهم يدعون من لا يقدر، ولا يضر ولا ينفع ولا يستجيب.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران] هذا حصر،

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقد تقرر أن شرك المشركين الذين بعث الله إليهم خاتم رسله ﷺ لم يكن إلا باعتقادهم أن الأنداد التي اتخذوها تنفعهم وتضرهم وتقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده، مع اعترافهم بأن الله سبحانه وتعالى هو خالقها وخالقهم، ....

الشَّرْح

الأصل يتوكل المؤمنون على الله، ولكنه قدم المعمول وهو ﴿عَلَى اللهِ﴾ على العامل وهو ﴿يَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يتوكل على غير الله، فمن توكل على غير الله فهو مشرك.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فدل على أن الذي يتوكل على غير الله ليس بمؤمن.

قوله: (وقد تقرر أن شرك المشركين الذين بعث الله إليهم خاتم رسله): وهو محمد ﷺ **(لم يكن إلا باعتقادهم أن الأنداد التي اتخذوها تنفعهم وتضرهم)**، فيدعونهم ويقولون: نحن نعلم أنهم لا يقدرون على النفع والضر، وإنما الذي يقدر على هذا هو الله، ولكننا نتخذهم وسائط بيننا وبين الله ليقربونا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، هذا قصدهم، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي: يشفعون لهم عند الله، وما اعتقدوا أنهم يرزقون ويخلقون ويدبرون الأمر، فهذا يعترفون أنه لله عز وجل، وإنما أشركوا هم في العبادة، فعبدوهم مع الله بقصد أنهم يشفعوا لهم عند الله، وأن يقربوهم إلى الله زلفى، وهذا هو الشرك الأكبر الذي أنكره الله عليهم.

قوله: (مع اعترافهم بأن الله سبحانه وتعالى هو خالقها وخالقهم)، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٨٧﴾

ورازقها ورازقهم، ومحييها ومحييهم، ومميتها ومميتهم، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، ....

الشَّرْح

[الزخرف]، وقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، مع أنهم يشركون معه غيره في العبادة ممن لا يقدر على هذه الأشياء، وهم يعترفون أن هذه خاصة بالله ﷻ؛ فكيف يسوون هذه المخلوقات العاجزة مع الله ﷻ في العبادة؟!، هذا من إقامة الحجة عليهم.

وقوله: (ورازقها ورازقهم)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات]، فالرزق من الله ﷻ، ومعبوداتهم لا تخلق ولا ترزق.

قوله: (ومحييها ومحييهم، ومميتها ومميتهم)، فهو الذي بيده الحياة والموت.

قوله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، هذا قصدهم، فهم يعترفون بتوحيد الربوبية، ولكنهم يشركون في توحيد الألوهية، ويقولون: ما نقصد من هذه المعبودات إلا الشفاعة، والتوسل بالمخلوقين إلى الله ﷻ، والله لم يشرع هذا، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، الله أمر بدعائه وحده، وبعبادته وحده، ونهى عن عبادة غيره في كثير من الآيات القرآنية، ومع هذا لم يلتفتوا لذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَندَادًا﴾ عدلاء ونظراء وشركاء لله ﷻ تسوونهم به، وأنتم تعلمون أن هذه الأنداد لا تخلق

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء]، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. وكانوا يقولون في تلبيتهم: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك، إلا شَرِيكًا هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ.

الشَّرْح

ولا ترزق، ولا تُحيي ولا تميت، ولا تدبر الأمر هذا؛ فكيف تعبدون هذه الأشياء، والآية تنهى عن ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: شركاء، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة] أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر، وإنما هذا لله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ يقول المشركون يوم القيامة إذا دخلوا النار هم ومن عبدوهم من دون الله ممن رضوا بعبادتهم، ﴿تَٱللَّهِ﴾ هذا قسم، ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لِمَ؟ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: نعادلكم بالله ونعبدكم مع الله، اعترفوا بأن شركهم هو الذي أوردهم هذا المورد، وأدخلهم الجحيم والعياذ بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: يؤمنون بتوحيد الربوبية، ويشركون في توحيد الألوهية، وهذا من التناقض.

قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أول الآية: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، فسماهم مشركين، مع أنهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قوله: (وكانوا يقولون في تلبيتهم: لَبَّيْك لا شَرِيك لك، إلا شَرِيكًا هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ)، كان المشركون يعتمرون ويحجون، على ما بقي من دين إبراهيم عليه السلام، إلا أنهم يقولون في التلبية: (لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك إلا شَرِيكًا

وإذا تقرر هذا، فلا شك أن من اعتقد في ميت من الأموات، أو حي من الأحياء أنه يضره أو ينفعه، إما استقلالًا أو مع الله تعالى، أو ناداه أو توجه إليه أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق، فلم يخلص التوحيد لله، ولا أفرده

الشَّرْح

هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ)، سبحان الله!، إذا كان يملكه وما ملك فكيف يكون شريكًا للمالك لكل شيء؟، هذا من التناقض، وقصدهم أن هذه المعبودات ملك لله، وإنما اتخذوها وسائط بينهم وبين الله بزعمهم، وشفعاء بينهم وبين الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، فكيف يقولون: (لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك إلا شَرِيكًا هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ)، فتجعلون لله شركاء من مماليكه وعبيده، وأنتم لا ترضون أن يشارككم عبيدكم ومماليككم، لا ترضون أن يشاركوكم في أموالكم! فهذا من العجب، والنبي ﷺ خالفهم في التلبية، فقال: «**لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لك والملك لَا شَرِيكَ لك**»(١)، فنفى الشركاء لله ﷻ في التلبية.

قوله: (وإذا تقرر هذا)، أنهم يعبدون المعبودات من دون الله وهم يعترفون أنها ليس لها من الأمر شيء، وأنها لا تضر ولا تنفع.

قوله: (فلم يخلص التوحيد لله)؛ أي: إذا فعل هذا مع اعترافه بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، لا شريك له في ربوبيته، فلماذا يشركون معه في ألوهيته، فيعبدون معه غيره، بحجة أنه واسطة بينهم وبين الله، أو أنه يشفع لهم عند الله أو ما أشبه ذلك، أو لمجرد التقليد لآبائهم وأجدادهم من غير روية وتفكير، فهؤلاء لم يخلصوا التوحيد لله ﷻ، وإنما خلطوه بالشرك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩١٥).

بالعبادة؛ إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه، ودفع الضر عنه هو نوع من أنواع العبادة.

ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه: حجرًا، أو شجرًا، أو مَلَكًا، أو شيطانًا كما كان يُفعل ذلك في الجاهلية، وبين أن يكون إنسانًا من الأحياء، أو الأموات كما يفعله الآن كثير من المسلمين، ....

الشَّرْح

قوله: (إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه، ودفع الضر عنه هو نوع من أنواع العبادة) فالذي يدعو أحدًا أن يدفع عنه الضرر، أو أن يجلب له الخير من دون الله، هذا مشرك، لأنه لا يملك الضر والنفع إلا الله سبحانه، وإذا قُدر أن مخلوقًا نفعك بشيء فإنما هو سبب فقط، والله هو الذي أجرى هذا على يد المخلوق الذي نفعك، لا أنه مستقل بهذا.

قوله: (ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه: حجرًا، أو شجرًا...)، المشركون في هذه الأمة هم من هذا النوع، يعبدون غير الله، وإذا قيل لهم: هذا شرك، قالوا: الشرك عبادة الأصنام ونحن لا نعبد أصنامًا؛ بل نعبد الملائكة، ونعبد الأنبياء، والصالحين، ونعبد الأشجار والأحجار، وهي ليست عاصية لله ﷻ، فكيف تجعلوننا من المشركين؟! نقول: الشرك هو عبادة غير الله ودعاء غير الله، سواءً كان هذا الغير: صنمًا أو غير صنم، لا فرق في ذلك، والذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ لم يكونوا مقتصرين على عبادة الأصنام، بل هم متفرقون في عباداتهم، فمنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، والنبي ﷺ لم يفرق بينهم، بل قاتلهم جميعًا، فالشرك هو عبادة غير الله أيًّا كان هذا الغير: صنمًا أم غير صنم.

قوله: (كما يفعله الآن كثير من المسلمين)، هذا فيه تجاوز وإلا فالذي يفعل هذا ليس من المسلمين، ولكن ينتسبون إلى الإسلام.

وكل عالم يعلم هذا ويقر به؛ فإن العلة واحدة، وعبادة غير الله تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان كما يكون للجماد، وللحي كما يكون للميت.

فمن زعم أن ثَمَّ فرقًا بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر أو ينفع، وبين من اعتقد في ميت من بني آدم، أو حي منهم أنه يضر أو ينفع، أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا الله، هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به؛ فقد غلط غلطًا بيِّنًا، وأقر على نفسه بجهل كبير؛ فإن الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به،

الشَّرح

قوله: (وكل عالم)، كل عالم من العلماء المحققين، **(يعلم هذا)**، يعرف أنه لا فرق بين المعبودات، سواء أكانت أصنامًا أو غيرها، إنما يفرق بينها علماء الضلال، فهناك من العلماء علماء ضلال أهلكوا الناس بتضليلهم، ولكن العالم الحقيقي يعترف أنه لا فرق بين هذه المعبودات، فلم يقتصر على قتال عبدة الأصنام، بل قاتل الذين يعبدون الملائكة، والشمس، والقمر، ويعبدون الأولياء والصالحين، والذين يعبدون المسيح فلم يفرق بينهم، قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وهٰذا عموم لجميع المشركين، فلم يفرق بينهم ﷻ.

قوله: (وتشريك غيره معه تكون للحيوان) الحيوان يعني الأحياء، وليس الحيوان الذي هو البهائم والدواب، ولكن المراد بالحيوان: كل من فيه حياة، **(كما تكون للجماد)** الجمادات: هي التي لا روح فيها.

قوله: (وللحي كما يكون للميت) فكل ذلك شرك.

قوله: (فإن الشرك هو: دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به)، هذا ضابط الشرك أنه دعاء غير الله، والعلماء المحققون لا يفرقون بين من

أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه.

ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكًا بالصنم والوثن والإلٰه ـ لغير الله ـ زيادةً على التسمية بالولي والقبر والمشهد، كما يفعله كثير من المسلمين، بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن؛

الشَّرْح

عبد الأصنام وعبد الأولياء والصالحين، كله شرك بالله ﷻ، وإلا فماذا يقولون في الذين يعبدون المسيح، ويقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، فيعبدونه مع الله، أو يقولون: المسيح هو الله، فهل يكون هؤلاء موحدون؛ لأنهم عبدوا نبيًا من الأنبياء؟! لا أحد يقول هذا إلا من أعمى الله بصيرته.

قوله: (التي تختص به)؛ أي: تختص بالله.

قوله: (أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه)؛ كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة.

قوله: (أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه)؛ أي: الله، من الدعاء والصلاة والذبح والنذر، وغير ذلك.

قوله: (كما يفعله كثير من المسلمين)؛ يعني: المنتسبين للإسلام، فلا فرق بين عبادة الأصنام، وعبادة غير الأصنام، حتى من الملائكة، والأنبياء والأولياء والصالحين، لا فرق بين هذا، فالعبادة حق لله ﷻ، فلا يجوز أن يشرك معه غيره، فهي من خصائص الله ﷻ، لا يستحقها أحد غير الله.

قوله: (بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن)؛ أي: العقيدة واحدة، بين من كان

إذ ليس الشرك هو مجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات، بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئًا يختص به سبحانه، سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية، أو أطلق عليه اسمًا آخر، فلا اعتبار بالاسم قط، ....

الشَّرْح

يعتقد في الصنم، ومن يعتقد في القبر، هي سواء، إذا كان يعتقد أن القبر أو صاحب القبر يضر وينفع، وأنه يجيب الدعاء ويذبح له وينذر له، فهو كمن فعل هذا مع الصنم، لا فرق.

قوله: (إذ ليس الشرك هو مجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات): كأن يقولون: الشرك عبادة الأصنام، فهذا تفسير قاصر؛ لأن الشرك عبادة غير الله سواء كانت من الأصنام أو غير الأصنام، أما تفسير الشرك بأنه عبادة الأصنام فقط، فهذا تفسير باطل.

قوله: (بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئًا يختص به سبحانه)؛ أي: الشرك عام في كل ما يُجعل أو يُصرف لغير الله من العبادات، فكله شرك ولا يختص بنوع معين من العبادات أبدًا، فكل أنواع العبادة لله ﷻ، فلا يُقال: هذا لله وهذا لغير الله.

قوله: (يختص به سبحانه)؛ يعني: لا يصلح إلا لله من العبادات.

قوله: (فلا اعتبار بالاسم قط)؛ لأن الأسماء لا تغير الحقائق، فدعاء غير الله شرك، ولو سماه توسلًا وطلبًا للشفاعة؛ فهو شرك، فالشرك هو عبادة غير الله ولو سموه توسلًا وتشفعًا؛ فلهذا أنكر الله على الذين يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠] ثم قال في ختام الآية: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فسمّاه شركًا مع أنهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ

ومن لم يعرف هذا فهو جاهل لا يستحق أن يُخاطَبَ بما يُخاطَبُ به أهل العلم.

وقد علم كل عالم أن عبادة الكفار للأصنام لم تكن إلا بتعظيمها، واعتقاد أنها تضر وتنفع، والاستغاثة بها عند الحاجة، والتقرب لها في بعض الحالات بجزء من أموالهم، ....

الشَّرْح

كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] فحكم عليه أنه كفر وكذب، وهم يقولون: إن هذا توسط بالمخلوق إلى الله ﷻ، ولكن الأسماء لا تغير الحقائق.

قوله: (ومن لم يعرف هذا فهو جاهل) من أنكر هذا وخص الشرك ببعض الأشياء ونفاه عن بعضها - مع أن الحكم واحد - فهذا جاهل و**(لا يستحق أن يخاطب بما يخاطب به أهل العلم)**، فالجاهل لا يخاطب بما يخاطب به العلماء، ولا يُجادل بما يجادل به العلماء؛ لأنه لا يرتفع إلى هذه المنزلة.

قوله: (عبادة الكفار للأصنام)؛ يعني: عبادة المشركين للأصنام مثل عبادة القبوريين للقبور، فالمشركون يعتقدون في الأصنام أنها تضر وتنفع وإلا لما عبدوها، وكذلك عباد القبور يعتقدون أنها تضر وتنفع، ولولا ذلك ما عبدوها، كيف يعبدون ما لا يضر ولا ينفع؟ فالمقصود واحد وهو مقصود عباد الأصنام ومقصود عباد القبور واحد، فهم إخوان، وعملهم كله شرك، لا يفرق بين هذا وهذا، فلا يفرق بين المتماثلات، ولا يجمع بين المتفرقات.

قوله: (والتقرب لها في بعض الحالات بجزء من أموالهم)، المشركون كانوا يقربون، ويقدمون إلى أصنامهم شيئًا من أموالهم، ويذبحون لها وينذرون لها، وكذلك عباد القبور ينذرون لها، ويقدمون لها التبرعات في صناديق النذور عند الأضرحة، ويجمعون فيها الأموال تقربًا إلى القبور، مثل ما يفعل المشركون من قبل سواء بسواء، فالتقرب بالأموال التي هي أعز شيء عندهم،

وهذا كله قد وقع من المعتقدين في القبور، فإنهم قد عظموها إلى حد لا يكون إلا لله سبحانه، بل ربما يترك العاصي منهم فعل المعصية إذا كان في مشهد من يعتقده أو قريبًا منه؛ مخافة تعجيل العقوبة من ذلك الميت، وربما لا يتركها إذا كان في حرم الله، أو في مسجد من المساجد، أو قريبًا من ذلك، ....

الشَّرْح

فيسيبون لها السوائب والبحائر، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة]، هذه أنواع من الإبل يسيبونها للأصنام.

قوله: (وهذا كله قد وقع من المعتقدين في القبور)، كل ما حصل من المشركين الأولين، قد وقع مثله ـ أو أشد ـ عند من ينتسبون للإسلام وهم يعبدون القبور، حصل منهم شيء أشد مما حصل من المشركين الأولين كما يأتي.

قوله: (مخافة تعجيل العقوبة من ذلك الميت)، كان المشركون في هذه الأمة يعظمون القبور أكثر مما يعظمون الله ﷻ، فلا يفعلون المعاصي قريبًا من القبور؛ لأنهم يخافون أن الميت يضرهم!، وأن الولي يضرهم!، بينما أنهم يعصون الله ﷻ في حرمه وفي بيوته، فلا يخافون الله ﷻ، وإذا قيل لأحدهم: احلف بالله يبادر بالحلف، وإذا قيل له: احلف بالقبر الذي تعبده: اضطرب وخاف وأبى أن يحلف! يخاف أن الميت يضره، فهم يخافون هذه القبور أكثر مما يخافون الله، ويعظمونها أكثر من تعظيم الله، نسأل الله العافية، ويبكون عند القبور أكثر مما يبكون في المساجد وعند الكعبة.

قوله: (وربما لا يتركها إذا كان في حرم الله) في مكة أو في المسجد الحرام أو في بيوت الله والمساجد.

وربما حلف بعض غلاتهم بالله كاذبًا، ولم يحلف بالميت الذي يعتقده، وأما اعتقادهم أنها تضر وتنفع، فلولا اشتمال ضمائرهم على هذا الاعتقاد لم يَدْعُ أحد منهم ميتًا أو حيًا عند استجلابه لنفع، أو استدفاعه لضر قائلًا: يا فلان افعل لي كذا وكذا، وعلى الله وعليك، وأنا بالله وبك، وأما التقرب للأموات........

الشَّرْح

قوله: (وربما حلف بعض غلاتهم بالله كاذبًا، ولم يحلف بالميت الذي يعتقده)، فإذا طلبت منه اليمين بالله بادر، وإذا طلبت منه اليمين بالقبر اضطرب وتلجلج وأبى أن يحلف، يخاف أن الميت يضره إذا حلف به وهو كاذب، فيحلف بالله كاذبًا، ولا يحلف بالميت كاذبًا؛ ولهذا يُروى أن بعضهم يقول: كيف تعصي الله وأنت ترى قبة القبر قريبة منك؟!.

قوله: (فلولا اشتمال ضمائرهم على هذا الاعتقاد لم يدع أحد منهم ميتًا أو حيًّا عند استجلابه لنفع...) مما يدل على أنهم يعتقدون أنها تضر وتنفع: أنهم يقولون: نحن لا نعتقد أنها تضر وتنفع، ولكنا نتخذها وسائط وشفعاء؛ لأنهم صالحون فيتوسطون لنا، وإلا فالضر والنفع بيد الله، يقول المؤلف: إنهم يقولون هذا بألسنتهم، ولكنهم في قلوبهم يعتقدون أنها تضر وتنفع، ولولا أنهم يعتقدون ذلك ما عبدوها.

ومن ذلك قولهم: (وعلى الله وعليك، وأنا بالله وبك) هذا تشريك بين الخالق والمخلوق؛ لأن الواو تقتضي التشريك، وأما (ثم) إذا قال: (وعلى الله ثم عليك، وأنا بالله ثم بك) فهذا لا بأس به؛ لأنه جعل المخلوق تابعًا للخالق، معطوفًا عليه بـ (ثم)، وأما بالواو فهذا يقتضي التشريك، تقول: جاء فلان وفلان، يعني اشتركا في المجيء، بينما تقول: جاء فلان ثم فلان؛ يعني: لم يشتركا في المجيء فهذا بعد هذا، وهذا من معاني الألفاظ اللغوية.

فانظر ماذا يجعلونه من النذور لهم وعلى قبورهم في كثير من المحلات، ولو طُلب الواحد منهم أن يسمح بجزء من ذلك لله تعالى لم يفعل، وهذا معلوم يعرفه من عرف أحوال هؤلاء.

فإن قلت: إن هؤلاء القبوريين يعتقدون أن الله تعالى هو الضار النافع، والخير والشر بيده، وإن استغاثوا بالأموات قصدوا إنجاز ما يطلبونه من الله سبحانه! قلت: وهكذا كانت الجاهلية، فإنهم كانوا يعلمون أن الله هو الضار النافع، وأن الخير والشر بيده، وإنما عبدوا أصنامهم لتقربهم إلى الله زلفى، كما حكاه الله عنهم في كتابه العزيز.

الشَّرْح

قوله: (فانظر ماذا يجعلونه من النذور لهم)؛ أي: انظر ماذا يفعلون من النذور للقبور، والذين شاهدوها يرون العجب العجاب عند البدوي وعند غيره؛ حيث يأتون بالأغنام وبالإبل وبالأموال والدراهم ويقيمون عندها أيامًا ويذبحون لها.

قوله: (ولو طُلب الواحد منهم أن يسمح بجزء من ذلك لله تعالى لم يفعل)، لو طلب منه أن يتصدق على الفقراء والمساكين لم يفعل، بينما لو طلب منه أن ينذر للقبر بالأموال الطائلة لبادر إلى ذلك، وهذا دليل على أنهم يعظمونها أكثر مما يعظمون الله، وأنه يحلف بالله كاذبًا ولا يحلف بالصنم أو بالقبر كاذبًا، ويتحاشى من المعصية عند القبر، ولا يتحاشى من المعصية عند الكعبة وفي المساجد.

قوله: (فإن قلت: إن هؤلاء القبوريين يعتقدون أن الله تعالى هو الضار النافع...)، من أعظم شُبه القبوريين: يذهبون إلى القبور ليتبركوا بها ويستغيثوا بالأموات ويبنوا عليها مساجد؛ فتصبح مزارات ومشاهد تُذبح عندها القرابين، وتُدفع لها النذور والأموال، ويعكفون عندها أيامًا يطلبون الولد، ويطلبون

الشَّرْح

الشفاء من المرض والرزق إلى غير ذلك، وهذا شيء معلوم لا ينكره أحد، فإذا نُهوا عن ذلك قالوا: نحن نعتقد أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ، ونعتقد أن الخير بيد الله، وإنما نقصد من هؤلاء الأموات أنهم ينجزون لنا ما نريد من الله، فهم الوسائط والشفعاء عند الله، فقط مجرد شفاعة ووساطة، ونحن نذبح لهم وننذر لهم من أجل هذا، وليس من أجل أنهم ينفعون ويضرون؛ لأننا نعلم أن الله هو الضار النافع وأن الأمر بيد الله.

يقول المؤلف ويقول غيره من الأئمة: إن هذا من فعل المشركين الأولين، فقد حكى الله ذلك عنهم في كتابه، مثلًا في سورة (يونس): ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [١٨] وهم يعتقدون أنه لا يضرهم ولا ينفعهم ويعترفون بهذا، وإنما يقولون: هؤلاء شفعاء لنا عند الله فقط، قال سبحانه: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، فسمّى هذا شركًا، وهم يسمّونه شفاعة ووسيلة إلى الله، قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النحل] فنزّه نفسه عما يشركون.

قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾؛ يعني: هل هؤلاء الوسطاء ينبهون الله لطلبكم والله لا يعلمه ولا يسمع دعاءكم حتى يأتي هؤلاء ويتوسطون عنده ويشفعون عنده!، كما أن الملك والرئيس والمسؤول لا يدري عن حوائج الناس؛ حتى يأتي إليه الوسطاء والشفعاء ويبلغونه عن حوائج الناس وأحوال الرعية؛ لأنه بشر، أو ربما أنه يدري ولكنه لا يريد أن يقضي حوائج الناس، فهؤلاء يؤثرون عليه، فهل الله لا يَعلم حتى يُبلَّغ؟! وهل الله لا يجيب حتى يأتيه الشافع ويؤثِّر عليه؟! الملوك قد يؤثر عليهم الشفعاء، ولكن الله ﷻ لا يؤثر عليه الشفعاء، هو يريد ـ سبحانه ـ أن يرحم عباده، ويريد أن يقضي حوائجهم بدون أن يؤثر عليه أحد، فنزّه نفسه

نعم، إذا لم يحصل من المسلم إلا مجرد التوسل الذي قدمنا تحقيقه فهو كما ذكرناه سابقًا، ولكن من زعم أنه لم يقع منه إلا مجرد التوسل، وهو يعتقد من تعظيم ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده في أحد من المخلوقين، وزاد على مجرد الاعتقاد، فتقرب إلى الأموات بالذبائح والنذور، وناداهم مستغيثًا بهم عند الحاجة، فهذا كاذب في دعواه أنه متوسل فقط، فلو كان الأمر كما زعمه لم يقع منه شيء من ذلك.

الشَّرح

عن ذلك وسمّاه شركًا، وهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ يا سبحان الله، هل الله أمركم أنكم تتخذون شفعاء عنده؟، هل أمركم أن تقدموا إليه واسطة؟؛ أمرهم الشيطان بهذا، فلم يقتصروا على أنهم يوسطون هٰؤلاء، بل ذبحوا لهم ونذروا لهم، وصرفوا لهم العبادة بالذبح والنذر والاستغاثة والدعاء وغير ذلك، فهم يشركون بالله، ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، لقد اعترفوا أنهم يعبدونهم.

قوله: (إلا مجرد التوسل الذي قدمنا تحقيقه فهو كما ذكرناه سابقًا) التوسل إلى الله يكون بأسمائه وصفاته، أو يكون بالأعمال الصالحة الخالصة لوجه الله، كما في حديث الثلاثة الذين أواهم الغار، توسلوا بصالح أعمالهم فأنجاهم الله، وكذلك تتوسل بدعاء الصالحين الحاضرين وكما كان الصحابة يتوسلون بدعاء النبي ﷺ أن يغيثهم الله إذا أجدبوا، فلما مات النبي ﷺ صاروا يتوسلون بدعاء عمه العباس، أن يدعو لهم الله أن يغيثهم، فالتوسل المشروع يكون بدعاء الصالحين الحاضرين، أما التوسل بالأشخاص فهذا لا يجوز ولم يرد فيه دليل.

قوله: (وزاد على مجرد الاعتقاد فتقرب إلى الأموات بالذبائح والنذور) وهنا مسألة يحسن التنبيه لها، إذا كان يتوسل ويتوسط ويتشفع عند الله بالمخلوق، فهذا على قسمين:

والمتوسل به لا يحتاج إلى رشوة بنذر أو ذبح، ولا تعظيم ولا اعتقاد؛ لأن المدعو هو الله سبحانه، وهو أيضًا المجيب، ولا تأثير لمن وقع به التوسل بالعمل الصالح، فأي جدوى في رشوة من قد صار تحت أطباق الثرى بشيء من ذلك! ....

الشَّرْح

القسم الأول: أن يصرف له شيئًا من العبادة؛ كأن يذبح للمخلوق، أو ينذر له، ويستغيث به، ويقول: هذا واسطتي عند الله، فهذا شرك أكبر، كما ذكره الله في سورة (يونس)؛ لأنه صرف العبادة لهذه الواسطة الذي يقدمها إلى الله ﷻ بزعمه، ويريد إنجاز طلبه من الله.

القسم الثاني: أن لا يصرف له شيئًا من العبادة للواسطة، وإنما مجرد أنه يقول: هذا رجل صالح مقرَّب عند الله وهو وسيلتي إلى الله، فيتوسط لي عند الله، فهذا بدعة.

قوله: (والمتوسل به لا يحتاج إلى رشوة)؛ لأنهم يفعلون لهم من العبادة ما هو بمنزلة الرشوة التي تقدم إلى الوسطاء عند الملوك، ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ هذه العبادة لهم رشوة، فيرشونهم بالشرك بالله ﷻ.

قوله: (فأي جدوى في رشوة من قد صار تحت أطباق الثرى بشيء من ذلك!): فلو اقتصر على التوسل به بدون أنه يصرف له شيئا من العبادة للمتوسَّل به، لصار بدعة، لأن الله لم يشرع هذا، ولم يقل: ادعوني بواسطة الصالحين، ادعوني بواسطة النبي ﷺ، ادعوني بواسطة فلان؛ بل قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ مباشرة، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وفي الحديث الصحيح: **«يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ»**(١)، وهذا

---

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨).

وهل هذا إلا فعل من يعتقد التأثير اشتراكًا أو استقلالًا؟ ولا أعدل من شهادة أفعال جوارح الإنسان على بطلان ما ينطق به لسانه من الدعاوى الباطلة العاطلة، بل من زعم أنه لم يحصل منه إلا مجرد التوسل وهو يقول بلسانه: يا فلان، مناديًا لمن يعتقده من الأموات فهو كاذب على نفسه، ومن أنكر حصول النداء للأموات والاستغاثة بهم استقلالًا؛ فليخبرنا ما معنى ما نسمعه في الأقطار اليمنية من قولهم: يا ابن العُجيل، يا زيلعي، يا ابن علوان، يا فلان يا فلان.

وهل ينكر هذا منكر أو يشك فيه شاك؟ ....

الشَّرح

لا يحتاج إلى واسطة، فهو يسمعك ويراك، ويعلم ما في قلبك، ويعلم حاجتك، فبمجرد أنك ترفع يديك إليه وتدعوه؛ فهو قريب مجيب ﷻ.

قوله: (**وهل هذا إلا فعل من يعتقد التأثير اشتراكًا أو استقلالًا**)؛ أي: كلامهم ليس بصحيح.

قوله: (**ولا أعدل من شهادة أفعال جوارح الإنسان...**) فالذي يقول: إني لا أعتقد أنهم ينفعون أو يضرون تكذبه جوارحه إذا ذبح لهم أو نذر لهم، فهذا فعل الجوارح فيكذب قول اللسان إنه لا يعتقد فيهم، لولا أنه يعتقد فيهم النفع والضر ما ذبح لهم، ولا نذر لهم ولا استغاث بهم؛ ولذلك في يوم القيامة يستنطق الله الجوارح والجلود على أصحابها ويختم على أفواههم.

قوله: (**كاذب على نفسه**) فلولا أنه يعتقد في هذا الميت أنه ينفع ويضر ما ناداه ولا ذهب إليه.

قوله: (**ومن أنكر حصول النداء للأموات...**)؛ أي: عليه أن يبين لنا ما مقصود هؤلاء الذين ينادون هؤلاء الأموات، ما مقصودهم؟؛ إلا أنهم يعتقدون فيهم أنهم ينفعون ويضرون، وإلا لما أتعبوا أنفسهم وذهبوا إليهم.

وما عدا ديارِ اليمن فالأمر فيها أطم وأعم، ففي كل قرية ميت يعتقده أهلها وينادونه، وفي كل مدينة جماعة منهم، حتى إنهم في حرم الله ينادون: يا ابن عباس!، ....

الشَّرْح

قوله: (وما عدا ديار اليمن فالأمر فيها أطم وأعم) أي ما عدا ما عند الشيخ في اليمن، مما يعرفه من قومه، وما عند غيرهم أشد وأطم، وهذا صحيح، فما في الحجاز في وقته، وما في الشام ومصر شيء معلوم ولا ينكره إلا مكابر، ومن يريد أن يطلع فليذهب ويرى عند البدوي، أو عند الحسين، أو يذهب للعراق ويرى المشاهد، ومراقد الأئمة ماذا يصنع عندها، ويذهب إلى كربلاء، وكذا في مقام عبد القادر الجيلاني، ولا حول ولا قوة إلا الله.

قوله: (ففي كل قرية ميت يعتقده أهلها وينادونه) بل لا يستريحون ولا يستقرون إلا إذا صار في بلدهم ضريح، فالبلد الذي ليس فيه ضريح أكثرهم لا يطمئن فيه، إلا من منَّ الله عليه بمعرفة التوحيد، وإلا فالأكثر لا يستقرون إلا بوجود الضريح في بلدهم، فمثلًا: أهل الطائف، لديهم ضريح ابن عباس، فيقولون: يكفهم ابن عباس، وكلُّ قُطْرٍ فيه أضرحة أو ضريح، إلى أن منّ الله على هذه الجزيرة بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من المصلحين؛ أمثال المؤلف والصنعاني وابن عبد الوهاب رحمهم الله وقد قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وقام بالدعوة وناصره آل سعود، فجاهدوا معه، فطهّر الله هذه البلاد، أرض الحجاز، وأرض نجد وما حولها والحمد لله، فما طهرت هذه البلاد إلا بدعوة التوحيد وبالجهاد في سبيل الله من علمائها وولاة أمورها جزاهم الله خيرًا.

قوله: (حتى إنهم في حرم الله ينادون: يا ابن عباس)، ففي مكة كان في المقابر في المعلاة وغيرها قباب على القبور إلى أن فتحها الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأزال هذه القباب من المعلاة ومن غيرها.

يا محجوب!، فما ظنك بغير ذلك! فلقد تلطف إبليس وجنوده ـ أخزاهم الله ـ لغالب أهل الملة الإسلامية بلطفة تزلزل الأقدام عن الإسلام؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أين من يعقل معنى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]،

الشَّرْح

قوله: (ينادون: يا ابن عباس) في الطائف، (يا محجوب)، في الطائف مسجد المحجوب المعروف، يقولون إنه من الأولياء، وإذا أردت أن تطلع على ما كان في تلك البلاد من المصائب؛ فاقرأ في أول تاريخ ابن غنام، ذكر ما في هذه البلاد وما جاورها من الأضرحة.

قوله: (فلقد تلطف إبليس وجنوده ـ أخزاهم الله تعالى ـ لغالب أهل الملة الإسلامية بلطفة تزلزل الأقدام عن الإسلام، فإنا لله وإنا إليه راجعون)؛ يعني: أن إبليس وجنوده من علماء الضلال يروجون هذه الشبهات، وهذه الشائعات التي أهلكوا بها الناس الجهال، ولا يخفاكم حيل إبليس مع قوم نوح حين أتاهم وأمرهم بتصوير الصالحين بقصد تذكر احوالهم، ولما نصبوا الصور وطال الزمان ومات العلماء وجاء أناس يجهلون التوحيد؛ فعبدوها من دون الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ﴾ وكل المخلوقات عباد، ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ تحداهم الله فقال: ﴿...فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ [الأعراف]، وقال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ كلكم جميعًا، ﴿...فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا

وقد أخبرنا الله ـ سبحانه ـ أن الدعاء عبادة في محكم كتابه بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]. وأخرج أبو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح من حديث النعمان بن بشير قال: قال

الشَّرْح

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف]، فهي أصنام على صور رجال لها عيون ولها أذان ولها ملامح الإنسان، ولكنها لا تبصر ولا تتكلم؛ بل هي صور جامدة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن] فالدعاء لله ﷻ، فلا يُدعى ميت ولا قبر ولا حجر ولا شجر.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ﴾ [فاطر] يتبرؤون منكم، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] وهو الله ﷻ، وهذا مآل المشركين يوم القيامة، ففي الدنيا يعيشون على ضلال وعلى جهل وعلى شر، وفي الآخرة يلقون جزائهم عند الله.

قوله: (وقد أخبرنا الله ـ سبحانه ـ أن الدعاء عبادة في محكم كتابه) فالدعاء هو العبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: عن دعائي، فسمّى الدعاء عبادة، قال ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**» فأعظم أنواع العبادة هو الدعاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فسمّى الدعاء عبادة، وفي الآية الأخرى سماه دينًا، فقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]؛ أي: مخلصين له الدعاء، فسمى الدعاء دينًا.

رسول الله ﷺ: «**إن الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**»[(١)]، وفي رواية: «**مُخُّ الْعِبَادَةِ**»[(٢)]، ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية المذكورة، وأخرجه أيضًا النسائي وابن ماجه والحاكم، وأحمد وابن أبي شيبة باللفظ المذكور.

وكذلك النحر للأموات عبادة لهم، والنذر لهم بجزء من المال عبادة لهم، والتعظيم عبادة لهم، كما أن النحر للنسك وإخراج صدقة المال والخضوع، والاستكانة عبادة لله ﷻ بلا خلاف.

الشَّرْح

قوله: (ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية المذكورة)، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] فسمّاه عبادة.

قوله: (وكذلك النحر للأموات عبادة لهم)؛ أي عبادة للأموات كما أن دعاء الله عبادة له، وكذا من أنواع عبادتهم: الذبح لهم والنحر لهم، كما هو مشاهد عند عباد القبور؛ حيث يأتون بالأنعام ـ وقد تكون كثيرة ـ وينحرونها عند الضريح، وعند المشهد.

قوله: (والنذر لهم بجزء من المال عبادة لهم) فهم ينذرون في أموالهم وفي عقاراتهم نذورًا للأموات، والنذر عبادة قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

قوله: (والتعظيم عبادة لهم)؛ أي للأموات؛ فالتعظيم الزائد والغلو فيهم عبادة؛ لأن التعظيم حق لله ﷻ.

قوله: (كما أن النحر للنسك... إلخ)؛ أي كما أن النحر والذبح عبادة لله، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾؛ أي: ذبيحتي، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٢٩٦٩). (٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧١).

ومن زعم أن ثَمَّ فرقًا بين الأمرين فليهده إلينا، ومن قال: إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم، والنذر عليهم عبادتهم، فقل له: فلأي مقتضى صنعت هذا الصنيع؟ فإن دعاءك للميت عند نزول أمر بك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبّر عنه لسانك، ....

الشَّرْح

رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ... ﴿١٦٤﴾ [الأنعام]، فالذبح عبادة، وفي السنة: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**»[1]، فالذبح عبادة؛ لأنه تقرُّبٌ إلى الميت بالمال الذي هو أعز شيء عنده، وإذا ذبحت لله تتصدق به على المحتاجين الذين يأكلونه، قوله: (النحر للنسك) أي: بنية العبادة شرعه الله جل وعلا، قوله: (والخضوع)، الخضوع حق لله، الركوع حق لله، فأنت تركع لله ولا تركع لغيره، ولكن هؤلاء يركعون ويسجدون عند الأضرحة؛ إذا أقبلوا عليها ركعوا، أو إذا وقفوا عندها ركعوا، ويسجدون على أعتابها، فيتقربون إليها بالركوع والسجود، مع أن الركوع والسجود لا يجوز إلا لله سبحانه.

قوله: (**ومن قال: إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم، والنذر عليهم عبادتهم**)، فبعضهم يكابر ويقول: أنا لم أقصد بالذبح أو النذر لهم أني أعبدهم، ما قصدت إلا أنهم يقربونني إلى الله زلفى، ويشفعون لي إلى الله، ما قصدت عبادتهم، فنقول: إذًا لماذا ذبحت عندهم؟ ألم تأت بذبائحك وبهائمك وتذبحها عندهم؟ ما فعلت هذا إلا لأنك تريد التقرب إليهم بها، وإلا لماذا لم تذبحها بعيدًا، وتوزع لحمها إذا كنت تريد الصدقة؟.

قوله: (**فإن دعاءك للميت عند نزول أمر بك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبَّر عنه لسانك**) فإنهم إذا حزبهم أمر لا يدعون الله وإنما يدعون الأولياء والصالحين ويهتفون بأسمائهم، ويطلبون منهم الغوث والمدد، يقولون: المدد يا حسين، المدد يا عبد القادر، المدد يا فلان، وينسون الله ﷻ، بينما المشركون في الجاهلية إذا مسّهم الضر أخلصوا الدعاء لله، والمشركون

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

فإن كنت تهذي بذكر الأموات عند عروض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم فأنت مصاب بعقلك، وهكذا إن كنت تنحر لله وتنذر لله فلأي معنى جعلت ذلك للميت، وحملته إلى قبره؟؛ فإن الفقراء على ظهر البسيطة في كل بقعة من بقاع الأرض، وفعلك وأنت عاقل لا يكون إلا لمقصد قد قصدته أو أمر قد أردته، وإلا فأنت مجنون قد رفع عنك القلم،

الشَّرْح

في هذه الأمة إذا مسّهم الضر زاد شركهم، وزاد نداءهم للأموات.

قوله: (فإن كنت تهذي بذكر الأموات عند عروض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم فأنت مصاب بعقلك)؛ أي: إذا كنت تهذي بشيء لم تقصده فأنت مجنون؛ لأن المجنون يهذي بشيء لم يقصده بقلبه فأنت من المجانين، وتقول: إنني لم أقصد، وأنت تهذي بلسانك وتصرخ وتنادي!، إذًا أنت مجنون، تحتاج إلى من يُحكم وثاقك.

قوله: (وهكذا إن كنت تنحر لله وتنذر لله فلأي معنى جعلت ذلك للميت، وحملته إلى قبره؟) فمن يقول: أنا لا أذبح إلا لله، ولكن ذهبت لأذبح عند قبر الميت؛ نقول له: ما الذي يأتي بك إلى قبر الميت، لم لا تذبح لله في أي مكان من أرض الله بعيدًا عن القبور، فما ذهبت إليها إلا لأنك تقصدها.

قوله: (فإن الفقراء على ظهر البسيطة في كل بقعة من بقاع الأرض)؛ أي: إذا كنت تقصد التقرب إلى الله والتصدق على الفقراء، فهم موجودون في كل مكان وليس فقط عند القبر، فالفقر قد يكون في جيرانك الذين حولك أو الذين في بلدك، اذبح وتصدق عليهم باللحم، انذر لله وأعطهم النذر، فلا تذهب للقبر.

قوله: (وفعلك وأنت عاقل لا يكون إلا لمقصد قد قصدته)، العاقل لا بد أنه يقصد ما فعله وينوي ما فعله، أما المجنون فإنه يفعل بدون قصد.

قوله: (وإلا فأنت مجنون قد رفع عنك القلم)، ولا أحد يرضى أن يُقال له: أنت مجنون، مع أنه يقول: أنا ما قصدت، فهو يفعل ولا يقصد؛ ففعله فعل المجنون وهو ينكر وصفه بالجنون.

ولا نوافقك على دعوى الجنون إلا بعد صدور أفعالك وأقوالك في غير هذا على نمط أفعال المجانين، فإن كنت تصدرها مصدر أفعال العقلاء فأنت تكذب على نفسك في دعواك الجنون في هذا الفعل بخصوصه، فرارًا عن أن يلزمك ما لزم عبّاد الأوثان الذين حكى الله عنهم في كتابه العزيز ما حكاه بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وبقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾ [النحل].

الشرح

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ قد كانوا في الجاهلية يجعلون للأصنام نصيبًا من زروعهم أو من بهائمهم، ويجعلون لله نصيبًا منها أيضًا، فإذا جاء السيل أو حادثة وأتلفت ما لله، قالوا: الله غني عن هذا، وإذا جاءت الحادثة وأتلفت ما للضريح أو للقبر، أخذوا الذي جعلوه لله وجعلوه للضريح، ويقولون: الله غني عنه وهذا محتاج له، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝١٣٦﴾ [الأنعام]؛ أي: إذا أصيب نصيب الله قالوا: الله غني ولا يضره هذا؛ أما إذا أصيب نصيب الضريح قالوا: هذا مسكين وهذا يحتاج؛ فأخذوا نصيب الله وجعلوه في محل نصيب الضريح.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾ هذه مثل الآية السابقة، ﴿نَصِيبًا﴾ من الحرث والبهائم، ﴿تَٱللَّهِ﴾ أقسم الله سبحانه بنفسه، ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ سماه افتراءً، وتوعدهم بأنه سيسألهم يوم القيامة.

الشَّرح

بدأ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يرد على شبهات القبوريين التي يتعلقون بها، وهذه الشبهات قديمة وحديثة، يحتج بها المشركون، وقد ذكرها شيخ الإسلام محمد بن الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب مستقل سمّاه (كشف الشبهات)، والإمام الشوكاني ذكر طرفًا منها، وأشدّها قولهم: إن هناك فرقًا بين المشركين في الجاهلية الذين يعبدون الأولياء والصالحين، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، ويقولون: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وبين المشركين القبوريين في هذه الأمة، والفرق هو أن المشركين الأولين لا يقولون: لا إلٰه إلا الله، أما مشركوا القبوريين فهم يقولون: لا إلٰه إلا الله، ومن قال: لا إلٰه إلا الله، صار مسلمًا، فكيف تشبهون المسلمين الذين يقولون: لا إلٰه إلا الله، بالمشركين الذين لا يقولونها؟

أجاب عن هذا رَحِمَهُ اللَّهُ بجواب شافٍ ملخصه: ليس القصد من (لا إلٰه إلا الله) التلفظ بها فقط، بل لا بد من معرفة معناها والعمل بها، وهو ترك ما يُعبد من دون الله، لأن الرسول ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: لَا إلٰه إلا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ على اللهِ**»[1]، بهذا القيد «**وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللهِ**»، وهؤلاء الذين تدافعون عنهم لم يكفروا بما يعبد من دون الله، بل يقولونها ويعبدون غير الله، من الأولياء والصالحين؛ يذبحون لهم وينذرون لهم ويطوفون بقبورهم، ويعكفون عندها... إلى آخره، إذًا لا فرق بين مشركي القبوريين وبين مشركي الجاهلية وإن كانوا يقولون: لا إلٰه إلا الله؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣).

فإن قلت: إن المشركين كانوا لا يقرون بكلمة التوحيد،

الشَّرْح

لأن كلمة (لا إلٰه إلا الله) ليس القصد التلفظ بها فقط؛ بل لا بد من الالتزام بما تدل عليه من عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ومن قالها وهو يدعو غير الله ويستغيث بغير الله، ويذبح لغير الله فهو متناقض، وهو أسوأ من المشركين الأولين؛ لأن المشركين الأولين أبوا أن يتناقضوا؛ لأنهم عرب فصحاء، ففهموا أنهم إذا قالوها يلزمهم ترك ما يعبدونه من دون الله، وهؤلاء البُلداء لم يفهموا معنى (لا إلٰه إلا الله) كما فهمه المشركون، فهم قالوها وتناقضوا مع مدلولها، حيث أشركوا بالله ﷻ، ولم يكفروا بما يعبد من دون الله ﷻ، لأنهم يظنون أن (لا إلٰه إلا الله) مجرد لفظ فقط، وهذا غلط واضح.

قوله: (إن المشركين)؛ أي: المشركون في الجاهلية **(كانوا لا يقرون بكلمة التوحيد)**، فقد أبوا أن يقولوها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات]، ولما قال لهم الرسول ﷺ: «**قولوا: لا إلٰه إلا الله**»، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥، ٦]؛ يعني: لا تقولوا: لا إلٰه إلا الله؛ لأنكم إذا قلتموها كفرتم بآلهتكم، ولكن اصبروا عليها ولا تتركوها، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣]؛ لأن نوحًا عليه السلام دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وكذلك هؤلاء المشركون، قالوا: لا تتركوا آلهتكم؛ لأنكم إذا قلتم (لا إلٰه إلا الله) لزمكم أن تتركوا آلهتكم، وأن تفردوا الله بالعبادة.

وهؤلاء المعتقدون في الأموات يقرون بها.

قلت: هؤلاء إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها بأفعالهم، فإن من استغاث بالأموات، أو طلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ ....

الشَّرْح

قوله: (وهؤلاء المعتقدون في الأموات يقرون بها) يقرون بلا إلٰه إلا الله لفظًا لا معنى، فهم ينطقون بها، ولكن لا يلتزمون بمعناها ومدلولها، وهي لا تفيدهم شيئًا حتى يحققوا معناها ويلتزموا به، وهذه مسألة عظيمة يجب فهمها.

قوله: (قلت: هؤلاء إنما قالوها بألسنتهم)؛ أي: هؤلاء القبوريون إنما قالوها بألسنتهم فقط، ولم يقولوها بقلوبهم وعملهم، فلم يتركوا ما نفته هذه الكلمة، لأن هذه الكلمة تنفي وتثبت، تنفي العبادة عن غير الله، وتثبت العبادة لله وحده، فهم أخذوا مجرد اللفظ دون التزام بمعناه.

قوله: (قالوها بألسنتهم، وخالفوها بأفعالهم) هذا واضح، فهم يقولون: لا إلٰه إلا الله، ثم يقولون: يا علي، يا حسين، يا عبد القادر، يا بدوي... وهكذا.

قوله: (أو طلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ) هذا القيد ليس بلازم؛ لأن الأموات لا يقدرون على شيء، فلا يُقال: إنه يطلب منهم ما يقدرون عليه؛ لأنهم لا يقدرون على شيء البتة، قد انتهت أعمالهم، قال النبي ﷺ: **«إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ»**[1]، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٢).

أو عظمهم، أو نذر عليهم بجزء من ماله، أو نحر لهم فقد نزَّلهم منزلة الآلهة التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال، فهو لم يعتقد معنى (لا إلٰه إلا الله)، ولا عمل بها، بل خالفها اعتقادًا وعملًا، فهو في قوله: (لا إلٰه إلا الله) كاذب على نفسه، فإنه قد جعل إلهًا غير الله يعتقد أنه يضر وينفع، فعبده بدعائه عند الشدائد، والاستغاثة به عند الحاجة، وبخضوعه له وتعظيمه إياه، ونحر له النحائر، وقرب إليه نفائس الأموال.

الشَّرْح

﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، فلا يُقال: إن الأموات يُدعون فيما يقدرون عليه مثل الأحياء، بل هذا في الأحياء خاصة فيُطلب منهم ما يقدرون عليه، أما الأموات فلا يُطلب منهم شيءٌ أبدًا؛ لأنهم لا يقدرون على شيء.

قوله: (فقد نزّلهم منزلة الآلهة) الآلهة التي يُذبح لها ويُنذر لها وتُدعى ويُستغاث بها، فهم نزلوا القبور منزلة الآلهة **(التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال)** فهم التقوا مع المشركين في الفعل تمامًا وإن خالفوهم في مجرد النطق (لا إلٰه إلا الله)، وهذا نطق فارغ من المعنى لا ينفعهم شيئًا.

قوله: (بل خالفها اعتقادًا وعملًا)؛ أي خالف القبوري لا إلٰه إلا الله اعتقادًا بقلبه، وعملًا بأفعاله، فهي لا تنفعه ولا تدخله في الإسلام.

قوله: (فهو في قوله: «لا إله إلا الله» كاذب على نفسه)؛ لأنه متناقض، كيف يقول: (لا إلٰه إلا الله) ثم يدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، ويذبح لغير الله.

فلا بد أن يقول: **(لا إلٰه إلا الله)** عارفًا بمعناها، عاملًا بمقتضاها، ظاهرًا وباطنًا، فـ**(لا إلٰه إلا الله)** لها قيود وليست مجرد لفظ يقال باللسان، بل لها قيود كما في الحديث: **«مَنْ قَالَ: لَا إلٰه إلا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللهِ»**[1]، فلابد من هذا القيد، قال ﷺ لما سئل: أي الناس أسعد

(١) أخرجه مسلم (٢٣).

وليس مجرد قوله (لا إلٰه إلا الله) من دون عمل بمعناها مثبتًا للإسلام، فإنه لو قالها أحد من أهل الجاهلية، وعكف على صنمه يعبده لم يكن ذلك إسلامًا.

فإن قلت: قد أخرج أحمد بن حنبل، والشافعي في «مسنديهما» من حديث عَبْد اللهِ بْنَ عَدِيٍّ بن الخيار أن رجلًا من الأنصار حَدَّثَهُ أَنَّه أتى النَّبِيَّ ﷺ وهو في مجلسه، فَسَارَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَجَهَرَ رسول الله ﷺ فقَالَ: «**أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إلٰه إلا اللهُ؟**»، قَالَ الأَنْصَارِيَّ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ:

الشَّرْح

بشفاعتك قال: «**مَنْ قَالَ لَا إلٰه إلا الله خَالِصًا مِن قَلْبِهِ أو نَفْسِهِ**»[1]، بهذا القيد يكون قلبه معتقدًا لها، فمن قال: (**(لا إلٰه إلَّا الله) من دون عمل بمعناها مثبتًا للإسلام**) فلا يدخل في الإسلام.

قوله: (فإنه لو قالها أحد من أهل الجاهلية، وعكف على صنمه يعبده لم يكن ذلك إسلامًا)، فلو قالها هؤلاء الذين توافقوننا على أنهم مشركون وعكف على صنمه يذبح له، وينذر له، ويستغيث به، لم يكن مسلمًا عندكم؛ لأنه يعبد الأصنام، وأنتم تعبدون القبور، فلا فرق بينكم وبين من يعبد الأصنام، لكن أهل الجاهلية يأنفون من التناقض فاجتنبوا قول: (**لا إلٰه إلا الله**)؛ لأنهم لو قالوها وبقوا على عقائدهم وعبادة غير الله لتناقضوا، وهم لا يريدون التناقض.

قوله: (فإن قلت: قد أخرج أحمد بن حنبل، والشافعي في مسنديهما من حديث عَبْد اللهِ بْنَ عَدِيٍّ بن الخيار...)، وهذه شبهة أخرى، ففي حديث هذا

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

«**أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَن مُحمدًا رَسُولُ اللهِ؟**»، قَالَ: بَلَى؛ وَلكن لا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يُصَلِّي؟**»، قَالَ: بَلَى، وَلا صَلاةَ لَهُ، قَالَ: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ نهاني اللهُ عَنْ قَتلهم**»(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد في قصة الرجل الذي قال: يا رَسُولَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وفيه: قال خَالِدُ بن الْوَلِيدِ رضي الله عنه: يا رَسُولَ اللهِ

الشَّرْح

الأنصاري يقول: (**وَلا شَهَادَةَ لَهُ**)، (**وَلا صَلاةَ لَهُ**)، مع أنه يقول: (لا إلٰه إلا الله)؛ لأنه يقولها بلسانه فقط، ولا يتجنب ما يناقضها وما يبطلها، فهي لا تنفعه، فقال ﷺ: (**أُولَئِكَ الَّذِينَ نهاني اللهُ عَنْ قَتلهم**)؛ لأنهم يظهرون الإسلام، ولم يظهر منهم شيء يناقض هذه الكلمة، أما لو ظهر منهم شيء يناقضها لا تنفعهم، ولا يدخلون في الإسلام، والقبوريون ظهر منهم علانية ما يبطل هذه الكلمة، فمن قال: (لا إلٰه إلا الله) يُكف عنه، ويحكم بإسلامه، فإن ظهر منه ما يناقضها حُكم عليه بالردة عن الإسلام.

قوله: (وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد في قصة الرجل الذي قال: يا رَسُولَ اللهِ اتَّقِ اللهَ...)، هذا رجل من الخوارج الذين يغمطون الرسول ﷺ ويقول هذا الرجل للرسول ﷺ: «اتق الله».. إلى غير ذلك، ومع هذا لم يقتلهم الرسول ﷺ، لماذا؟ لأنهم يقولون: لا إلٰه إلا الله، فيُقبل إسلامهم ظاهرًا، حتى يظهر منهم ما يناقض (لا إلٰه إلا الله) فيُحكم عليهم بالردة، ولم يقتلوا درءًا للمفسدة؛ فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذا حكم المنافقين، فالرسول ﷺ لم يتعرض لهم؛ لأنه لو قتلهم لقال الناس: إن محمدًا يقتل أصحابه؛ لأن ظاهرهم أنهم صحابة، ثم يصير قتلهم صدًّا عن

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣٦٧٠)، الموطأ (٥٩٢)، سنن البيهقي (١٦٦٠٢)، مسند الإمام الشافعي (١٤٩٦)، وفي سنن أبي داود: «**إِنِّي نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ**» (٤٩٣٠).
(٢) البخاري (٤٩٠٥).

ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فقال: «**لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي**»، فقال خَالِدٌ: وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما ليس في قَلْبِهِ، فقال رسول اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ**»(١).

ومنه قوله ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنهما لما قتل رجلًا من الكفار، بعد أن قال: (لا إله إلا الله)، فقال ﷺ: «**فَمَا تصنع بلا إله إلا الله؟**»، فقال: يا رسول الله، إنما قالها تقيّة، فقال: «**هل شققت عن قلبه؟**». هذا معنى الحديث، وهو في الصحيح(٢).

الشَّرح

الإسلام، لقول الرسول ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ الناسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(٢)، فدرءًا لهذه المقولة تركهم رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: (**إني لم أُؤمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ النَّاسِ**) لكن من ظهر منه أنه يدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، ويذبح لغير الله، كما عند القبوريين، فمن أظهر الخير قبلناه، ومن أظهر الشر أخذناه به، فليس لنا إلا الظاهر، أما القلوب فلا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

قوله: (ومنه قوله ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنهما لما قتل رجلًا من الكفار...)، هذا الحديث في الصحيح، أن جماعة من الصحابة غزوا قومًا من الحُرَقة، بأمر الرسول ﷺ، فصبّحوهم ونصرهم الله عليهم، وفر رجل منهم، فلحقه أسامة بن زيد وأحد الأنصار، فلما أدركوه قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، وقتله أسامة بن زيد بعدما قال: لا إله إلا الله، فلما قدموا على الرسول ﷺ، أخبروه، فعتب على أسامة وغلّظ عليه، وقال له: «**يا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما قال لَا إله إلا الله؟**»، قال: «كان مُتَعَوِّذًا» أي: قالها يتقي بها السيف، قال ﷺ: «**هلا شققت عن قلبه، فماذا تصنع بلا إله إلا الله، إذا**

(١) البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٢٦٩ ـ ٦٨٧٢)، وصحيح مسلم (٩٦).

قلت: لا شك أن من قال (لا إلٰه إلا الله)، ولم يتبين من أفعاله ما يخالف معنى التوحيد؛ فهو مسلم محقون الدم والمال إذ جاء بأركان الإسلام المذكورة في حديث: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقولوا لَا إِلٰه إلا الله، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَيَحجُّوا الْبَيْتَ، وَيَصُومُوا رَمَضَانَ**»(١).

الشَّرْح

جاءت يوم القيامة؟» فما زال يكررها، حتى قال أسامة: «تَمَنَّيْتُ أَنِّي لم أَكُنْ أَسْلَمْتُ قبل ذلك الْيَوْمِ»(٢)، من ندمه على ما فعل.

وهذا يدل على القاعدة: أن من قال (لا إلٰه إلا الله) فإنه يُكف عنه ويحكم بإسلامه، فإن تبين منه ما يناقض (لا إلٰه إلا الله) حُكم بكفره، والحاصل من عُباد القبور، أنهم يقولونها ولكن يظهر من أفعالهم ما يناقض لا إلٰه إلا الله، من الذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستغاثة بغير الله وغير ذلك من أنواع العبادات، فهؤلاء ليسوا مثل هذا الرجل الذي قتله أسامة، فالرجل الذي قتله أسامة لم يظهر منه شيء يخالفها، فقد استعجل أسامة رضي الله عنه وقتله، وهذه قاعدة عظيمة، أن من قال: (لا إلٰه إلا الله) يكف عنه ويحكم له بالإسلام، فإن تبين منه ما يناقضها حُكم بردته، وهذه قاعدة عظيمة في الإسلام.

قوله: (**قلت**) هذا الجواب عن هذه الوقائع والأحاديث.

قوله ﷺ: (**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ**...) الحديث، فلم يكتف ﷺ بقولهم (لا إلٰه إلا الله) بل قال: (**وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَيَحجُّوا الْبَيْتَ، وَيَصُومُوا رَمَضَانَ**)؛ أي: يأتون بأركان الإسلام، أما لو أنهم قالوا: (لا إلٰه إلا الله) وأبوا أن يصلوا، أو أن يدفعوا الزكاة أو أبوا أن يصوموا رمضان أو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥ ـ ٣٩٢ ـ ١٣٩٩ ـ ٢٩٤٦).

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد (١٩٩٣٧ ـ ٢١٨٠٢)، وسنن أبي داود (٢٦٤٥).

وهكذا من قال: (لا إلٰه إلا الله) متشهدًا بها شهادة الإسلام، ولم يكن قد مضى عليه من الوقت ما يجب فيه شيء من أركان الإسلام، فالواجب حمله على الإسلام، عملًا بما أقر به لسانه، وأخبر به من أراد قتاله؛ ولهذا قال ﷺ لأسامة بن زيد ما قال.

وأما من تكلم بكلمة التوحيد، وفعل أفعالًا تخالف التوحيد؛ كاعتقاد هؤلاء المعتقدين في الأموات، فلا ريب أنه قد تبين من حالهم خلاف ما حكته ألسنتهم من إقرارهم بالتوحيد.

الشَّرْح

أبوا أن يحجوا حجة الإسلام، فإنه لا يحكم ببقائهم على الإسلام، بل يُحكم بأنهم مرتدون.

وقوله: (وهكذا من قال: لا إلٰه إلا الله...) إذا قال: لا إلٰه إلا الله، فإنه ينتظر فيه، فإن استقام عليها وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصلى وصام، وحج بيت الله مع الاستطاعة فهو مسلم، وإن أبى أو جحد أو ترك ركنًا من أركان الإسلام متعمدًا؛ فإنه لم يستقم على (لا إلٰه إلا الله)، فقول: (لا إلٰه إلا الله) مقيد بقيود منها ما في هذا الحديث: أنه لا بد أن يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويأتي بأركان الإسلام، فهذا قيد في حكم من قال: (لا إلٰه إلا الله) أنه إذا مضى عليه وقت يتمكن فيه من الإتيان بأركان الإسلام.

وكذلك من قال: (لا إلٰه إلا الله) ثم مات في الحال أو قُتل، ولم يتمكن من العمل فإنه يحكم بإسلامه ويعامل معاملة المسلمين: فيُغسّل ويُكفن، ويُصلى عليه، ويُدفن في مقابر المسلمين.

قوله: (فلا ريب أنه قد تبين من حالهم خلاف ما حكته ألسنتهم من إقرارهم بالتوحيد)، فمن قال: (لا إلٰه إلا الله) وخالفها بأفعاله بالشرك بالله، والذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستغاثة بالأموات، والدعاء للأموات؛ فهذا تناقض في قوله: (لا إلٰه إلا الله)، فـ(لا إلٰه إلا الله) ليست مجرد لفظ يُقال بدون التزام وعمل، فمن **(فعل أفعالًا تخالف التوحيد)** مثل

ولو كان مجرد التكلم بكلمة التوحيد موجبًا للدخول في الإسلام، والخروج من الكفر، سواء فعل المتكلم بها ما يطابق التوحيد أو يخالفه لكانت نافعة لليهود، مع أنهم يقولون: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وللنصارى مع أنهم يقولون: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وللمنافقين مع أنهم يكذبون بالدين، و﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

الشَّرْح

الشرك بالله، أو ترك شيء من أركان الإسلام متعمدًا؛ كمن يقول: (لا إلٰه إلا الله) لكنه لا يصلي أو يقول: (لا إلٰه إلا الله) ولكنه يمنع الزكاة؛ فهذا ليس بمسلم؛ لأنه (**تبين من حالهم خلاف ما حكته ألسنتهم من إقرارهم بالتوحيد**).

قوله: (ولو كان مجرد التكلم بكلمة التوحيد موجبًا للدخول في الإسلام)؛ أي: لو كان مجرد النطق بـ(لا إلٰه إلا الله) يكفي، ولو فعل ما فعل من المخالفات والمتناقضات لها لنفعت اليهود والنصارى؛ لأنهم يقولون: (لا إلٰه إلا الله)، لكن مع ذلك يقولون: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، فما ينفعهم قول (لا إلٰه إلا الله) مع هذه المقالات والاعتقادات، وعزير قيل أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقيل: إنه رجل صالح من بني إسرائيل.

وكذلك: (**وللمنافقين مع أنهم يكذبون بالدين**)، أي: لكان المنافقون مؤمنين حقًّا ويدخلون الجنة مع أن الله قال فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وهم يقولون: (لا إلٰه إلا الله)، بل يصلون مع المسلمين ويزكون، ويجاهدون مع المسلمين ظاهرًا، وقلوبهم مُنكرة والعياذ

وجميع هذه الطوائف الثلاث يتكلمون بكلمة التوحيد؛ بل لم تنفع الخوارج فإنهم من أكمل الناس توحيدًا، وأكثرهم عبادة، وهم كلاب النار، ....

الشَّرْح

بالله، و﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، فليسوا مؤمنين، بل هم شر من الكفار، وتحت الكفار في جهنم.

قوله: (**وجميع هذه الطوائف الثلاث**) الذين هم: اليهود، والنصارى، والمنافقون، (**يتكلمون بكلمة التوحيد**)، ولكنهم يخالفونها.

وكذلك: (**بل لم تنفع الخوارج**)، وهم قوم خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغلوا في الدين، وكفّروه وكفّروا الصحابة، واستحلوا دماء المسلمين، فقاتلهم عليٌّ رضي الله عنه؛ عملًا بأمر الرسول ﷺ فيهم، وكسر شوكتهم، وأبطل كيدهم، وهكذا كلما ظهر لهم قرن قُطع إلى أن تقوم الساعة، لأنهم يُكفرون المسلمين، ويقاتلون المسلمين ولا يقاتلون الكفار، كما في الحديث الصحيح: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ**»(١)، فالخوارج لا يقاتلون الكفار، وإنما يقاتلون المؤمنين، كما أخبر عنهم الرسول ﷺ.

وقوله: (**وهم كلاب النار**)، جاء في الحديث: «**الْخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ**»(٢)، مع أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، لكنهم يتشددون في العبادة، يقول الرسول ﷺ فيهم: «**تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مع صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مع صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، ويقرؤون الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»(٣)، مع أنهم يقولون: لا إله إلا الله، فما نفعتهم (لا إله إلا الله) لما خالفوها ولم يلتزموا بها.

قوله: (**فإنهم من أكمل الناس توحيدًا**) فالخوارج ليس عندهم شرك، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٥٨).

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بقتلهم مع أنهم لم يشركوا بالله، ولا خالفوا معنى لا إلٰه إلا الله، بل وحّدوا توحيده، وكذلك المانعون للزكاة

الشَّرْح

يعبدون القبور، ولا يدعون إلا الله، هذا معروف عنهم، ويجتهدون في الصلاة، والصيام، والعبادة، ولكن على غير هدى، فما نفعهم ذلك مع الغلو، فقد أخبر عنهم ﷺ بأنهم كلاب النار.

قوله: (وقد أمرنا رسول الله ﷺ بقتلهم)، حيث قال ﷺ: «**فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فإن في قَتْلِهِمْ أجرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يوم الْقِيَامَةِ**»(١)، وقال ﷺ: «**لَئِنْ أنا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»(٢)، مع أنهم يقولون: (لا إلٰه إلا الله).

قوله: (وكذلك المانعون للزكاة)، هذا مثال آخر، ففي عهد أبي بكر رضي الله عنه، لما مات رسول الله ﷺ ارتدت فئام من العرب، ومنهم مانعوا الزكاة، قالوا: إن الله قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، قالوا: هذا خطاب للرسول ﷺ وقد مات، فلا ندفع الزكاة لغير الرسول؛ فعزم أبو بكر الصديق رضي الله عنه على قتالهم، فجادله عمر وغيره من الصحابة وقالوا: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلٰه إلا الله فَمَنْ قال لَا إلٰه إلا الله عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إلا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ على الله**»، فقال الصديق رضي الله عنه: «والله لَأُقَاتِلَنَّ من فَرَّقَ بين الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فإن الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ»، وهي ركن من أركان الإسلام، ثم قال: «والله لو مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلى رسول اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ»(٣)، فما كان من عمر والصحابة إلا أن اقتنعوا، وقاتلوا مع خليفة رسول الله ﷺ، فقاتلوا مانعي الزكاة وهم يقولون: لا إلٰه إلا الله، بل يصلون، ولكنهم منعوا ركنًا من أركان الإسلام، فقاتلهم الصديق ومعه الصحابة؛ فهذا دليل على أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤).
(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٩ ـ ١٤٠٠).

هم موحدون لم يشركوا، ولكنهم تركوا ركنًا من أركان الإسلام، ولهذا أجمعت الصحابة ﷺ على قتالهم، بل دل الدليل الصحيح المتواتر على ذلك، وهو الأحاديث الواردة بألفاظ منها: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقولوا لَا إِلٰه إلا الله، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَيَحجُّوا الْبَيْتَ، وَيَصُومُوا رَمَضَانَ، فَإِذَا فَعَلوا ذَٰلِك عَصَمُوا مِني دِمَاءَهُم وَأَموَالهم إلا بِحَقِها»**(١).

الشَّرح

لا يكفي قول: (لا إِلٰه إلا الله)؛ لأنه لا يكفي أداء بعض أركان الإسلام وترك البعض الآخر عمدًا.

قوله: (ولكنهم تركوا ركنًا من أركان الإسلام)، فهم لا يدعون إلا الله، ولا استغاثوا بغير الله، ولا ذبحوا لغير الله، ولكنهم منعوا الزكاة وهي ركن من أركان الإسلام.

قوله: (ولهذا أجمعت الصحابة على قتالهم)، لما أقنعهم الصديق بذلك، وذكر لهم الأدلة؛ فاقتنعوا وسلموا وجاهدوا مع الصديق ﷺ.

قوله ﷺ: («أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقولوا: لا إِلٰه إلا الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»)، فلم يقل: حتى يقولوا: (لا إِلٰه إلا الله) فقط.

وقوله ﷺ: («إلا بحَقِها»)، فلو فعلوا شيئًا يخالف حق (لا إِلٰه إلا الله)، وجب قتالهم، والزكاة من حقها، الصلاة من حقها، صيام رمضان من حقها، حج بيت الله الحرام من حقها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فالذي يترك الحج جحودًا وهو يقدر عليه متعمدًا يعتبر كافرًا؛ لأنه ترك ركنًا من

(١) أخرجه البخاري (٢٥ ـ ٣٩٢ ـ ١٣٩٩ ـ ٢٩٤٦).

فمن ترك إحدى هذه الخمس لم يكن معصوم الدم ولا المال، وأعظم من ذلك التارك معنى التوحيد، أو المخالف له بما يأتي به من الأفعال.

فإن قلت: هؤلاء المعتقدون في الأموات لا يعلمون بأن ما يفعلونه شرك، ....

الشَّرْح

أركان الإسلام وإن كان يقول: (لا إلٰه إلا الله)، فالإسلام لا يتجزأ، الإسلام وحدة كاملة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ أي: الإسلام، فالسلم يعني الإسلام، فادخلوا فيه كافة، لا تأخذون بعضه، وتتركون بعضه.

قوله: (فمن ترك إحدى هذه الخمس)؛ يعني: أحد أركان الإسلام الخمس، وأيهما أشد: الذي يذبح وينذر لغير الله ويستغيث بغير الله، أو الذي يمنع الزكاة وهو يوحد الله ويفرده بالعبادة، ومع هذا جاحد الزكاة لا يدخل في الإسلام، فكيف بالذي منع الركن الأول وهو شهادة أن (لا إلٰه إلا الله).

قوله: (وأعظم من ذلك التارك معنى التوحيد)؛ أي: تارك الركن الأول، وهو التوحيد، إذا كان من ترك الصلاة، أو ترك الزكاة، أو ترك الصيام أو الحج: يكفر ويجب قتاله، فكيف بمن ترك الركن الأول الذي هو التوحيد، وأشرك بالله، ودعا غير الله، وذبح لغير الله، فهذا من باب أولى.

قوله: (أو المخالف له بما يأتي به من الأفعال) في أنه يجحد معنى التوحيد، وينكر معنى (لا إلٰه إلا الله).

هذه الشُّبه إذا فهمتها نفعك الله بها وأزال عنك إشكالات كثيرة.

وهذا التقدير والافتراض من المؤلف يريد به الرد على القبوريين؛ لأنه يفترض للقبوريين عذرًا، فيرد عليه فيقول: **(فإن قلت)**؛ يعني: على فرض كونه **(هؤلاء المعتقدون في الأموات لا يعلمون بأن ما يفعلونه شرك)** ولو علموا لتركوه ولم يقربوه، والجواب عن ذلك: أنهم يفسرون الشرك بغير معناه، ولم

بل لو عرض أحدهم على السيف لم يُقر بأنه مشرك بالله، ولا فاعل لما هو شرك؛ بل ولو علم أدنى علم أن ذلك شرك لم يفعله.

الشَّرْح

يعلموا أن ما يفعلونه هو الشرك؛ لأنهم يفسرون الشرك بغير معناه، ويقولون: ما نفعله ليس من الشرك، فيقول المؤلف: الشرك ليس هو باعتبار الإنسان حتى يكون خاضعًا لتفسيره وتعبيره، وإنما الشرك عبادة غير الله، بأي نوع من العبادة: بالذبح، بالنذر، بالاستغاثة بأي نوع من أنواع العبادة، هذا هو الشرك، كما أن التوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، فكذلك الشرك هو عبادة غير الله، فتفسير الشرك ليس موكولًا إليهم ولا إلى غيرهم، فليس هو أمر اصطلاحي يُجرُونه إلى ما يريدون، فما يفعلونه هو الشرك، ولو لم يعرفوا أنه شرك، أو قيل لهم: ليس هذا بشرك، إنما هذا توسل بالصالحين، وطلب للشفاعة من الصالحين، فهذا هو الذي كان المشركون الأولون في الجاهلية يفعلونه، فهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، يتوسط لنا، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ولم يعذرهم الله بذلك وهو كونهم لم يعتبروا ما هم عليه شركًا، فمن وقع في الشرك فهو مشرك، سواء فسره بهذا أو بذاك.

قوله: (بل لو عرض أحدهم على السيف لم يقر بأنه مشرك بالله) لأنه يجحد أنه مشرك، وفي يوم القيامة يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يحلفون بأنهم لم يكونوا مشركين في الدنيا ولن يعذرهم الله، مع أنهم حلفوا بأنهم ليسوا مشركين، فلم ينفعهم ذلك، فالشرك ليس هو حسب اصطلاح الناس يفسرونه بما يريدون، بل الشرك هو عبادة غير الله بأي نوع من أنواع العبادة، لا يصرفه عن ذلك لا تأويل ولا اصطلاح، هذا هو الجواب بالاختصار، ثم هؤلاء إذا حُذّروا وقيل لهم: هذا شرك، وهذا باطل يقولون: لا، أنتم وهابية!، أو أنتم خوارج! فيردون على من نصحهم وبين لهم، ولا يقبلون البيان، فلو فرضنا أنهم لا يعرفون، فإننا إذا بيّنا لهم لم يقبلوا،

قلت: الأمر كما قلت، ولكن لا يخفى عليك ما تقرر في أسباب الردة: أنه لا يعتبر في ثبوتها العلم بمعنى ما قاله من جاء بلفظ كفري، أو فعل فعلًا كفريًّا.

الشَّرح

ويقولون: أنتم المخطئون، والمغالطون، أنتم الخوارج، أنتم الوهابية، أنتم من اتباع ابن تيمية!، وهكذا يقولون.

قوله: (لا يعتبر في ثبوتها العلم بمعنى ما قاله من جاء بلفظ كفري، أو فعل فعلًا كفريًّا) فكونه يعتبر أن الذي هو عليه ليس بشرك لا ينفعه، ما دام أن ما فعله شرك أو كفر فقد أشرك أو كفر نظرًا لما فعله، أما كونه لا يدري، وينكر ويقول: هذا ليس بشرك، هذا توسل، أو طلب للشفاعة، هذا احترام للأولياء والصالحين، أنتم لا تقدِّرون الأولياء والصالحين، ولا تحترمون الأولياء والصالحين! فنقول: هل احترامهم بعبادتهم؟؛ فليس احترام الأولياء والصالحين بأن يُتَّخذوا شركاء لله ﷻ، ليس هذا من تقديرهم، بل هذا مما ينهون عنه ويحذرون منه، فـ**(من جاء بلفظ كفري، أو فعل فعلًا كفريًّا)** فليس كل من ادعى الجهل يُعذر؛ كالذي يكون في بيئة لم يبلغه شيء، فلم يبلغه القرآن، ولم تبلغه السنة، ولم تصل إليه الدعوة، فهذا يمكن أن يُعذر، أما إنسان بلغته الدعوة وسمع القرآن، أو هو يحفظ القرآن بالقراءات العشر ويتغنى به، ولكنه يدعو غير الله، ويذبح لغير الله، فهذا قد بلغته الحجة، وقامت عليه، لأن القرآن صريح في النهي عن الشرك، وقد بيّن القرآن أن الشرك هو عبادة غير الله، وهو دعاء غير الله، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]، القرآن بيّن هذا، وبيّن أن من أنواع الشرك دعاء غير الله، وهؤلاء يدعون غير الله ليلًا ونهارًا ويبكون وينسون الله ﷻ، يبكون عند الأضرحة ولا يبكون في المساجد، بل يتعلقون بالأضرحة أكثر مما يتعلقون بالمساجد؛ لأنهم مفتونون والعياذ بالله.

وعلى كل حال: فالواجب على كل من اطلع على شيء من هذه الأقوال والأفعال التي اتصف بها المعتقدون في الأموات أن يُبلّغهم الحجة الشرعية، ويبين لهم ما أمره الله ببيانه، وأخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه ـ كما حكىٰ ذلك لنا في كتابه العزيز ـ،

الشَّرْح

قوله: (... أن يبلغهم الحجة الشرعية)؛ أي: يجب على كل من علم بأفعالهم الشركية أو رآها؛ فنحن لا ننظر إلى أنهم يعتقدون أنه شرك، أو لا يعتقدون، أو لا يدرون، لا ننظر إلى هذا، بل نحن ندعوهم إلى الله، ونبين لهم أن هذا الفعل الذي يفعلونه شرك وكفر بالله ﷻ، لا يمنعنا جهلهم بالحال أننا ندعوهم ونبين لهم، لنقيم عليهم الحجة، وأيضًا نحن نقول لهم هذا شرك، وإن كانوا يقولون: نحن لسنا بمشركين، نقول لهم: هذا شرك، فالشرك ليس ما تعتبره أنت شركًا!، أو تفسره أنت، الشرك هو نفس دعوة غير الله، وعبادة غير الله، علينا أن نبلغهم الحجة الشرعية، قطعًا لعذرهم.

قوله: (ويبين لهم ما أمره الله ببيانه، وأخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه، كما حكى ذلك لنا في كتابه العزيز)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة]، والآن كثير من العلماء يرون المشركين على شركهم عاكفين على القبور، يذبحون لها وينذرون لها، ولا يبينون لهم، ولا يحركون ساكنًا، حتى صار أمر عاديًا، وصار الشرك عندهم أمرًا معتادًا، فهؤلاء كتموا ما أنزل الله، ودخلوا في هذا الوعيد بلا شك، قال الله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] هذا عهد من الله إليك أنك تبين، فلا تسكت وتترك الناس، أو تقول: هؤلاء لا يقبلون فاتركوهم، ليس لك عذر في هذا، بل بين، وما عليك إلا البلاغ أما الهداية فهي بيد الله ﷻ، لكن تبرئ

فيقول لمن صار يدعو الأموات عند الحاجات، ويستغيث بهم عند حلول المصيبات، وينذر لهم النذور، وينحر لهم النحور، ويعظمهم تعظيم الرب ـ سبحانه ـ: إن هذا الذي يفعلونه هو الشرك الذي كانت عليه الجاهلية، وهو الذي بعث الله رسوله بهدمه، وأنزل كتبه في ذمه، وأخذ على النبيين أن يبلغوا عباده أنهم لا يؤمنون حتى يخلصوا له التوحيد، ويعبدوه وحده.

الشَّرْح

ذمتك وتخرج من الكتمان، ولا يُعدم من يقبل، ولو واحدًا، قال ﷺ: «**فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ**»(١).

قوله: (فيقول لمن صار يدعو الأموات عند الحاجات...)؛ يعني: يجب عليه أن يبين لهم ويقول: إن ما تفعلونه من هذه الأمور هو الشرك الذي كانت عليه الجاهلية، ويبين لهم أن الشرك ليس هو باعتبارهم، أو باصطلاحهم، أو بما يقوله لهم أهل الضلال، فالشرك هو عبادة غير الله بأي نوع من أنواع العبادة، وأنتم تعبدون غير الله، فأنتم مشركون.

قوله: (وأخذ على النبيين أن يبلغوه عباده أنهم لا يؤمنون حتى يخلصوا له التوحيد، ويعبدوه وحده)، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾؛ أي: جميع الرسل، ﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] هذا الذي عهد الله به للأنبياء، وعهد به لأتباع الأنبياء أن يبلغوا الناس أن لا إلٰه إلا الله جل وعلا، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وأن صَرْفها لغيره شرك أكبر، يبينون للناس هذا، قد يقال: لا يقبلون منا!، فنقول: ليس عليك أنهم يقبلون بل عليك أن تبلغ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، وأما الهداية فهي بيد الله ﷻ.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢).

فإذا علموا بهذا علمًا لا يبقى معه شك ولا شبهة، ثم أصروا على ما هم فيه من الطغيان والكفر بالرحمٰن، وجب عليه أن يخبرهم بأنهم إذا لم يقلعوا عن هذه الغواية، ويعودوا إلى ما جاءهم به رسول الله ﷺ من الهداية؛ فقد حلّت دماؤهم وأموالهم، فإن رجعوا وإلا فالسيف هو الحكم العدل كما نطق به الكتاب المبين، وسُنَّة سيد المرسلين في إخوانهم المشركين.

الشَّرح

أي: إذا بلغتهم وعلموا أن ما هم فيه شرك لا يبقى فيه شك ولم يقبلوا بعد البيان (**فالسيف هو الحكم العدل كما نطق به الكتاب المبين، وسنة سيد المرسلين في إخوانهم**) من (**المشركين**)، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ [التوبة: ٥] فأمر الله بقتال المشركين بعد الدعوة، فالدعوة أولًا، ثم إذا لم يقبلوا فلا بد من القتال تحت راية وولاية مسلمة، هذا هو الخطاب للرسول ﷺ ولمن يلي الأمر بعده، فالقتال لا يقوم به إلا ولي الأمر، والمسلمون تبع لولي أمرهم وتحت رايته، فليس لكل أحد أن يأخذ سيفًا ويقتل من أمامه ويقول: هذا مشرك، فهذه فوضى وهذا ينفر عن الدعوة، ويوصف من فعله بأنه من المخربين كما هو الواقع الآن؛ فالأعداء لبّسوا على الإسلام ما ليس منه بسبب تصرفات بعض المتحمسين على غير طريق شرعي، وعلى غير بصيرة، فالأمور لها ضوابط، والأمور لها طرق، فليست الأمور فوضى، خذ السيف واقتل!، دمّر!، افعل ما ترى وهكذا، فالأمور منظمة، والأمور لها طرق، ولها بيان.

فإن قلت: فقد ورد الحديث الصحيح بأن الخلائق يوم القيامة يأتون آدم فيدعونه ويستغيثونه، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدًا ﷺ وسائر إخوانه من الأنبياء.

قلت: أهل المحشر إنما يأتون هؤلاء الأنبياء يطلبون منهم أن يشفعوا لهم إلى الله سبحانه، ويدعون لهم بفصل الحساب والإراحة من ذلك الموقف، وهذا جائز، فإنه من طلب الشفاعة والدعاء المأذون فيهما.

الشَّرح

هذه شبهة ثانية، وهي أنهم يقولون: نحن نطلب من الأولياء والصالحين أنهم يشفعون لنا عند الله، والدليل على هذا أن أهل المحشر يوم القيامة يطلبون من أولي العزم أن يشفعوا لهم عند الله ليخلصهم من الموقف، ويريحهم من الموقف الذي طال عليهم وشق عليهم، ويتقدمون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، ثم إلى محمد ﷺ، فهذا دليل على أن دعاء الأولياء والصالحين ليس بشرك؛ لأن الناس يوم القيامة يطلبوا من أنبياء الله أن يشفعوا لهم عند الله، ويتوسطوا لهم عنده.

فالجواب عن هذا واضح وهو: أن أهل المحشر يطلبون من الأنبياء الأحياء أن يدعوا لهم، وطلب الدعاء من الإنسان الحي: جائز، وليس هذا مما نحن فيه، فأنتم تدعون أمواتًا، وتطلبون منهم وتدعونهم، أما أولئك فهم يخاطبون الأنبياء الأحياء بعد البعث والنشور، فهناك فرق بين هذا وهذا.

قوله: (**يأتون آدم فيدعونه ويستغيثونه**) هم لا يدعونه، ولا يستغيثون به ولكن يقولون: «**اشْفَعْ لَنا إِلَى رَبِّكَ**»[1]؛ فهو يدعو: (**لهم بفصل الحساب والإراحة من ذلك الموقف**)، يطلبون منهم الدعاء، فطلب الشفاعة: يعني طلب الدعاء من الحي وهو جائز، تقول: يا أخي، ادعُ الله لي، (**وهذا جائز، فإنه من طلب الشفاعة والدعاء المأذون فيهما**)، الشفاعة حق، وهي أن يدعو الله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢).

وقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يطلبون من رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم.

الشَّرْح

لأخيه، فصلاتنا على الميت شفاعة له، فطلب الدعاء من الرجل الحي الصالح جائز، بل هو من الأسباب المشروعة، فلا يُقاس عليه دعاء الأموات، لأن الميت لا يقدر أن يدعو لك؛ بل هو بحاجة إلى دعائك لأنه لا يقدر أن يدعو لك؛ لأنه لا يقدر على شيء أبدًا، انقطع عمله كما في الحديث: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ**»، قد عملها في حياته، واستمر نفعها بعده وهو الوقف، «**أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ**»، بأن درّس العلم، أو ألّف المؤلفات النافعة، وقد بقيت ينتفع بها، فهذه يجري ثوابها على الميت، «**أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1]، ولد صالح حي، فالحي يدعو لأبيه الميت.

قوله: (وقد كان الصحابة يطلبون من رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم) قصة الاستسقاء حينما دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، وقال: «يا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتْ الـمَوَاشِي، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا»، فرفع النبي ﷺ يديه الشريفتين واستغاث، فنشأت السحابة في الحال، ورعدت وأمطرت وسالت الأودية، ولم يخرجوا من المسجد إلا والطرقات ممتلئة واستمر المطر لمدة أسبوع، فدخل ذلك الرجل ثم قال: «يا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتْ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا»، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «**اللهم حَوَالَيْنَا ولا عَلَيْنَا، اللهم على الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالْآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**»[2]، فانقطعت في الحال، وطلعت الشمس وخرجوا يمشون في الشمس.

فطلب الدعاء من الحي لا بأس به، ولكن الكلام في طلب الدعاء أو الشفاعة أو تفريج الكربة من الميت.

قوله: (يطلبون من رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم)، فلما مات طلبوا

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١). (٢) أخرجه البخاري (١٠١٣).

كما في حديث: «يا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم»، لما أخبرهم بأنه يدخل الجنة سبعون ألفًا، وحديث: «سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ»، وقول أم سليم: ....

الشَّرْح

من عمه العباس أن يدعو لهم، وقال عمر رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ إِنَّا كنا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا» يعني: بدعائه يوم أن كان حيًا، «وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»[1] يعني: نتوسل إليك بدعائه لنا، فيقوم العباس ويدعو الله فيسقون؛ فلماذا عدلوا عن الرسول ﷺ بعد وفاته إلى عمه العباس؟ لأن الرسول ﷺ ميت والعباس حي.

قوله: (كما في حديث: يا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم)، الرسول ﷺ قال في الحديث الطويل: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النبي معه الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ معه الرَّجُلَانِ**»؛ يعني: لم يتبعه من قومه إلا رجل واحد أو رجلان، «**وَالنَّبِيُّ معه الرَّهْطُ**» أي: دون العشرة، «**وَالنَّبِيُّ ليس معه أَحَدٌ**»، فهناك أنبياء لم يتبعهم أحد من أممهم، «**وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ**»؛ يعني: كثرةً، «**فَرَجَوْتُ أَنْ تكون أُمَّتِي، فَقِيلَ: هذا مُوسَى وَقَوْمُهُ**»؛ لأن موسى عليه السلام من أكثر الأنبياء أتباعًا، «**ثُمَّ قِيلَ لي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ لي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال: «يا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم»، فقال: «**أنت منهم**»، ثم قام رجل آخر فقال: يا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، فقال ﷺ: «**سَبَقَكَ بها عُكَاشَةُ**»[2]، فلم يقل له الرسول ﷺ: أنت لا تستحق، أنت لست مثل فلان، بل قال له: سبقك بها عكاشة، **فقوله: (ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم)**، فيه دليل على طلب الدعاء من الحي الحاضر.

قوله: (وقول أم سليم) رضي الله عنها، فإنها لما قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا أتته

---

(١) أخرجه البخاري (١٠١٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٢ ـ ٦٥٤١).

«يا رَسُولَ اللهِ، خَادِمُكَ أَنَسٌ ادْعُ اللهَ له»، وقول المرأة التي كانت تُصرع: «يا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لي»، وآخر الأمر سألته الدعاء بأن لا تنكشف عند الصرع، فدعا لها.

ومنه إرشاده ﷺ لجماعة من الصحابة بأن يطلبوا الدعاء من أويس القَرَني إذا أدركوه، ....

الشَّـرْح

بابنها الصغير أنس بن مالك رضي الله عنه، وقالت: «يا رَسُولَ اللهِ، هذا أُنَيْسٌ ابْنِي أَتَيْتُكَ بِهِ يَخْدُمُكَ فَادْعُ اللهَ لَهُ»(١)، فكان أنس بن مالك خادم رسول الله، خدمه حتى مات عليه الصلاة والسلام، والشاهد من هذا أنها قالت: **(ادْعُ اللهَ له)** فطلبت من الرسول ﷺ الدعاء له ولم ينكر عليها، دعا له أن يحسن الله عمله، وأن يطيل عمره، فحسن عمله، وعُمّر حتى جاوز المائة رضي الله عنه، فالشاهد من هذا أنها طلبت من الرسول ﷺ أن يدعو الله لابنها، وهذا دليل على جواز طلب الدعاء من الحي الحاضر، وهذا لا إنكار فيه.

قوله: (وقول المرأة التي كانت تصرع)؛ يعني: يصيبها الجن بالصرع فتتكشف، فجاءت إلى رسول الله ﷺ وطلبت منه أن يدعو الله لها بالشفاء، فقال لها: **«إن شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»**، فقالت: «أَصْبِرُ، إني أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ»(٢) فَدَعَا لها، الشاهد من هذا: أن هذه المرأة طلبت من الرسول ﷺ أن يدعو لها، ودعا لها ﷺ، فهذا دليل على جواز طلب الدعاء من الحي.

قوله: (ومنه إرشاده ﷺ لجماعة من الصحابة بأن يطلبوا الدعاء من أويس القرني إذا أدركوه)، أويس القرني رجل صالح من أهل اليمن كان بارًّا بأمه، أخبرهم النبي ﷺ عن شأنه وقال: من لقيه فليطلب منه الدعاء، وجاء مع حجاج اليمن، فجاء عمر إليهم فسأل عنه فدلّوه عليه، فقال: أنت أُوَيْسُ بن عَامِرٍ؟ قال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٢).

ومنه ما ورد في دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب.

وغير ذلك مما لا يحصر، حتى أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما خرج معتمرًا: **«لَا تَنْسَنَا يا أُخَيَّ من دُعَائِكَ»**(١).

فمن جاء إلى رجل صالح، واستمد منه أن يدعو له، فهذا ليس من ذلك الذي يفعله المعتقدون في الأموات، بل هو سُنَّة حسنة،

الشَّرْح

نعم، قال: ادعُ الله لي(٢)، فهذا دليل على جواز طلب الدعاء من الرجل الصالح الحاضر، لم يطلب منه عمر إلا لما قدم وجاء وقابله، فطلب منه الدعاء.

قوله: (ومنه ما ورد في دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب)(٣) كذلك تدعو لأخيك الغائب هذا فيه فضل عظيم ينفعه بإذن الله، فدعاء الصالحين إذا قبله الله ينفع المدعو له.

الرسول ﷺ طلب من عمر لما أراد أن يعتمر، قال له: **(لَا تَنْسَنَا يا أُخَيَّ من دُعَائِكَ)**، فهذا دليل على جواز طلب الدعاء من الحي الحاضر، وهذا ليس مثل طلب الدعاء من الميت الهامد الفاني.

قوله: (فهذا ليس من ذلك الذي يفعله المعتقدون في الأموات) فهناك فرق بينهما، فرق بين الحي والميت، الميت قال الله فيه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

قوله: (بل هو سُنَّة حسنة)؛ أي: أن طلب الدعاء من الحي سُنَّة ثابتة وشريعة حسنة، وهو من التعاون بين المسلمين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٩٥)، والترمذي (٣٥٦٢)، وأبو داود (١٥٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٢).

(٣) أخرج مسلم (٢٧٣٢) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **«مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ»**.

وشريعة ثابتة، وهكذا طلب الشفاعة ممن جاءت الشريعة المطهرة بأنه من أهلها كالأنبياء؛ ولهذا يقول الله لرسوله يوم القيامة: «**سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»[(١)]، وذلك هو المقام المحمود الذي وعده الله به كما في كتابه العزيز.

والحاصل: أن طلب الحوائج من الأحياء جائز إذا كانوا يقدرون

الشَّرْح

قوله: (وهكذا طلب الشفاعة ممن جاءت الشريعة المطهرة بأنه من أهلها كالأنبياء) فالذي يطلبه أهل المحشر من الأنبياء هو من هذا الباب، من طلب الشفاعة من الأحياء.

قوله: («سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»)؛ لأن الرسول ﷺ لما التزم بأنه سيشفع لأهل المحشر لم يذهب إلى ربه على الفور، ويطلب منه أن يفصل بينهم، بل سجد تحت العرش، ودعا ربه وأطال السجود والدعاء، حتى قيل له: «**يا محمد ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**» فاستأذن ربه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وأيضًا لا بد أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، أما المشرك فلا تنفعه شفاعة الشافعين في نجاته من النار، والمؤمن تنفعه شفاعة الشافعين بإذن الله؛ فيخرج من النار إذا دخلها، أو أن لا يدخلها.

قوله: (وذلك هو المقام المحمود الذي وعده الله به في كتابه العزيز)، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء]. وهذا المقام المحمود هو الشفاعة العظمى لأهل المحشر؛ لأنه يحمده عليه الأولون والآخرون عليه الصلاة والسلام، وهذه الشفاعة من خصائصه ﷺ.

قوله: (والحاصل أن طلب الحوائج من الأحياء جائز إذا كانوا يقدرون

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢).

عليها، ومن ذلك الدعاء فإنه يجوز استمداده من كل مسلم، بل يحسن ذلك.

وكذلك الشفاعة من أهلها الذين ورد الشرع بأنهم يشفعون، ولكن ينبغي أن يعلم أن دعاء من يدعو له لا ينفع إلا بإذن الله وإرادته ومشيئته، وكذلك شفاعة من يشفع لا تكون إلا بإذن الله، كما ورد بذلك القرآن الكريم، فهذا تقييد للمطلق لا ينبغي العدول عنه بحال.

واعلم: أن من الشُّبه الباطلة التي يوردها المعتقدون في الأموات: أنهم ليسوا كالمشركين من أهل الجاهلية؛ لأنهم إنما

الشَّرح

عليها)، والحي يقدر أن يدعو، والميت لا يقدر على الدعاء.

قوله: (ومن ذلك الدعاء فإنه يجوز استمداده من كل مسلم)، وليس خاصًّا بالنبي ﷺ، فكل رجل صالح تطلب منه أن يدعو الله لك.

قوله: (وكذلك الشفاعة من أهلها الذين ورد الشرع بأنهم يشفعون) كالأنبياء والصالحين.

قوله: (ولكن ينبغي أن يعلم أن دعاء من يدعو له لا ينفع إلا بإذن الله، وإرادته، ومشيئته)، فلا ينفع الدعاء إلا بذلك.

قوله: (فهذا تقييد للمطلق لا ينبغي العدول عنه بحال) لأن هناك من يأخذ المطلق ويستدل به، ولا ينظر إلى القيد إما لجهله وإما لضلاله، فلا بد أن تربط الأدلة بعضها ببعض؛ لأنها يفسر بعضها بعضًا، ويقيد بعضها بعضًا، وينسخ بعضها بعضًا.

قوله: (واعلم: أن من الشُّبه الباطلة التي يوردها...)، هذه الشبهة يرددونها في كل مناسبة، ولكنها لا تنفعهم، ذلك لأنه لا فرق بين من دعا صنمًا أو دعا رجلًا صالحًا، كله شرك، وليس النظر إلى المدعو فقط، النظر إلى أن هذا عبادة لغير الله سواء أكان صنمًا أو ملكًا من

يعتقدون في الأولياء والصالحين، وأولئك اعتقدوا في الأوثان والشياطين.

وهذه الشبهة داحضة تنادي على صاحبها بالجهل، فإن الله ـ سبحانه ـ لم يعذر من اعتقد في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ وهو نبي من الأنبياء ـ، بل خاطب النصارى بتلك الخطابات القرآنية، ومنها:

الشَّرْح

الملائكة أو نبيًّا أو رجلًا صالحًا؛ لا فرق في الشرك بين هذا وهذا، ولا يقول هذه الكلمة أو هذه الشبهة إنسان يتصور ما يقول، إنما هي المكابرة فقط، هذا من حيث الحكم، أما من حيث الواقع فإن قولهم: إن المشركين الأولين يعبدون الأصنام ونحن نعبد الصالحين، وفرق بين الصالحين والأصنام، فالواقع أن الأولين لم يقتصروا على عبادة الأصنام، بل كانوا يعبدون الصالحين، فالنصارى مثلًا يعبدون المسيح وهو رسول من رسل الله، وقد ذكر الله في حقهم ما ذكر من أن هذا شرك، وأن المسيح سيتبرأ منهم يوم القيامة، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، فالنصارى عبدوا رسولًا من الرسل، وكذلك هناك من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الصالحين مثل قوم نوح، قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا صوروهم ليتذكروهم فينشطوا على العبادة؛ ثم زين لهم الشيطان عبادة هذه الصور، فلا فرق بين عبادة الصنم أو عبادة الرجل الصالح، وهذا في القرآن الكريم، كما قال جل وعلا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، هل الصنم يشفع عند الله!، هل أحد يشفع عند الله إلا بإذنه؟ وهل الشافع يُعبد من دون الله؟، ويُذبح له

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال لمن كان يعبد الملائكة: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ].

الشَّرح

وينذر له ويتقرب إليه؟، فهذا أمر واضح على أن هذه حجة داحضة، ومع هذا يكررونها ويرددونها، وهذه هي أوائل الشبه التي أجاب عنها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «كشف الشبهات»، فلا تنفعهم إذا رددوها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٧١]، **وقوله:** ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ [سبأ]، فالمشركون في الجاهلية لم يقتصروا على عبادة الأصنام كما يقول هؤلاء، وإنما عبدوا من هم من أفضل الخلق، عبدوا رسول الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، فقال الله لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ والغلو هو الزيادة، وهؤلاء غلوا في المسيح، حتى جعلوه إلهًا، وقالوا: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، فهذا غلو، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وليس له من الأمر شيء، ولا من العبادة شيء، وإنما هو رسول يدعو إلى عبادة الله وحده، ويقول لربه يوم القيامة: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧]، هذا الذي يُجيب به المسيح يوم القيامة إذا سأله الله عَزَّ وَجَلَّ أمامهم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] فنزّه ربه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن ذلك؛ لأنه شرك وقال: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: ١١٦]

ولا شك أن عيسى والملائكة أفضل من هؤلاء الأولياء والصالحين الذين صار هؤلاء القبوريون يعتقدونهم، ويغلون في شأنهم، مع أن رسول الله ﷺ هو أكرم الخلق على الله، وسيد ولد آدم وقد نهى أمته أن تغلو فيه كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام،

الشرح

فالعبادة حق لله، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾؛ أي: مستحيل، ﴿...أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة]، فأكذب بني إسرائيل على رؤوس الأشهاد وفضحهم على رؤوس الأشهاد مع أنهم عبدوا رسولًا ولم يعبدوا صنمًا، فلا فرق بين من عبد الصنم ومن عبد الرسول، لا فرق في ذلك، كما قال الله سبحانه وتعالى عن المشركين ومعبوديهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان] نزهوا الله أن يكون الملائكة شركاء له كما يزعم المشركون، ثم بينوا أن عبادتهم إياهم ليست لهم؛ لأنهم لم يأمروهم بها، وإنما عبادتهم للجن أي الشياطين؛ لأنهم هم الذين أمروهم بهذا وزينوه لهم، وقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، فأبطل الله حجتهم ودحضها في موقف هم أحوج ما يكونون إلى النجاة.

قوله: (ولا شك أن عيسى والملائكة أفضل من هؤلاء الأولياء) فإذا كان الله أبطل عبادة المسيح، وعبادة الملائكة وهم أفضل من الأولياء والصالحين الذين يتعلق بهم القبوريون، فبطلان عبادة القبوريين للصالحين من باب أولى.

قوله: (وقد نهى أمته أن تغلو فيه كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام)

ولم يمتثلوا أمره، ولم يمتثلوا ما ذكره الله ـ سبحانه ـ في كتابه العزيز

الشَّرْح

كما في الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي**» يعني: لا تغلوا فيَّ، «**كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أنا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عبد اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١)، فنهى أمته أن تقع فيما وقعت فيه النصارى من الغلو فيه ﷺ، وأخبر عن نفسه أنه عبد لله ﷻ، وليس شريكًا لله ﷻ، فهذه مقالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمن عبدهم من دون الله ﷻ، فكيف بالأولياء والصالحين؟! والرسول منعهم من ألفاظ أصلها جائز، ولكن لما كانت وسيلة إلى الغلو منعهم منها، وذلك لما كان هناك منافق يؤذي المؤمنين، فقال أحدهم: «قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ من هذا الْمُنَافِقِ»، فقال رسول اللهِ ﷺ: «**لا يُستغاث بي وإنما يُستغاث بالله**»(٢)، مع أن الاستغاثة بالمخلوق القادر الحي جائزة، قال تعالى عن موسى ﵇: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، فالاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزة، وهم طلبوا منه شيئًا جائزًا أن يدحض أو يردع المنافق لئلا يؤذيهم، ويمنعه من ذلك، ولكن لفظة «نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ»، الرسول ﷺ منعهم منها خشية عليهم من الشرك والغلو، وهذا من سد الذرائع، ولما جاءه وفد من العرب وقالوا له: «يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا»، فقال لهم ﷺ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أو بَعْضِ قَوْلِكُمْ، السَّيِّدُ الله تبارك وتعالى، وإنما أنا عبد الله ورسوله**»، فمنعهم أن يقولوا: سيدنا، مع أنه سيد البشر، كما قال ﷺ: «**أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم الْقِيَامَةِ وَلا فخر**»، ومع هذا خشي عليهم من الغلو، فنهاهم عن أن يقولوا هذه الكلمة: «يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا»(٣).

قوله: (ولم يمتثلوا أمره)؛ أي: لم يمتثل هؤلاء القبوريون أمره ﷺ، فلم يمتنعوا من الغلو في حقه مثلما غلت النصارى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.

من قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ومن قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار]، وما حكاه عن رسول الله ﷺ أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وما قاله

الشَّرْح

والله جل وعلا قال لرسوله محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وذلك أنه لما قنت يدعو على المشركين وقال: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فلانًا وفلانًا**»(١) أناس سماهم بأسمائهم، فقال الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران]، وقد أسلم هؤلاء وحسن إسلامهم، وصاروا من المجاهدين في سبيل الله ﷻ، فالرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، فلا يُدعى مع الله، ولا يُطلب منه الحوائج وهو ميت عليه الصلاة والسلام، ولا يُطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ؛ لأنه بشر، وهذا واضح جدًّا.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار]، يوم الدين: أي يوم الحساب، فالدين يعني الحساب، وهو يوم عظيم، نوه الله بشأنه فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ هذا تنويه بشأن هذا اليوم ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ فكل له عمله، ولا أحد ينقذ أحدًا يوم القيامة، ولا أحد يعطي أحدًا شيئًا من الحسنات، حتى الولد لا يعطي والده، ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾؛ يعني: كل النفوس لم يستثن منها شيئًا، لا الملائكة، ولا الرسل، ولا الصالحين ولا غيرهم، فلا أحد يغني عن أحد شيئًا، ليس للإنسان إلا عمله، كل له عمله: خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قوله: (وما حكاه عن رسول الله ﷺ أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا)،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٠).

رسول الله ﷺ لقرابته الذين أمره الله بإنذارهم بقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]، فقام داعيًا لهم، ومخاطبًا لكل واحد منهم قائلًا: «**يا فلان ابن فلان لَا أُغْنِي عَنْكَ من اللهِ شيئًا، يا فلانة بنت فلان لَا أُغْنِي عَنْكِ من اللهِ شيئًا، يا بني فلان لَا أُغْنِي عَنْكُمْ من اللهِ شيئًا**».

الشَّرْح

الله جل وعلا قال لرسوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف]، فأمره الله أن يعلن هذا، أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملك لغيره، وإذا كان هذا رسول الله ﷺ يقول: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فكيف بغيره من الأولياء والصالحين؟!.

ولما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]، قام ﷺ وقال: «**يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ من اللهِ شيئًا، يا بَنِي عبد مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ من اللهِ شيئًا، يا عَبَّاسُ بن عبد الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ من اللهِ شيئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رسول اللهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ من اللهِ شيئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي ما شِئْتِ من مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ من اللهِ شيئًا**»(١)، صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ وأم الزبير بن العوام، فإذا كان لا يملك لهؤلاء شيئًا فكيف يملك لغيرهم، هذا إنذار، فأنذرهم أن يتكلوا على قرابتهم من الرسول ﷺ بدون عمل صالح، فالقرابة لا تنفع بدون عمل صالح، لا ينفع إلا العمل الصالح، ولو كان قريبًا من الرسول ﷺ، فإبراهيم عليه السلام لم يملك لأبيه شيئا، ونوح عليه السلام لم يملك لابنه شيئًا، فلا ينجي الإنسان يوم القيامة إلا عمله الصالح، ولا تنقذه قرابته من الأنبياء.

---

(١) سبق تخريجه.

فانظر ـ رحمك الله ـ ما وقع من كثير من هذه الأمة من الغلو المنهي عنه، المخالف لما في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ كما يقوله صاحب البردة ـ رحمه الله تعالى ـ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

الشَّرح

قوله: (ما وقع من كثير من هذه الأمة من الغلو المنهي عنه)، كالذين يغلون في قرابة الرسول، وأهل البيت، فإذا كان الرسول لا يملك شيئًا فكيف بغيره من قرابته، وهو نص على ذلك في عمه وعمته وابنته، فكيف يملك لهؤلاء شيئا من دون الله ﷻ؟!.

قوله: (كما يقول صاحب البردة رحمه الله تعالى)، ليته لم يترحم عليه، فصاحب البردة هو البوصيري، أصله مغربي ونشأ في بلاد بوصير من مصر، فسمي (البوصيري)، وكان شاعرًا يغلو في الرسول ﷺ ويمدحه بالمدائح الشركية، ومنها قوله في البردة: **(يا أكرم الخلق)** يخاطب الرسول ﷺ، **(عند حلول الحادث العمم)** يعني: يوم القيامة، فهو يقول: ليس لي أحد ألوذ به يوم القيامة إلا أنت، يعني الرسول: ونسي الله ﷻ، نسأل الله العافية، ولم يقتصر على هٰذا، بل قال:

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي   فضلًا وإلَّا قل: يا زلَّة القدم

هل هناك أشد من هذا الغلو، ثم أشد من هذا قوله:

فإنَّ من جودك الدُّنيا وضرَّتها   ومن علومك علم اللَّوح والقلم

هل على الأرض غلو أشد من هذا، ومع هذا يرددون هذه البردة الشركية، ويطبعونها الطباعة الفاخرة، وعلى الورق الفاخر، ويوزعونها أكثر مما يطبعون المصحف الشريف، ويقرؤونها في الموالد كل سنة ويرددونها، وهي شرك صريح لا خفاء فيه.

فانظر كيف نفى كل ملاذ ما عدا عبد الله ورسوله ﷺ، وغفل عن ذكر ربه، ورب رسول الله ﷺ! إنا لله وإنا إليه راجعون. وهذا باب واسع، قد تلاعب الشيطان بجماعة من أهل الإسلام حتى ترقوا إلى خطاب غير الأنبياء بمثل هذا الخطاب، ودخلوا من الشرك في أبواب بكثير من الأسباب.

ومن ذلك قول من يقول مخاطبًا لابن العجيل:

هات لي منك يا ابن موسى إغاثة   عاجلًا في سيرها حثاثة

فهذا محض الاستغاثة ـ التي لا تصلح لغير الله ـ ....

الشَّرْح

قوله: (فانظر كيف نفى كل ملاذ ما عدا عبد الله ورسوله ﷺ)، ففي **قوله: (ما لي من ألوذ به)** نفى كل ملاذ؛ حتى نسي الله ﷻ.

قوله: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، فالمصيبة يسترجع عندها، وهذه مصيبة.

قوله: (وهذا باب واسع قد تلاعب الشيطان بجماعة من أهل الإسلام) فقد تلاعب الشيطان بالمدّعين للإسلام، حتى خاطبوا غير الرسول ﷺ بأشد من هذا الغلو، من الأولياء والصالحين، فيستغيثون بهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويهتفون بأسمائهم إذا وقعوا في شدة أن يخلصوهم، هذا شيء معروف ومشاهد ولا أحد ينكره، إلا من شاء الله من الصالحين.

قوله: (ومن ذلك قول من يقول مخاطبًا لابن العجيل)، فأحدهم يستغيث بابن عجيل، ولا يستغيث بالله ﷻ، وابن عجيل ميت، فهو يستغيث بالميت، ويحثه على العجلة في إغاثته، وينسى الله سبحانه وتعالى.

قوله: (فهذا محض الاستغاثة التي لا تصلح لغير الله)، الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه لا تجوز، فهي شرك بالله ﷻ؛ لأنها نوع من أنواع العبادة، فلا يُستغاث إلا بالله ﷻ.

لميت من الأموات، قد صار تحت أطباق الثرى منذ مئين من السنين، ويغلب على الظن أن مثل هذا البيت والبيت الذي قبله إنما وقعا من قائليهما لغفلة، وعدم تيقظ، ولا مقصد لهما إلا تعظيم جانب النبوة والولاية، ولو نُبّها لتنبّها ورجعا، وأقرَّا بالخطأ، وكثيرًا ما يعرض ذلك لأهل العلم والأدب والفطنة، وقد سمعنا ورأينا.

فمن وقف على شيء من هذا الجنس لحي من الأحياء فعليه إيقاظه بالحجج الشرعية، ....

الشَّرْح

قوله: (لميت من الأموات، قد صار تحت أطباق الثرى منذ مئين من السنين)؛ يعني: ابن العجيل الذي يناديه ويستغيث به، فبينه وبينه مئات السنين فهو ميت، رميم، ومع هذا يستغيث به.

قوله: (ويغلب على الظن أن مثل هذا البيت والبيت الذي قبله إنما وقعا من قائليهما لغفلة، وعدم تيقظ، ولا مقصد لهما إلا تعظيم جانب النبوة والولاية)، هذا ليس بصحيح، فليس عن غفلة، ولا عن جهل، وإنما عن قصد، وتعظيم النبوة لا يكون بالغلو.

قوله: (ولو نُبِّها لتنبها ورجعا، وأقرَّا بالخطأ، وكثيرًا ما يعرض ذلك لأهل العلم والأدب والفطنة، وقد سمعنا ورأينا)؛ أي هذا يقع من غير البوصيري وفي غير ابن العجيل، يقع الغلو في الأولياء والصالحين، ويعتبرونه من الدين، والذي لا يقول هذا فإنهم يصفونه بأنه يتنقص الصالحين، فعبادة الصالحين عندهم تعتبر تقديرًا لهم كما يقولون!.

قوله: (فعليه إيقاظه بالحجج الشرعية)، فلم يحصل هذا في الناس إلا لما سكت كثير من العلماء عن تعليم العقيدة الصحيحة، وشرحها للناس، والدعوة إليها، والنهي عن الشرك، فلما سكت العلماء حدث هذا في الناس، فهذا من

فإن رجع وإلا كان الأمر فيه كما أسلفناه.

وأما إذا كان القائل قد صار تحت أطباق الثرى؛ فينبغي إرشاد الأحياء إلى ما في ذلك الكلام من الخلل، وقد وقع في البردة والهمزية شيء كثير من هذا الجنس، ....

الشَّرْح

تقصير أهل العلم، وسكوتهم، تجد في المجتمع علماء ولكنهم ساكتون، يأكلون ويشربون ولا يحركون ساكنًا مما يقع حولهم وبجوارهم من الشرك الصريح؛ وبذلك صار مألوفًا عند الناس، وربما يحتجون بهؤلاء العلماء ويقولون: لو كان هذا شركًا ما تركونا ولا سكتوا عنه، فسكوت العلماء هو المصيبة.

قوله: (فإن رجع وإلا كان الأمر فيه كما أسلفناه)، فلا بد أن يبين للناس أسباب الشرك ويُحذَّرون منه، ويُدْعَون إلى التوحيد، ولا يُغفل عنه، ولكن الآن حدث في وقتنا من يثبطون عن التوحيد، ممن يقولون: إنهم يدعون إلى الله، وينتسبون للدعوة، ويقولون: لا تذكروا التوحيد، لا تنفروا الناس! اتركوا الناس على عقائدهم، اجعلوهم يتحابون ويتعاونون، ويساعد بعضهم بعضًا، وأما العقائد فكل له عقيدته، يا سبحان الله!، كيف يكون هذا الكلام ممن يقول: إنه يدعو إلى الله؟ يدعو إلى ماذا إذًا، إذا لم يدع إلى التوحيد فإلى ماذا يدعو؟؛ حتى إنهم يطالبون بإزالة هذا من كتب المقررات في المدارس، فيطالبون بإزالة كتب العقيدة من المناهج في المدارس، ومنهم من وصف «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» بأنها من كتب الإرهاب، وهناك جماعات وجماعة تخلي مناهجها من الدعوة إلى التوحيد؛ لأنها تنفر الناس بزعمهم وهم قصدهم التجميع فقط.

قوله: (وقد وقع في البردة والهمزية شيء كثير من هذا الجنس)، البردة والهمزية للبوصيري، ذكر في الهمزية نموذجًا مما قال فيها:

كيف ترقى رقيك الأنبياءُ ... يا سماء ما طاولتها سماء

ووقع ـ أيضًا ـ لمن تصدى لمدح نبيِّنا ﷺ ولمدح الصالحين والأئمة الهادين ما لا يأتي عليه الحصر، ولا يتعلق بالاستكثار منه فائدة.

فليس المراد إلا التنبيه والتحذير: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق]، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]،

الشَّرْح

إلى آخرها، كلها شرك مثل البردة أو أشد، وقد جاء من نظم على نهج البردة ونهج الهمزية، مثل أحمد شوقي وغيره، فهذا معناه تأييد وإحياء لهذه القصائد الشركية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: (ووقع أيضًا لمن تصدى لمدح نبينا ﷺ ولمدح الصالحين والأئمة الهادين ما لا يأتي عليه الحصر)، ويكفي في مدح النبي ﷺ بما مدحه الله به، أنه عبد الله ورسوله، وانه بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، وأنه أفضل الخلق، وسيد ولد آدم، وأن الله رفع له ذكره، فلا يذكر الله إلا ويذكر بعده الرسول ﷺ كما في الأذان والإقامة والخطب، وقال الله جلَّ وعلا له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح]، وهذا يكفي عن الغلو والإطراء في حقه ﷺ، فنحن نذكره بما شرع الله، ونمدحه بما مدحه الله به، ونقتصر على هذا، وكذلك الأولياء والصالحين نحبهم ونقدرهم ونقتدي بهم، ولكن لا نغلو فيهم وندعوهم من دون الله ﷻ، ونجعلهم شركاء لله في العبادة.

قوله: (فليس المراد إلا التنبيه والتحذير): فالمراد من هذا هو التذكير والتحذير والهداية بيد الله ﷻ، ولكن لو ذكرنا وحذّرنا لخف هذا، وزال عن الناس الجهل والغشاوة والتقليد الأعمى، وأما من عاند بعد البيان فهذا أمره إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات] أمر الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَذَكِّرْ﴾؛ أي: فذكر الناس، ثم علل ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّ

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران].

واعلم أن ما حررنا وقررنا من أن كثيرًا مما يفعله المعتقدون في الأموات يكون شركًا قد يخفى على كثير من أهل العلم،

الشَّرْح

ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلا نقول: إن الذكرى لا تنفع مثلما يقوله البعض: اتركوا الناس على ما هم عليه، فهذا شيء تعودوا عليه، والله ﷻ قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ ما الذي حول الأمة من الجاهلية إلى أمة مسلمة مجاهدة في سبيل الله؟ لم يحولها إلا تذكير الرسول ﷺ ودعوته لهم؛ حتى أسلموا وحسن إسلامهم وجاهدوا في سبيل الله ﷻ، ما الذي حول الأمة من أمة جاهلة أُمية إلى علماء فطاحل سادوا العالم بعلمهم، إلا التعليم النافع، فنحن لا نيأس أبدًا، قال ﷺ: «**فَوَ اللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ**»(١)، وكم حصل بدعوة المصلحين من الخير والهداية، ولو أنهم سكتوا مثل غيرهم لاستشرى الشرك في الأرض، ولهلكت الأمة، ولكن بدعوة هؤلاء الصالحين أنقذ الله من أراد الله هدايته.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾: الزائغ بعد الهداية لا يمكن رده إلى الحق؛ لأنه يفسد قلبه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فنحن علينا أن نُذكر والهداية بيد الله.

قوله: (**قد يخفى على كثير من أهل العلم**)، يخفى على كثير من أهل العلم فكيف بالعوام، والرسول ﷺ قال لمعاذ رضي الله عنه: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ**»(٢)، وهم أهل كتاب: علماء،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢). (٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨).

وذلك لا لكونه خفيًا في نفسه، بل لإطباق الجمهور على هذا الأمر، وكونه قد شاب عليه الكبير، وشب عليه الصغير، وهو يرى ذلك ويسمعه، ....

الشَّرح

وأمره أن يدعوهم، يدعو العلماء؟ نعم، يدعو العلماء، فكيف بالجهال الذين ليس عندهم علم؟.

قوله: (وذلك لا لكونه خفيًّا في نفسه، بل لإطباق الجمهور على هذا الأمر)؛ وذلك أنه إذا ترك الشر، ولم ينكر ولم يُعلّم الجهال صار هو الدين، صار الدين ما عليه الناس، ومن يتكلم ينكر عليه، يُقال: أنت خارجي!، أنت كذا وكذا، ويصفونه بالأوصاف المنفرة، ولكن هذا لا يضر، فالذي يُخلص النية ويدعو إلى الله على بصيرة لا يضره كلام الناس فيه، فيمضي في طريقه ويحتسب الأجر، ويصبر على ما يناله من الناس، فكثير من العلماء لم يقوموا بما أوجب الله عليهم؛ ولذلك فشا الجهل في الناس، وفي الأمة بسب سكوت هؤلاء، على أن من العلماء من يجهل العقيدة الصحيحة، نعم، قد يتعلم الفقه، والنحو، ويتعلم الأصول، ويتبحر في المعلومات، ولكن التوحيد لا يهتم به، ولا يعرف نواقض الإسلام، ولا يعرف أنواع الشرك؛ لأنه لم يهتم به، ويأخذ عقيدة كعقيدة الأشاعرة، أو عقيدة المتكلمين، أو العقائد التي لا تهتم إلا بتوحيد الربوبية، ولا تذكر توحيد الألوهية أبدًا، وإنما يقولون: إن التوحيد هو الإقرار بأن الله هو الخالق، الرازق، المدبر، المحي، المميت.. إلى آخره، ويقررون هذا، هذا هو الذي أهلك الأمة، وضيع الدين.

قوله: (وكونه قد شاب عليه الكبير، وشب عليه الصغير، وهو يرى ذلك ويسمعه)، فيعود المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، حتى إذا أُنكرت البدعة وغيرت، قيل: غيرت السُّنَّة؛ لأنهم نشؤوا على هذا وتربوا عليه ونشؤوا عليه وتوارثوه، ولا أحد ينكر ولا أحد يدعو إلى الله، والبيئة التي يعيش فيها الإنسان تؤثر.

ولا يرى ولا يسمع من ينكره، بل ربما يسمع من يُرغِّب فيه، ويندب الناس إليه.

وينضم إلى ذلك ما يظهره الشيطان للناس من قضاء حوائج من قصد بعض الأموات الذين لهم شهرة، وللعامة فيهم اعتقاد، وربما يقف جماعة من المحتالين على قبر، ويجلبون الناس

الشَّرْح

قوله: (بل ربما يسمع من يُرغِّب فيه)، وهم دعاة الضلال فإنهم يرغبون في الشرك، وعبادة الصالحين، ويدعون إلى ذلك، ويؤلفون في هذا مؤلفات.

قوله: (وينضم إلى ذلك ما يظهره الشيطان للناس...)، من الشُّبه التي يُدلي بها القبوريون في تبرير ما هم عليه من دعاء الصالحين والاستغاثة بالأموات، أنهم يقولون: إنه يحصل لنا مقصدنا، وتُقضى حوائجنا، ويحصل لنا ما طلبنا، فهذا دليل على جواز ذلك، ويُردّ على هذا بأمور:

أولًا: أن الدليل هو ما جاء في الكتاب والسنة؛ لا سيما في أمور الاعتقاد.

ثانيًا: أن حصول المقصود لا يدل على الجواز، فقد يحصل هذا بسبب أحد أمور: إما أنه صادف قضاءً وقدرًا، فحصل هذا بالقضاء والقدر، لا من أجل الالتجاء إلى الأموات وإلى الأضرحة، ولكن لأن الله قدر هذا، وحتى ولو لم تذهب إلى القبور، فما دام الله قدره لك فسيحدث.

ثالثًا: يُقال: قد يحصل هذا استدراجًا لمن يفعل ذلك، فهو من باب الاستدراج والإمهال، ليزداد هذا من الإثم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]، فالقبوريون نسوا ما ذُكروا به، فالله ﷻ استدرجهم ليزدادوا إثمًا، من باب الابتلاء والامتحان.

بأكاذيب يحكونها عن ذلك الميت، ليستجلبوا منهم النذور، ويستدروا منهم ....

الشَّرح

رابعًا: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن الشياطين تتمثل بصور الأموات، وتأتي إلى الأضرحة وتخاطب هؤلاء بلسان الميت وصورته، وتقول: نقضي لك حاجتك، فتحضر له حوائجه، ولو بالسرقة من أموال ناس، فالشياطين من الجن يسرقون من أموال الناس، ويعطونها لهم من باب التغرير بهم، وهذا مجرب، أنهم يسمعون أصواتًا في الضريح بأني قد أجبتكم، قد قضيت حوائجكم، فيظنون أن هذا المتكلم هو الميت؛ وهو الشيطان من أجل أن يضلهم، كما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كثير من كتبه، وقال إنه شاهد شيئًا من ذلك[1]، فلا يغتر بهذه الأمور، وكما ذكرنا أولًا أن الدليل هو ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع لا سيما في أمور العقيدة، فكل ما خالف الكتاب والسُّنَّة فهو ضلال، واستدراج، ومن الشياطين التي تغر الناس، فلا يحتج بحصول المقصود مع مخالفة الدليل من الكتاب والسنة، اللذين يحرمان الاستغاثة بالأموات، ودعاء الأموات والغائبين.

قوله: (ليستجلبوا منهم النذور)، السدنة على القبور ومن وراءهم ممن ينتفعون من هذه الدخول التي تأتي من المزارات الشركية، يكتبون كتابات ونشرات يوزعونها على الزائرين، فيها أكاذيب من أن هذا الميت فعل كذا وكذا... إلى آخره، فيوزعونها على المساكين، والمساكين محتاجون يريدون قضاء حوائجهم بأي وسيلة، فيصدقونهم، وأنه يجب عليك أن تدفع كذا وكذا إن كنت تريد قضاء حوائجك، فيحصلوا على هذه الموارد ويقتسمونها، وربما أن بعض الدول تحميهم أيضًا، لتأخذ من هذا المورد.

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٧٤).

الأرزاق، ويقتنصوا النحائر، ويستخرجوا من عوام الناس ما يعود عليهم، وعلى من يعولونه ويجعلون ذلك مكسبًا ومعاشًا.

وربما يهولون على الزائر لذلك الميت بتهويلات، ويجمّلون قبره بما يعظم في عين الواصلين إليه، ويوقدون في المشهد الشموع، ويوقدون فيه الطيب، ويجعلون لزيارته مواسم مخصوصة يتجمع فيها الجمع الجم، فيبهر الزائر ويرى ما يملأ عينه وسمعه من ضجيج الخلق، وازدحامهم وتكالبهم على القرب من الميت، والتمسح

الشَّرْح

قوله: (ويجعلون ذلك مكسبًا ومعاشًا)؛ أي: حرفتهم أنهم يعيشون على الأضرحة، ويغررون بالمساكين بالقول وبالكتابة، فيكتبون كتبًا ونشرات، ويتكلمون ويخطبون عند القبر وأنه يفعل كذا وكذا، فالمسكين يصدقهم في هذا ويبذل ماله، ليحصل على حاجته.

قوله: (ويجمِّلون قبره بما يعظم في عين الواصلين إليه)؛ أي: ربما يجمّلون القبر بالزخارف، والستائر والبخور والمصابيح الكهربائية؛ ليتأثر الزائر من هذا الضريح الذي عليه هذه الأمور، وهذه الزخرفات، وهذه البنايات، فيأخذه الإعجاب بهذا المظهر، فيقول: ما عُمل معه كذا إلا لأن له شأنًا، فيغتر بهذا، وهذا واقع الأضرحة؛ يُجملونها ويزينوها ويزخرفونها ويعملون لها تهاويل تُغرر بالعوام والجهلة.

قوله: (ويوقدون فيه الطيب) من أفخر أنواع البخور.

قوله: (ويجعلون لزيارته مواسم مخصوصة)؛ أي: ويجعلون له مواعيد، أنت تأتي يوم كذا، وأنت يوم كذا، وهذا من باب الترغيب، وأن هذا الشيء لا يُنال إلا بترتيب.

قوله: (وازدحامهم وتكالبهم على القرب من الميت) فيغتر بشيئين:

بأحجار قبره وأعواده، والاستغاثة به، والالتجاء إليه، وسؤاله قضاء الحاجات ونجاح الطلبات، مع خضوعهم واستكانتهم، وتقريبهم إليه نفائس الأموال ونحرهم أصناف النحائر.

فبمجموع هذه الأمور مع تطاول الأزمنة، وانقراض القرن بعد القرن يظن الإنسان مبادئ عمره وأوائل أيامه أن ذلك من أعظم القربات، وأفضل الطاعات، ثم لا ينفعه ما تعلمه من العلم بعد ذلك؛ بل يذهل عن كل حجة شرعية تدل على أن هذا هو الشرك بعينه،

الشَّرْح

الأول: بكثرة الزائرين وضجيجهم، **الثاني**: بما يرى من الزخرفات والزينة، والأشياء الهائلة.

ولذلك نهى النبي ﷺ عن البناء على القبور، ولعن من فعله، وأخبر أنه فعل اليهود والنصارى، وكرّر هذا في آخر لحظة من حياته ﷺ إشفاقًا على الأمة، أن تفعل ما يفعله اليهود والنصارى من التزيين والتصاوير والأشياء التي تغر الناظر إليها، فالرسول حذّر من هذا وشدد فيه، ولعن من فعله وكرر هذا، نصيحة للأمة.

قوله: (فبمجموع هذه الأمور مع تطاول الأزمنة...) إذا تطاول الزمان على هذا الضريح وزارته الأجيال، فهم يستدلون بهذا على أن هذا مشروع، وأن عليه الناس جيلًا بعد جيل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]، فليس هناك شك أن تطاول الزمن على الباطل يروجه، ومن هنا يجب على ولاة الأمور أن يحسموا هذا الأمر، وأن لا يتركوه ويتساهلوا في شأنه، فعليهم أن يبادروا بإزالته قبل أن يستمر ويغر الأجيال اللاحقة.

قوله: (ثم لا ينفعه ما تعلمه من العلم بعد ذلك بل يذهل عن كل حجة شرعية تدل على أن هذا هو الشرك بعينه)، إذا تأصلت الشبهة في القلب،

وإذا سمع من يقول ذلك أنكره، ونبا عنه سمعه، وضاق به ذرعه.

لأنه يبعد كل البعد أن ينقل ذهنه دفعة واحدة في وقت واحد عن شيء يعتقده من أعظم الطاعات إلى كونه من أقبح المقبحات، وأكبر المحرمات، مع كونه قد درج عليه الأسلاف، ودب فيه

الشَّرْح

وتمكنت صعب اجتثاثها، ولو تعلّم الإنسان ولو صار ما صار في المرتبة العلمية، لا ينفعه هذا، ولذلك يقولون: فلان دكتور، فلان ذو مرتبة عالية في التعلم وفي التعليم، وهو يزاول هذه الأمور ويدعو إليها؛ فهذا الذي ضلل الناس، لا سيما وأن هٰؤلاء ـ أي: علماء الضلال ـ يُدرسون الناس في المساجد، ويُدرسون في الجامعات وهم أهل ضلال وعقائد باطلة، فهذا مما يغر الناس؛ فيجب أن يبعد هؤلاء عن التدريس في المساجد والمدارس ويُجعل بدلهم مدرسون صالحون في دينهم وعقيدتهم.

قوله: (وإذا سمع من يقول ذلك أنكره ونبا عنه سمعه، وضاق به ذرعه)، إذا سمع من يحذر من هذا، فإنه لا يلتفت إليه؛ لأن الله أضله، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، فالإنسان إذا زاغ وتمكن الضلال من قلبه فلا حيلة فيه، فهذا مما يوجب على ولاة أمور المسلمين أن يمنعوا هذه الأمور، وأن يبادروا في حسمها: بالقول وبالفعل، بالقول هذا على كل عالم، وبالفعل على من كان له سلطة.

قوله: (لأنه يبعد كل البعد أن ينقل ذهنه دفعة واحدة في وقت واحد عن شيء يعتقده...)، يعني: أن انتقال الذهن الذي غرق في هذه الشبهات صعب، وقليل من يرجع عن هذا الضلال إلى الحق؛ إنما يرجع منهم أفراد والكثرة لا ترجع، ومن العلماء من يقول: أنا لست ملزم بشأن الناس، وهذا ليس بصحيح، ويخلد إلى الأرض، ويترك الدعوة والبيان ويكتم ما آتاه الله من العلم.

ومنهم من يوافق على ما عليه الناس، ويقول: هو صحيح، والذين ينكرونه خوارج، متشددة، غلاة!... إلى آخر ما يقولون، كما تسمعون

الأخلاف، وتعاودته العصور، وتناوبته الدهور، وهكذا كل شيء يقلد الناس فيه أسلافهم، ويُحكِّمون العادات المستمرة.

وبهذه الذريعة الشيطانية، والوسيلة الطاغوتية بقي المشرك من الجاهلية على شركه، واليهودي على يهوديته، والنصراني على نصرانيته، والمبتدع على بدعته، وصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وتبدلت الأمة بكثير من المسائل الشرعية غيرها، وألِفوا

الشَّرح

وتقرؤون الآن، ويقول: **(تعاودته العصور، وتناوبته الدهور)** وهذا مما يؤكد أن العالم لا يتساهل في الأمر وأنه يجب الحسم، وإزالة المنكر ولا يترك ويتهاون معه؛ لأن ذلك يُمكّنه، ويُغر الناس به، فيجب على ولاة أمور المسلمين وعلماء المسلمين أن يتضافروا في إزالة هذا الأمر.

قوله: (وهكذا كل شيء يقلد الناس فيه أسلافهم) وهذا كما ذكره الله ﷻ في القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة]، بما أن آباءهم عليه؛ فلن يتركوه ولن يستجيبوا لغيره.

قوله: (وبهذه الذريعة الشيطانية، والوسيلة الطاغوتية)؛ يعني: الإهمال في إزالة هذه المنكرات، والتهاون بها، بقي الكفار على كفرهم؛ لأنه ليس هناك دعوة إلى الله، وبقي **(اليهودي على يهوديته)**، ليس هناك مسلم يدعوه إلى الحق، وبقي **(النصراني على نصرانيته)** وتثليثه، لعدم وجود الدعوة الصحيحة إلى الله ﷿، وبقي المشرك على شركه لم يتحول عنه، وهكذا.

قوله: (وصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا) كما أخبر النبي ﷺ؛ فإذا لم ينكر المنكر ويُزال صار معروفًا، وإذا لم تنشر السنة وتُبين للناس صارت هي المنكر، يعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سُنَّة، والسُّنَّة بدعة، بحيث إذا غُيرت البدعة يُقال: غيرت السنة! كما ورد في

ذلك، ومرنت عليه نفوسهم، وقبلته قلوبهم، وأنِسوا إليه، حتى لو أراد من يتصدى للإرشاد أن يحملهم على المسائل الشرعية البيضاء النقية التي تبدلوا بها غيرها لنفروا عن ذلك، ولم تقبله طبائعهم، ونالوا ذلك المرشد بكل مكروه، ومزقوا عرضه بكل لسان، وهذا كثير موجود في كل فرقة من الفرق لا ينكره إلا من هو منهم في غفلة.

الشَّرح

الحديث، لأنهم ألفوها وعاشوها وتوارثوها فاندرجت، وصعب مقاومتها بعد ذلك، فإذا تعطلت الدعوة إلى الله، وتعطل الجهاد في سبيل الله، اندرس الإسلام وانتشر الكفر والشرك بالله عَجَّلَ.

قوله: (لنفروا عن ذلك، ولم تقبله طبائعهم)؛ أي: ينفر أهل الباطل عن قبول الحق، وهذا أمر واضح، وهو نتيجة الإهمال، ورقاد أهل الحق وغفلتهم، وتمكن أهل الضلال، وهذا مما سبّب الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم من الجهل والضلال، وبقاء أهل الشرك وأهل الكفر وأهل البدع على حالهم، ليس هناك أحد يغيرها، ليس هناك أحد ينكرها، ليس هناك أحد يبينها، والآن هناك من يقول: إن العمل بالقرآن كان في وقت نزوله، ولا يصلح لهذا الزمان، ولا ينطبق على هذا الزمان. فهناك من يقول هذا ويكتبه الآن، ويقول: تحكيم الشريعة لا يصلح لهذا الزمان!، لا يصلح إلا القانون الوضعي!، وهكذا يقولون، تمكن دعاة الضلال الآن، وانجفل دعاة الحق، فصار من يدعو إلى الحق غريبًا بين الناس.

قوله: (وهذا كثير موجود في كل فرقة من الفرق لا ينكره إلا من هو منهم في غفلة) فتطاولت الألسنة والأقلام والمقالات على دعاة الحق، وصار دعاة الحق هم المجرمون، ودعاة الباطل هم أهل الصواب وأهل الإصلاح، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة].

وانظر إن كنت ممن يعتبر ما ابتليت به هذه الأمة من التقليدات للأموات في دين الله، حتى صارت كل طائفة تعمل في جميع مسائل الدين بقول عالم من علماء المسلمين، ....

الشَّرْح

ظهر التعصب للأقوال بدون معرفة دليلها، فيكفي أنه قاله فلان فقط، وبما أنه قاله فلان يكفي ولا ينظر إلى دليله!، ما دليل فلان على كذا؟، وبما أنه قاله فلان فنحن على قوله وعلى مذهبه، حيث يطابق هواهم، أما إذا لم يطابق هواهم ضربوا به عرض الحائط ولو أنه مقتضى الدليل، ولكن الذي يوافق هواهم ورغبتهم هو الحق عندهم.

والأخذ بقول العالم الذي على دليل حق، والحق يُقبل ممن جاء به، نحن لا نعيب على أخذ أقوال العلماء مطلقًا، نقول: ما كان منها عليه دليل فعلى الرأس والعين، وما ليس عليه دليل فلا نقبله؛ ولهذا يقول الإمام أبو حنيفة ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وهو أقدم الأئمة الأربعة: «إذا جاء الحديث عن رسول الله فعلى الرأس والعين، وإذا جاء الحديث عن صحابة رسول الله فعلى الرأس والعين، وإذا جاء الحديث عن التابعين فنحن رجال وهم رجال»؛ لأنه عاصر التابعين، فيؤخذ بقولهم إذا وافق الدليل، ويترك ما خالف الدليل، فهذه كلمة حق، والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «كلنا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر» يعني: رسول الله ﷺ، والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «إذا خالف قولي قول رسول الله فاضربوا بقولي عرض الحائط وخذوا بقول رسول الله ﷺ»، ويقول: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، والإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور]»، فلا اعتبار لما خالف قول الرسول ﷺ، ولو كان قائله من أكبر العلماء، فهو معذور ومأجور على اجتهاده، وهو لا يرضى أن نقلده، بل يأمرنا أن نأخذ بالدليل.

ولا تقبل قول غيره، ولا ترضى به، وليتها وقفت عند عدم القبول والرضا، لكنها تجاوزت ذلك إلى الحط على سائر علماء المسلمين، والوضع من شأنهم، وتضليلهم، وتبديعهم، والتنفير عنهم.

ثم تجاوزوا ذلك إلى التفسيق والتكفير، ....

الشَّرح

والذين يقولون: ما نقبل إلا قول فلان، يشبه اليهود ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أنزل على محمد، يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: على نبينا؛ نقول لهم: وما أنزل على نبيكم العمل به حق في وقته، ولكن نسخ، وجاءت شريعة محمد ﷺ المرسل إلى الناس كافة؛ فالعمل بالناسخ لا بالمنسوخ، ولكن لما كان قصدهم الهوى صاروا: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ ثم رد الله عليهم فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، فهم يقولون: نحن نتبع أنبياءنا ومع هذا يقتلونهم؛ كما قتلوا زكريا وابنه يحيى وهموا بقتل المسيح ومنعه الله منهم ورفعه إليه وهموا بقتل محمد، ولذلك يسمون اليهود بقتلة الأنبياء، ومع هذا يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

قوله: (لكنها تجاوزت ذلك إلى الحط على سائر علماء المسلمين، والوضع من شأنهم، وتضليلهم، وتبديعهم، والتنفير عنهم)، فهم جمعوا بين جريمتين:

الأولى: جريمة مخالفة الحق.

الثانية: جريمة النيل من علماء المسلمين، فهم ينالون منهم، ويحطون من قدرهم، بسبب التعصب لعلمائهم.

قوله: (ثم تجاوزوا ذلك إلى التفسيق والتكفير)؛ أي: تجاوزوا الحط من

ثم زاد الشر حتى صار أهل كل مذهب كأهل ملة مستقلة، لهم نبي مستقل، وهو ذلك العالم الذي قلدوه، فليس الشرع إلا ما قال به دون غيره، وبالغوا وغلوا فجعلوا قوله مقدمًا على قول الله ورسوله. وهل بعد هذه الفتنة والمحنة شيء من الفتن والمحن!.

فإن أنكرت هذا فهؤلاء المقلدون على ظهر البسيطة قد ملؤوا

الشَّرح

قدر العلماء المخالفين لأهوائهم، إلى التفسيق والتبديع لهم.

قوله: (ثم زاد الشر حتى صار أهل كل مذهب كأهل ملة مستقلة)، هذا كله من التعصب، فالإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينهى عن التعصب، أما أننا نأخذ من أقوال العلماء ما وافق الدليل فهذا محمود، واحترام العلماء ولو أخطؤوا في الاجتهاد واجب، فلا نتنقصهم فالعالم يجتهد وقد يخطئ وقد يصيب، فإن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران، ولا يُعاب عليه في ذلك، ولكن لا نتّبعه على الخطأ؛ ولذلك الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب وعلماء هذه البلاد من بعده مع أنهم حنابلة لا يقتصرون على مذهب الإمام أحمد مطلقًا، وإنما إذا تبين لهم الدليل على قول في المذاهب الأربعة أخذوا به، ولو كان يخالف رأي إمامهم؛ لأن العبرة بالدليل، هذا منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ومن جاء من بعده من علماء هذه البلاد، أنهم لا يتعصبون للإمام أحمد، فإذا وجدوا قولًا من المذاهب الأخرى عليه دليل واضح أخذوا به، ولا ينقص هذا من قدر إمامهم، بل إمامهم يحث على اتباع الدليل وينهى عن تقليده فيما يخالف الدليل.

قوله: (وبالغوا وغلوا فجعلوا قوله مقدمًا على قول الله ورسوله) وهذه نتيجة الغلو في اتباع من يقلدونه.

قوله: (فإن أنكرت هذا فهؤلاء المقلدون...)؛ أي: أنكرت ما قلته من

الأقطار الإسلامية، فاعمد إلى أهل كل مذهب، وانظر إلى مسألة من مسائل مذهبهم هي مخالفة لكتاب الله، أو لسُنَّة رسول الله ﷺ، ثم أرشدهم إلى الرجوع عنها إلى ما قاله الله أو رسوله، وانظر بما يجيبونك، فما أظنك تنجو من شرهم، ولا تأمن من مضرتهم، وقد يستحلون لذلك دمك ومالك، وأورعهم يستحل عرضك وعقوبتك، وهذا يكفيك إن كان لك فطانة سليمة، وفكرة مستقيمة.

فانظر كيف خصوا بعض علماء المسلمين، واقتدوا بهم في مسائل الدين، ورفضوا الباقين، ....

الشَّرْح

الغلو في التعصب فانظر ما يحصل من المقلدة دون رجوع إلى الأدلة، ولكن هذا الكلام ليس لكل أحد، فالعامي لا يعرف الدليل فيأخذ بقول من أفتى ممن يثق بعلمه ودينه، فيسأل من يثق بعلمه ودينه ويأخذ بقوله؛ لأنه لا يستطيع أكثر من هذا، أما العالم الذي لديه إمكانية في معرفة الأدلة ومعرفة الراجح من المرجوح، فلا يسعه أن يخلد إلى الأرض، وأن يأخذ بالقول بدون تمحيص، وبدون معرفة دليله.

وأهل السُّنَّة لا يدّعون العصمة لأئمتهم، بل هذا عند الشيعة، فالشيعة هم الذين يدّعون العصمة لأئمتهم، أما أهل السنة فلا يدّعون العصمة لأئمتهم، ولكنهم لا يحطّون من قدرهم، ولا يتهكمون بهم، بل يُجلّونهم ويحترمونهم، ولكن الحق أغلى عليهم من كل شيء، والإمام الشوكاني يقول بهذا؛ يقول: خذوا بالدليل، خذوا بقال الله وقال رسوله.

قوله: (فانظر كيف خصوا بعض علماء المسلمين، واقتدوا بهم في مسائل الدين...)، الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالغ في ذم التقليد، والأئمة الأربعة علماء حق، ليس هناك شك، فهم علماء أهل السنة، فلا يحط من قدرهم ولا من علمهم، وإنما

بل جاوزوا هذا إلى أن الإجماع ينعقد بأربعة من علماء هذه الأمة، وأن الحجة قائمة بهم، مع أن في عصر كل واحد منهم من هو أكثر علمًا منه، فضلًا عن العصر المتقدم على عصره، والعصر المتأخر عن عصره، وهذا يعرفه كل من يعرف أحوال الناس، ثم تجاوزوا في ذلك إلى أنه لا اجتهاد لغيرهم، بل هو مقصور عليهم، فكأن هذه الشريعة كانت لهم ولا حظ لغيرهم فيها، ولم يتفضل الله على عباده بما تفضل عليهم.

الشَّرح

يحط من قدر التعصب وتنقص الآخرين من العلماء، هذا الذي يُنهى عنه، أما أنه يقول: إن الدين لا يحصر في الأربعة مذاهب، فهو لا يحصر، ولكن لما تقاصرت الهمم وقل العلماء انحصر الناس على تقليد أربعة مذاهب: الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي، وهذا أضمن من الضياع، فكونهم يرجعون إلى هذه المذاهب السنية مع سبرها ومعرفة أدلتها، هذا أفضل لهم من الضياع؛ فلا يُذم هذا مطلقًا.

وقوله: (بل جاوزوا هذا إلى أن الإجماع ينعقد بأربعة من علماء هذه الأمة) هذا ما قاله أحد، لكن يُقال: اتفق الأئمة الأربعة على كذا، ولا يُقال: أجمع الأئمة على كذا.

قوله: (مع أن في عصر كل واحد منهم من هو أكثر علمًا منه) هذا لمن عنده اطلاع على أقوال العلماء وإحاطة بها، أنه لا يقتصر على أقوال الأئمة الأربعة، ولكن من ليس عنده اطلاع ولا إحاطة فكونه يكون داخل الأئمة الأربعة أحسن من أن يضيع؛ لأنه ليس لديه إمكانية يتمكن بها، فلا غنى له عن الانضمام لأحد المذاهب الأربعة، ولكن من غير تعصب.

قوله: (ثم تجاوزوا في ذلك إلى أنه لا اجتهاد لغيرهم، بل هو مقصور عليهم)، هذا لم يقل به أحد يعتد به أن الاجتهاد مقصور على الأئمة الأربعة، لم يقل بهذا أحد، وإن قدر أن أحدًا قاله فلا اعتبار بقوله، ولا يُحمّل العلماء كلهم هذا القول.

وكل عاقل يعلم أن هذه المزايا التي جعلوها لهؤلاء الأئمة ـ رحمهم الله تعالى ـ إن كانت باعتبار كثرة علمهم وزيادته على علم غيرهم، فهذا مدفوع عند كل من له اطلاع على أحوالهم وأحوال غيرهم؛ فإن في أتباع كل واحد منهم من هو أعلم منه، لا ينكر هذا إلا مكابر أو جاهل، فكيف بمن لم يكن من أتباعهم من المعاصرين لهم، والمتقدمين عليهم والمتأخرين عنهم.

وإن كانت تلك المزايا بكثرة الورع والعبادة، فالأمر كما تقدم، فإن في معاصريهم والمتقدمين عليهم والمتأخرين عنهم من هو أكثر عبادةً وورعًا منهم، لا ينكر هذا الأمر إلا من لم يعرف تراجم الناس في كتب التواريخ.

الشَّرح

قوله: (وإن كانت تلك المزايا بكثرة الورع والعبادة...)، الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يخاطب العلماء بهذا الكلام، لا يخاطب به كل أحد، فليس كل أحد حر طليق يذهب إلى حيث شاء وهو جاهل، لا يقصد المؤلف هذا أبدًا، بل يقصد العلماء المتمكنين الذين عندهم تمكن من معرفة الحق بدليله، فلا يقتصر على الأئمة الأربعة، أما الإنسان العاجز، فلا بد له من التقليد، ولكن التقليد المنضبط الذي ليس فيه تعصب.

قوله: (فإن في معاصريهم والمتقدمين عليهم، والمتأخرين عنهم من هو أكثر عبادة وورعًا منهم)، هذا لا يشك فيه أحد، ولكن ليس معنى هذا التزهيد في المذاهب الأربعة.

قوله: (لا ينكر هذا الأمر إلا من لم يعرف تراجم الناس في كتب التواريخ)، لكن أين هم الذين يتحدث عنهم الشيخ؟ إنهم في المقابر.

قوله: (وإن كانت تلك المزايا بكثرة الورع والعبادة، فالأمر كما تقدم...)، الأحوال تتغير وتتبدل، والله جل وعلا يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

وإن كانت تلك المزايا بتقدم عصورهم، فالصحابة، والتابعون أقدم منهم عصرًا بلا خلاف، وهم أحق بهذه المزايا ممن بعدهم لحديث: «**خَيْرُ القرون قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[١].

وإن كانت تلك المزايا لأمر عقلي فما هو؟ أو لأمر شرعي فأين هو؟.

ولا ننكر أن الله ـ سبحانه ـ قد جعلهم بمحل من العلم والورع، وصلابة الدين، وأنهم من أهل السبق في الفضائل والفواضل، ولكن الشأن في المتعصب لهم من أتباعهم القائلين: إنّه لا يجوز تقليد غيرهم، ولا يعتد بخلافه إن خالف، ولا يجوز لأحد من علماء المسلمين أن يخرج عن تقليدهم وإن كان عارفًا بكتاب الله، وسُنَّة رسوله، قادرًا على العمل بما فيهما، متمكنًا من استخراج المسائل الشرعية منهما، فلم يكن مقصودنا إلا التعجب لمن كان له عقل صحيح، وفكر

الشَّرْح

[التغابن: ١٦]، فالتقليد ليس ممنوعًا مطلقًا ولا جائزًا مطلقًا، فالإنصاف والعدل في هذا مطلوب، لكن لا تخاطب ناسًا جهالًا، وتقول لهم: اخرجوا عن المذاهب الأربعة ولا تتقيدوا بها.

قوله: (ولكن الشأن في المتعصب لهم من أتباعهم، القائلين: إنّه لا يجوز تقليد غيرهم، ولا يعتد بخلافه إن خالف، ولا يجوز لأحد من علماء المسلمين أن يخرج عن تقليدهم وإن كان عارفًا بكتاب الله، وسُنَّة رسوله) هذا لم يقل به أحد من أهل العلم.

قوله: (فلم يكن مقصودنا إلا التعجب لمن كان له عقل صحيح، وفكر

---

(١) انظر صحيح البخاري (٢٦٥٢).

رجيح، ويهون الأمر عليه فيما نحن بصدده من الكلام على ما يفعله المعتقدون للأموات، ....

الشَّرْح

رجيح) بيَّن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن المراد من كلامه السابق في ذم التقليد ليس على إطلاقه، فالتقليد فيه تفصيل:

أولًا: التقليد في العقائد لا يجوز مطلقًا؛ لأنها توقيفية، لا بد أن المسلم يعتقد ما دل عليه الكتاب والسنة، وما في كتب عقائد السلف الصالح؛ المدون ولله الحمد في الرسائل والكتب، فهذا محرر ومضبوط فليس فيه خفاء.

ثانيًا: التقليد في أمور الفقه والاجتهاد الفقهي؛ فهذا فيه تفصيل:

١ ـ من عنده الاستطاعة على الاجتهاد المطلق وهذا لا يكاد يوجد؛ فهذا لا يجوز له أن يقلد.

٢ ـ أما الاجتهاد المذهبي بأن يكون العالم عنده إدراك للراجح والمرجوح من أقوال المذهب حسب الأدلة، فهذا يسمى اجتهادًا مذهبيًّا، فيختار من مذهبه ما دل عليه الدليل من الكتاب والسُّنَّة ويترك ما ليس عليه دليل، وهذا ما عليه الأئمة المحققون من المتأخرين أنهم لا يقلدون تقليدًا أعمى، إنما يقلدون من معه الدليل.

٣ ـ والقسم الثالث: من ليس عنده أهلية مطلقًا، لا الاجتهاد المطلق، ولا الاجتهاد المذهبي، فهذا يجب عليه أن يقلد، بأن يسأل أهل العلم، قال الله جل وعلا: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فالله ما أمر بسؤال أهل الذكر إلا لتقليدهم لمن ليس عنده علم، لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بهذا القيد، فالذي لا يعلم يجب عليه أن يقلد أهل العلم، بأن يسألهم ويعمل بما يفتونه به.

قوله: (ويهون الأمر عليه فيما نحن بصدده من الكلام على ما يفعله المعتقدون للأموات)، ما يفعله المعتقدون في الأموات، هم غير معذورين فيه.

وأنه لا يغتر العاقل بالكثرة وطول المهلة مع الغفلة؛ فإن ذلك ولو كان دليلًا على الحق لكان ما زعمه المقلدون المذكورون حقًّا، ولكان ما يفعله المعتقدون للأموات حقًّا، وهذا عارض من القول أوردناه للتمثيل ولم يكن من مقصودنا.

والذي نحن بصدده هو أنه إذا خفي على بعض أهل العلم ما ذكرناه وقررناه في حكم المعتقدين للأموات لسبب من أسباب الخفاء

الشَّرح

قوله: (وأنه لا يغتر العاقل بالكثرة) نعم لا يغتر العاقل بالكثرة، فلا يقلد من يدعو الأموات ويستغيث بهم وإن كثروا، فلا يُغتر بهم، إنما يتبع من اتبع الدليل ولو كانوا قليلين، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام]، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فالكثرة لا يُغتر بها، وإنما يُتبع من سار على الدليل ولو كانوا قليلين.

ونحن لا نكفر الأمة، ولكن نكفِّر من كفَّره الله ورسوله، فدعا غير الله واستغاث بغير الله، وذبح لغير الله، وهذا في القرآن، وليس شيئًا من عندنا ولا اجتهادًا من عندنا، لا نكفر إلا من كفره الله ورسوله وذلك بالشرك الأكبر عند الأضرحة والقبور، وإن كانوا أكثر الناس، وإن قالوا: هذا توالت عليه الأجيال، نقول: مهما كان، لا نتبع من خالف الدليل وأشرك بالله، ما نتبعه ولو طالت المدة ولو كثر العدد ممن هم على غير دليل من الكتاب والسنة.

قوله: (فإن ذلك ولو كان دليلًا على الحق لكان ما زعمه المقلدون المذكورون حقًّا) لو كان اتباع هؤلاء عذرًا عند الله ما ذم الله الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]، هذا التقليد الأعمى الذي ذمه الله ورسوله.

التي قدمنا ذكرها، ولم يتعقل ما سقناه من الحجج البرهانية القرآنية والعقلية، فينبغي أن نسأله: ما هو الشرك؟ فإن قال: هو أن تتخذ مع الله إلٰهًا آخر كما كانت الجاهلية تتخذ الأصنام آلهةً مع الله سبحانه، قيل له: وماذا كانت الجاهلية تصنعه لهذه الأصنام التي

الشَّرْح

قوله: (فينبغي أن نسأله: ما هو الشرك؟)؛ يعني: إذا كان أحد من أهل العلم سلك هذا المسلك وهو التقليد في العقيدة وإن كانت على ضلال وإن كانت على خطأ، هذا هو المقصود مناقشته الآن؛ فالعلماء فيهم أهل ضلال، فلا يُغتر بهم؛ فلا يُتبع إلا من استقام في دينه وعلمه على الحق.

ومن خفي عليه الحق، فهذا ليس بحجة، ومنهم من لا يخفى عليه، لكن له مقصد، إما منصب، وإما حمية لما عليه آباؤه، مثل حمية أبي طالب لملة عبد المطلب، فكل هذه ليست أعذارًا عند الله ﷻ. ومنهم من له منصب ويقول: لو اتبعت الدليل وأردت من الناس تغيير ما هم عليه إلى الحق فاتني المنصب وعاداني الناس! فيؤثر العاجل على الآجل، مع أنه لو أحسن النية وقام بالحق لرزقه الله، قال تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]، وما رأينا أهل الحق ضاعوا ولله الحمد، بل رأيناهم في عز وفي كرامة وتقدير.

فالذي يقول: إن الذين يعبدون القبور ويستغيثون بالأموات. يقول إنهم مسلمون وإنهم على حق، أو يقول: إنهم أخطؤوا خطأ فقط وليسوا مشركين، وإن ذبحوا لغير الله، وإن نذروا لغير الله، وإن استغاثوا بالأموات، فليسوا مشركين.

نقول له: فسر لنا الشرك ما هو؟ فإن فسره تفسيرًا صحيحًا صار حجة عليه، وإن فسره تفسيرًا باطلًا ردته الأدلة.

قوله: (فإن قال: هو أن تتخذ مع الله إلهًا آخر كما كانت الجاهلية تتخذ الأصنام آلهة مع الله سبحانه) فهو اعترف أن عباد الأصنام مشركون، فنقول له:

اتخذوها حتى صاروا مشركين؟ فإن قال: كانوا يعظمونها ويقربون لها، ويستغيثون بها، وينادونها عند الحاجات، وينحرون لها النحائر، ونحو ذلك من الأفعال الداخلة في مسمى العبادة، فقل له: لأي شيء كانوا يفعلون لها ذلك؟ فإن قال: لكونها الخالقة، الرازقة، أو المحيية، أو المميتة، فاقرأ عليه ما قدمنا لك من البراهين القرآنية المصرحة بأنهم مقرون بأن الله الخالق الرازق المحيي المميت، وأنهم إنما عبدوها لتقربهم إلى الله زلفى، وقالوا: هم شفعاؤهم عند الله، ولم يعبدوها لغير ذلك؛ فإنه سيوافقك ولا محالة إن كان يعتقد أن كلام الله حق.

وبعد أن يوافقك أوضح له أن المعتقدين في القبور قد فعلوا هذه الأفعال أو بعضها على الصفة التي قررناها وكررناها في هذه

الشَّرح

ماذا يصنعون لهذه الأصنام؟ فإن قال: يذبحون لهم، وينذرون لهم، ويستغيثون بهم. نقول: وكذلك عباد القبور: يذبحون لها وينذرون لها ويستغيثون بها، فلا فرق بينهم وبين المشركين.

وإذا قال المعترض: ما يفعله المشركون في الجاهلية مع الأصنام أنهم يعتقدون فيها الربوبية، يعتقدون أنها تخلق وترزق وتدبر. قلنا: القرآن يكذب هذا، فالله أخبر بأنهم يقرون بتوحيد الربوبية، وأنهم لا يعتقدون فيها أنها تخلق وترزق وتدبر، وإنما يعتقدون فيها أنها تقربهم إلى الله ﷻ، وأنها تشفع لهم عند الله، وهذا ما عليه القبوريون الآن، لا فرق.

قوله: (فإنه سيوافقك ولا محالة إن كان يعتقد أن كلام الله حق) إذا جئت له بالآيات فإن كان فيه إيمان ويصدق أن القرآن حق، فإنه سيوافقك اضطرارًا.

قوله: (أوضح له أن المعتقدين في القبور قد فعلوا هذه الأفعال أو بعضها)

الرسالة، فإنه إن بقي فيه بقية من إنصاف، وبارقة من علم، وحصة من عقل، فهو لا محالة يوافقك، وتنجلي عنه الغمرة، وتنقشع عن قلبه سحائب الغفلة، ويعترف بأنه كان في حجاب عن معنى التوحيد الذي جاءت به السنة والكتاب. فإن زاغ عن الحق وكابر وجادل، فإن جاءك في مكابرته ومجادلته بشيء من الشبه فادفعه بالدفع الذي قد ذكرناه فيما سبق، فإنا لم ندع شبهة يمكن أن يدعيها مدع إلا وقد أوضحنا أمرها، وإن لم يأت بشيء في جداله، بل اقتصر على مجرد الخصام والدفع المجرد لما أوردته عليه من الكلام، فاعدل معه عن حجة اللسان بالبرهان والقرآن إلى محجة السيف والسنان، فآخر

الشَّرْح

أنهم ما يعبدون القبور من أجل أنها تخلق وترزق وتدبر الأمر، إنما عبدوها لأنها تشفع لهم عند الله، ويقربونهم إلى الله زلفى، ويقولون: هؤلاء رجال صالحون لهم مكانة عند الله فيشفعوا لنا عنده ويقربونا إليه. هذا هو عين ما فعله المشركون الأولون.

قوله: (فهو لا محالة يوافقك، وتنجلي عنه الغمرة)؛ أي: إذا كان يريد الحق فسيوافقك وستنجلي عنه الشبهات، ويكون من أهل التوحيد الخالص؛ لأنك بينت له ذلك.

قوله: (ويعترف بأنه كان في حجاب عن معنى التوحيد الذي جاءت به السُّنَّة والكتاب)؛ أي: يعترف بأنه مخطئ وعلى غير الحق.

قوله: (فادفعه بالدفع الذي قد ذكرناه فيما سبق)؛ أي: فالسلاح معك من الأدلة والبراهين، وهو ليس معه غير الشبهات.

قوله: (فاعدل معه عن حجة اللسان بالبرهان والقرآن إلى محجة السيف والسنان) إذا لم يقبل بالحق وكابر فهذا ليس الحسم معه إلا أنه يقام عليه الحد

الدواء الكي. هذا إذا لم يكن دفعه بما هو دون ذلك من الضرب والحبس والتعزير؛ فإن أمكن وجب تقديم الأخف على الأغلظ؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]،

الشَّرْح

من قبل ولي الأمر، وإن كانوا جماعة ولهم شوكة فيقاتلهم ولي الأمر، فإن الله جعل السيف لمن عاند وكابر، والحجة لمن يقبل الحجة، أما من عاند وكابر فهذا ليس له إلا سيف الجهاد في سبيل الله كما جاهد الرسول ﷺ المشركين وقاتلهم لما أبوا قبول الحق، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فالحديد لمن أبى أن يقبل الحق وكابر بعد أن تبين له، ما له إلا الحديد وهو السيف، فإن كان فردًا أقيم عليه حد الردة، وإن كانوا جماعة ولهم شوكة فإن ولي الأمر يقاتلهم.

قوله: (فإن أمكن وجب تقديم الأخف على الأغلظ) فإذا أمكن إرجاعه إلى الحق بالتأديب والتعزير؛ فإنه يُعمل معه الأخف، وإن لم يرجع ويكف شره فلا بد من السيف بالجهاد في سبيل الله، كما فعل النبي ﷺ مع المشركين بعد أن بيَّن لهم ووضح لهم ودعاهم إلى الله فأصروا ولم يقبلوا؛ أمره الله بالجهاد.

قوله: (عملًا بقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾): قال الله لموسى وهارون عليهما السلام لما أرسلهما إلى فرعون وهو يدعي الربوبية: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طـه]، إذا كان فرعون وهو يدعي الربوبية يقال له القول اللين في دعوته فمن باب أولى غيره ممن يدّعي الإسلام أنه يؤتى بالتي هي أحسن، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإن أجدى فيه، وإلا فإنه يصار إلى الحسم بالسيف، وآخر الطب الكي كما قالوا، وفي قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾

وبقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

ومن جملة الشبه التي عرضت لبعض أهل العلم ما جزم به السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه لأبياته التي يقول في أولها:

رجعت عن النظم الذي قلت في النجدي ....

الشَّرْح

[طه: ٤٧]، فيه أنه لا بد من الاتصال بالولاة إذا أخطأوا، لقوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾ ما قال: قفوا في الشوارع أو في اجتماعات الناس وسبوا فرعون! لأن هذا إنما يزيد الأمر شرًّا؛ لكن قال: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾ مباشرةً، فهذا فيه دليل على توصيل النصيحة لولي الأمر سرًّا، وأما الكلام عليهم في المنابر والمجالس فهذا شر؛ يزيد الشر شرًّا.

قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]: وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت]، لأن الإنسان إذا جادلته قد يغضبك، والغضب من الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾.

قوله: **(ومن جملة الشبه التي عرضت لبعض أهل العلم ما جزم به السيد العلامة محمد بن إسماعيل...)**

القصيدة الأولى، يقول في مطلعها:

رجعت عن النظم الذي قلت في النجدي ... قد صح لي عنه خلاف الذي عندي
فقد جاءنا من أرضه الشيخ مربد ... فأبدى من أحواله ما يبدي

إلى آخر هذه القصيدة، فهل صدرت هذه القصيدة فعلًا عن الصنعاني؟ فالذي ذكره الشيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «تبرئة الشيخين الإمامين

فإنه قال: إن كفر هؤلاء المعتقدين للأموات هو من الكفر العملي، لا الكفر الجحودي، ونقل ما ورد في كفر تارك الصلاة، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، وكفر تارك الحج في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران]، وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم

الشَّرْح

عما افتراه أهل الكذب والمين»؛ يعني: محمد بن عبد الوهاب ومحمد الصنعاني، رد على هذه القصيدة المفترات على الصنعاني والكتاب مطبوع، والشيخ ابن سحمان يرى أنها مكذوبة عليه، والصنعاني عندنا له رسالة «تطهير الاعتقاد»، تكفي في بيان العقيدة.

قوله: (فإنه قال: إن كفر هؤلاء المعتقدين للأموات هو من الكفر العملي، لا الكفر الجحودي): لا يليق بالصنعاني أنه يقول: إن عبادة القبور من الكفر العملي، يعني الكفر الأصغر.

قوله: (ونقل ما ورد في كفر تارك الصلاة) يكفر عند الجميع لقوله ﷺ: «**الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»، فهو يكفر عند الجميع، ولكن هل هو كفر أكبر مخرج من الملة، أو كفر أصغر؟ قولان:

الأول: الجمهور على أنه كفر أصغر.

الثاني: قول المحققين على أنه الكفر الأكبر.

قوله: (وكفر تارك الحج) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] هل هو الكفر الأكبر، يعني من ترك الحج يكفر الكفر الأكبر؛ أو هو الكفر الأصغر؟؛ والتحقيق أنه إن ترك الحج جاحدًا لوجوبه فهو من الكفر الأكبر، وإن لم يجحد وجوبه فهو من الكفر الأصغر.

قوله: (وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة]، ونحو ذلك من الأدلة الواردة فيمن زنى، ومن سرق، ومن أتى امرأة حائضًا، أو امرأة في دبرها، أو أتى كاهنًا، أو عرَّافًا، أو قال لأخيه: يا كافر.

قال: فهذه الأنواع من الكفر، وإن أطلقها الشارع على فعل هذه الكبائر، فإنه لا يخرج به العبد عن الإيمان، ويفارق به الملة، ويباح به دمه وماله وأهله؛ كما ظنه من لم يفرق بين الكفرين، ولم يميز بين الأمرين، وذكر ما عقده البخاري في «صحيحه» من «كتاب الإيمان»:

الشَّرْح

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة])، هذا كفر عملي لا يخرج من الملة؛ لأنه قد يكون قد حكم لهوى، أو لمال يأخذه، أو حكم لرشوة أخذها، وهو يعتقد أنه يجب الحكم بما أنزل الله، فهذا كفر أصغر، أما إذا حكم بغير ما أنزل الله يعتقد أنه أحسن من حكم الله، أو إنه مساو لحكم الله، أو أنه مخيَّر بين أن يحكم بالقرآن أو أن يحكم بالقانون؛ فهذا كفر أكبر عند الجميع.

قوله: (ونحو ذلك من الأدلة الواردة فيمن زنى، ومن سرق)، فقوله: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حين يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ**» فيه نفي الإيمان عنه، ليس معناه أنه كفر الكفر الأكبر؛ ولذلك يُقام عليه الحد.

قوله: (ومن أتى امرأة حائضًا...)، كل هذه الأفعال وصف فاعلها بالكفر، ولكنه الكفر الأصغر.

قوله: (فإنه لا يخرج به العبد عن الإيمان) نحن معه في هذا، أنه لا يكفر ولا يخرج من الإيمان وأنه كفر أصغر، ولكن هل دعاء غير الله، والاستغاثة بالأموات والذبح لهم والنذر لهم مثل الزنى والسرقة وقول المؤمن لأخيه: يا كافر؟ لا، هذا بعيد صدوره منه.

باب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ، وَكُفْرٍ دون كُفْرٍ، وما قاله العلامة ابن القيم(١): إن الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة من الكفر العملي، تحقيقه أن الكفر كفر عمل وكفر جحود وعناد، فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحودًا وعنادًا، فهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه، وأما كفر العمل فهو نوعان: نوع يضاد الإيمان، ونوع لا يضاده. ثم نقل عن ابن القيم كلامًا في هذا المعنى.

ثم قال السيد المذكور: قلت: ومن هذا ـ يعني الكفر العملي ـ من يدعو الأولياء ويهتف بهم عند الشدائد، ويطوف بقبورهم، ويقبل جدرانها، وينذر لها بشيء من ماله؛ فإنه كفر عملي لا اعتقادي،

الشَّرْح

قوله: (باب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ) كفران العشير هل هو يخرج من الملة، الزوجة أو النساء؟ كفران العشير هل معناه أنه الكفر الأكبر؟ لا، هذا الكفر الأصغر، ولكن هل نقول: إن عباد القبور كذلك؟؛ لا.

قوله: (وما قاله العلامة ابن القيم: إن الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة من الكفر العملي) نعم هو كذلك، فابن القيم ذكر هذا، أن الحكم بغير ما أنزل الله إذا لم يعتقد إباحته، ولم يعتقد أن الحكم بالقانون أحسن، أو أنه مساوٍ للحكم بما أنزل الله، إذا لم يعتقد هذا واعترف أن الحكم في القرآن هو الحق، ولكن حكم بغيره لهوى في نفسه، أو لطمع يأخذه.

(ويطوف بقبورهم، ويقبل جدرانها) يستلمون جدرانها كما يستلمون الركن اليماني والحجر الأسود، يستلمون مباني القبور، والحجرات التي على القبور،

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٣٥) وما بعدها.

فإنه مؤمن بالله وبرسوله ﷺ وباليوم الآخر.

لكن زين له الشيطان أن هؤلاء ـ عباد الله الصالحين ـ ينفعون، ويشفعون، ويضرون، ....

الشَّرْح

يطوفون بها ويستلمون أركانها، هل يقول أحد: إن هذا شرك أصغر أو كفر عملي؟ لا، ما يقوله إلا ملبس وجاهل، حتى إن الصنعاني قال في قصيدته ورد عليهم:

وكم طائف حول القبور مقبلًا ويلتمس الأركان منهن بالأيدي

قوله: (فإنه مؤمن بالله وبرسوله ﷺ وباليوم الآخر)، لا ينفعه هذا، المشركون يؤمنون بالله، ويقرون بتوحيد الربوبية، وأنه لا خالق، ولا رازق إلا الله، ويقولون: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك، إلا شَرِيكًا هو لك تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ»، فهم يناقضون إيمانهم بالله بالشرك والكفر، وكما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف] كيف عميت هذه البصائر والعياذ بالله؟.

قوله: (فإنه مؤمن بالله) ليس مؤمنًا بالله، حاشا وكلا، فالذي يدعو غير الله، ويذبح لغير الله، وينذر لغير الله، ويستغيث بالأموات هذا ليس مؤمنًا بالله، إلا إيمان المشركين، الإيمان بتوحيد الربوبية فقط، وهذا لا ينفع ولا يكفي.

قوله: (لكن زين له الشيطان) الشيطان يزين لهم الكفر الأصغر والشرك الأصغر؟ لا، لا يزين لهم إلا الهلاك؛ بالكفر الأكبر والشرك الأكبر.

قوله: (ينفعون، ويشفعون، ويضرون) فهل الذي يعتقد في ميت أنه ينفع ويضر، يقال: إنه مؤمن، وإنه مشرك شركًا أصغر؟ من قال هٰذا؟ هذا لا يصدر من الإمام الصنعاني.

فاعتقدوا ذلك، كما اعتقد ذلك أهل الجاهلية في الأصنام.

لكن هؤلاء مثبتون التوحيد لله، لا يجعلون الأولياء آلهة، كما قاله الكفار إنكارًا على رسول الله ﷺ لما دعاهم إلى كلمة التوحيد: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، فهؤلاء جعلوا لله شركاء حقيقة، فقالوا في التلبية: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك، إلا شَرِيكًا هو لك تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ» فأثبتوا للأصنام شركة مع رب الأنام، وإن كانت عباراتهم الضالة قد أفادت أنه لا شريك له؛ لأنه إذا كان يملكه وما ملك فليس شريك له تعالى، بل مملوك، فعبّاد الأصنام الذين جعلوا لله

الشَّرْح

قوله: (فاعتقدوا ذلك)، فهل الذي يعتقد أنه يُدعى غير الله، ويُذبح لغير الله، يقال: إن كفره عملي وأنه شرك أصغر!، هذا قول مبتدع ما قاله أئمة الإسلام.

قوله: (كما اعتقده أهل الجاهلية في الأصنام) كما اعتقد ذلك أهل الجاهلية، فاعترفوا أنهم مثل أهل الجاهلية، فهذا الذي يعتقد في الأموات مثل الذي يعتقد أهل الجاهلية في الأصنام هل يقال: إن شركه شرك أصغر وأنه كفر عملي، من يقول هذا؟.

قوله: (لأنه إذا كان يملكه وما ملك فليس شريكًا له تعالى) هذا تناقض، فتلبية الجاهلية فيها تناقض، (لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك، إلا شَرِيكًا هو لك تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ) هذا تناقض، إذا كان يملكه وما ملك فكيف يكون شريكًا له؟ وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، فالله رد على أهل الجاهلية، وهذا رد على هؤلاء المبطلين؛ فأبطل الله هذه التلبية، وكذلك أبطل الله قول هؤلاء القبوريين.

أندادًا، واتخذوا من دونه شركاء، وتارةً يقولون: شفعاء يقربونهم إلى الله زلفى، بخلاف جهلة المسلمين الذين اعتقدوا في أوليائهم النفع والضر؛ فإنهم مقرون لله بالوحدانية، وإفراده بالإلهية، وصدّقوا رسله، فالذي أتوه من تعظيم الأولياء كفر عمل لا اعتقاد.

فالواجب وعظهم، وتعريفهم جهلهم، وزجرهم ولو بالتعزير، كما أُمرنا بحد الزاني والشارب والسارق من أهل الكفر العملي،

الشَّرْح

قوله: (واتخذوا من دونه شركاء، وتارة يقولون: شفعاء يقربونهم إلى الله زلفى) انظر: شركاء، وشفعاء؛ يعني: اعترفوا على أنفسهم.

قوله: (بخلاف جهلة المسلمين الذين اعتقدوا في أوليائهم النفع والضر) يا سبحان الله، الذي يعتقد في مخلوق ميت النفع والضر، هذا يقال: إنه مسلم، أو يقال: إنه لم يشرك؟ **(بخلاف جهلة المسلمين)** كيف يكونون جهلة وهم يقرؤون القرآن وبلغتهم دعوة التوحيد، فكيف يكونون جهلة؟ فليسوا بجهلة.

قوله: (فإنهم مقرون لله بالوحدانية)، لا ينفع الإقرار مع التناقض، الإقرار حجة عليهم، كيف تقرون أنه هو الرب والخالق والرازق، وتصرفون العبادة إليهم، فهذا تناقض.

قوله: (فالذي أتوه من تعظيم الأولياء كفر عمل لا اعتقاد) هذا كذب، هذا كفر اعتقاد، ما فعلوا هذا إلا لاعتقاد، هو قال في الكلام السابق إنهم يعتقدون فيهم، فليس كفر عمل، بل كفر اعتقاد، فما فعلوا هذا إلا لأنهم يعتقدون أنهم ينفعون ويضرون.

قوله: (فالواجب وعظهم)؛ يعني: ما بلغهم شيء، ما بلغهم القرآن، ما بلغتهم الدعوة، ما قامت عليهم الحجة؟.

قوله: (كما أمرنا بحد الزاني...) لا، ليسوا بسواء، فليس هذا مثل

إلى أن قال: فهذه كلها قبائح محرمة من أعمال الجاهلية، فهو من الكفر العملي.

وقد ثبت أن هذه الأمة تفعل أمورًا من أمور الجاهلية هي من الكفر العملي كحديث: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**». أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري[(١)].

الشَّرح

الزاني، والسارق، الزاني والسارق مؤمن لا يدعو غير الله، ولا يذبح لغير الله، ولا ينذر لغير الله، ولا يستغيث بالأموات، إنما أتى معصية شهوانية، فزنى أو سرق، هذا يُقام عليه الحد فقط، ولا يكفر، لا تسوية بين هذا وهذا، فلا تسوية بين الزاني والسارق وبين المشرك الذي يدعو غير الله، ويستغيث بالأموات، ويذبح لهم، وينذر لهم، فلا سواء بين هذا وهذا.

قوله: (كما أمرنا بحد الزاني...)، فهذا قياس باطل، فلا يُقاس المشرك على المسلم المؤمن الفاسق فسقًا عمليًا، لا يقاس هذا على هذا.

قوله: (إلى أن قال)؛ يعني: الكلام المنسوب إلى الإمام الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (فهذه كلها قبائح محرمة من أعمال الجاهلية، فهو من الكفر العملي) الحمد لله، ما دام من أعمال الجاهلية فكيف يكون من الكفر العملي؟ أعمال الجاهلية شرك، مع الأصنام ومع الأولياء والصالحين، فهذه شرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) صحيح مسلم (٩٣٤).

فهذه من الكفر العملي، لا تخرج بها الأمة عن الملة، بل هم مع إتيانهم بهذه الخصلة الجاهلية أضافهم إلى نفسه فقال: «**من أُمَّتِي**».

فإن قلت: أهل الجاهلية تقول في أصنامها: إنهم يقربونهم إلى الله زلفى كما يقول القبوريون، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله كما يقوله القبوريون.

قلت: لا سواء، فإن القبوريين مثبتون للتوحيد لله، قائلون أنه لا إله إلا الله، ولو ضربت عنقه على أن يقول: إن الولي إله مع الله لما قالها، بل عنده اعتقاد جهل أن الولي لما أطاع الله كان له بطاعته عند الله جاه به تقبل شفاعته ويرجى نفعه، لا أنه إله مع الله، بخلاف الوثني فإنه امتنع عن قول: لا إله إلا الله حتى ضربت عنقه زاعمًا أن وثنه إله مع الله، ويسميه ربًا وإلهًا.

قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، سماهم أربابًا؛ لأنهم كانوا يسمونهم بذلك، كما قال الخليل: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في الثلاث الآيات مستفهمًا لهم مبكتًا متكلمًا على خطابهم، حيث يسمون الكواكب أربابًا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، وقال قوم إبراهيم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء]، وقال إبراهيم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات].

ومن هذا يُعلم أن الكفار غير مقرين بتوحيد الإلهية والربوبية كما توهمه من توهم من قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾

الشَّرح

[الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فهذا إقرار بتوحيد الخالقية والرازقية ونحوهما، لا أنه إقرار بتوحيد الإلهية؛ لأنهم يجعلون أوثانهم أربابًا كما عرفت، فهذا الكفر الجاهلي كفر اعتقاد، ومِن لازمه كفر العمل؛ بخلاف من اعتقد في الأولياء النفع والضر مع توحيد الله، والإيمان به، وبرسله، وباليوم الآخر، فإنه كفر عمل، فهذا تحقيق بالغ، وإيضاح لما هو الحق من غير إفراط ولا تفريط، انتهى كلام السيد المذكور رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأقول: هذا الكلام في التحقيق ليس بتحقيق بالغ، بل كلام متناقض متدافع.

وبيانه أنه لا شك أن الكفر ينقسم إلى: كفر اعتقاد، وكفر عمل.

لكن دعوى أن ما يفعله المعتقدون في الأموات من كفر العمل في غاية الفساد؛ فإنه قد ذكر في هذا البحث أن كفر من اعتقد في الأولياء كفر عمل، وهذا عجيب، كيف يقول: كفر من يعتقد في الأولياء، ويسمي ذلك اعتقادًا، ثم يقول: إنه من الكفر العملي؟! وهل هذا إلا التناقض البحت، والتدافع الخالص!.

الشَّرح

انظر: كيف ذكر في أول البحث أن كفر من يدعو الأولياء، ويهتف بهم عند الشدائد، ويطوف بقبورهم، ويقبل جدرانها، وينذر لها بشيء من ماله هو كفر عمل.

فليت شعري ما هو الحامل له على الدعاء والاستغاثة، وتقبيل الجدران، ونذر النذورات، هل مجرد اللعب والعبث من دون اعتقاد؟ فهذا لا يفعله إلا مجنون، أم الباعث عليه الاعتقاد في الميت، فكيف لا يكون هذا من كفر الاعتقاد الذي لولاه لم يصدر فعل من تلك الأفعال.

ثم انظر كيف اعترف بعد أن حكم على هذا الكفر بأنه كفر عمل، لا كفر اعتقاد بقوله: «لكن زين الشيطان أن هؤلاء عباد الله الصالحين ينفعون ويشفعون؛ فاعتقد ذلك جهلًا كما اعتقده أهل الجاهلية في الأصنام».

الشَّرْح

قوله: (انظر: كيف ذكر في أول البحث): هذا رد الشيخ الشوكاني على ما نسب للصنعاني، **وقوله: (فليت شعري ما هو الحامل له على الدعاء...)**، فالصنعاني في قصيدته يقول:

وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

هتفوا: يعني القبوريين، هذا صريح كلامه في قصيدته، فكيف يأتي هنا ويقول: **(ما هو الحامل)**؛ أي: ما الحامل لمن يدعو الأموات، ما يحمله على هذا إلا الاعتقاد أن الميت ينفع ويضر، ويقضي الحاجات ويفرج الكربات، وهذا ليس كفرًا عمليًا، كما يقول الصنعاني فيما ينسب إليه.

يقول الشوكاني: **(فكيف لا يكون هذا من كفر الاعتقاد)**.

قوله: (ثم انظر كيف اعترف بعد أن حكم على هذا الكفر بأنه كفر عمل، لا كفر اعتقاد) الحمد لله اعترف الآن أن هذا هو اعتقاد أهل الجاهلية في الأصنام، كيف يكون كفرًا عمليًّا وهو اعتقاد أهل الجاهلية في الأصنام، أهل الجاهلية لم يقولوا: إن الأصنام تخلق وترزق، وإنما يقولون: شفعاؤنا عند الله، فاتخذوها للشفاعة فقط، ولم يعتقدوا فيها أنها تخلق وترزق وتدبر

فتأمل كيف حكم بأن هذا كفر اعتقاد ككفر أهل الجاهلية، وأثبت الاعتقاد واعتذر عنهم بأنه اعتقاد جهل.

وليت شعري أي فائدة لكونه اعتقاد جهل؛ فإن طوائف الكفر بأسرها، وأهل الشرك قاطبة إنما حملهم على الكفر ودفع الحق والبقاء على الباطل الاعتقاد جهلًا.

وهل يقول قائل: إن اعتقادهم اعتقاد علم حتى يكون اعتقاد الجهل عذرًا لإخوانهم المعتقدين في الأموات.

الشَّرْح

الأمر، فلا فرق بين هؤلاء القبوريين وبين أهل الجاهلية.

قوله: (واعتذر عنهم بأنه اعتقاد جهل)، كيف اعتذر الصنعاني مما نسب إليه عن القبوريين بأن كفرهم كفر عمل عن جهل منهم فكيف يكونون جهالًا وهم يقرؤون القرآن، ويسمعون الأحاديث ويقرؤون كتب التوحيد، فالجهل إنما يُعذر به من لم يصل إليه شيء، ولم يسمع القرآن، ولم يسمع الأحاديث، ولم يسمع كلام أهل العلم، وإنما نشأ بعيدًا عن بلاد الإسلام ولم يصل إليه شيء، هذا هو الذي يُعذر بالجهل.

قوله: (فإن طوائف الكفر بأسرها...) نعم، اعتقاد أهل الجاهلية: جهل، والشرك جهل بالله ﷻ، فالذي أوقع أهل الجاهلية في الشرك هو الجهل، لو كانوا يعلمون أنه شرك ما فعلوه، ولكنهم لا يرون أنه شرك، يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقط ليقربوهم، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، فما جعلوهم شركاء لله في الخلق والتدبير والإحياء والإماتة.

قوله: (حتى يكون اعتقاد الجهل عذرًا لإخوانهم المعتقدين في الأموات) وهل الله ﷻ ترك أهل الجاهلية على جهلهم، أم أنه أرسل إليهم الرسل

ثم تمم الاعتذار بقوله: لكن هؤلاء مثبتون للتوحيد... إلى آخر ما ذكره.

ولا يخفاك أن هذا عذر باطل، فإن إثباتهم التوحيد إن كان بألسنتهم فقط فهم مشتركون في ذلك هم واليهود والنصارى والمشركون والمنافقون، وإن كان بأفعالهم فقد اعتقدوا في الأموات ما اعتقده أهل الأصنام في أصنامهم.

ثم كرر هذا المعنى في كلامه، وجعله السبب في رفع السيف

الشَّرْح

تدعوهم إلى التوحيد، ولكنهم عاندوا الرسل، وأبوا أن يقبلوا دعوتهم، وبقوا على جهلهم وعنادهم.

قوله: (ثم تمم الاعتذار)؛ أي: هذا القائل الذي يتقمص شخصية الصنعاني، تمم اعتذاره بقوله: **(لكن هؤلاء مثبتون للتوحيد)** كيف يكونون مثبتين للتوحيد وهم يستغيثون بالأموات، هذا تناقض، فالذي يستغيث بالأموات هل هذا معتقد للتوحيد؟ كيف يكونون مثبتين للتوحيد ثم يدعون غير الله؟ إذًا ما هو الشرك؟ أليس هو دعاء غير الله وعبادة غير الله؟ ما أظن أن الأمام الصنعاني يبلغ به الجهل إلى هذا الحد.

قوله: (فإن إثباتهم التوحيد إن كان بألسنتهم فقط فهم مشتركون في ذلك هم واليهود والنصارى والمشركون والمنافقون)؛ لأن كل هذه الطوائف تقول: لا إله إلا الله بألسنتها، ولكنهم يخالفون ذلك في عقائدهم وقلوبهم وأفعالهم، فلا ينفع اللفظ بدون التزام لمعناه ومدلوله، وإلا فاليهود يقولون: (لا إله إلا الله)، والنصارى يقولون: (لا إله إلا الله)، والمنافقون يقولون: (لا إله إلا الله)، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

قوله: (ثم كرر هذا المعنى في كلامه)؛ أي: كرر صاحب هذا الكلام

عنهم، وهو باطل فما ترتب عليه مثله باطل، فلا نطول برده، بل هؤلاء القبوريون قد وصلوا إلى حد في اعتقادهم في الأموات لم يبلغه المشركون في اعتقادهم في أصنامهم.

الشَّرح

هذا الاعتذار عنهم، وأنهم جهال، وأنهم يؤمنون بالله، ولكن هم جهال، واتخذوا هؤلاء وسائط وشفعاء، فهم معذورون بجهلهم عنده، وهذا تلفيق باطل، لا يقبل أبدًا، لأنه كلام القبوريين من أول ما نشؤوا في الإسلام من بعد المائة الرابعة، وبعد القرون المفضلة وهذا كلامهم.

قوله: (وهو باطل فما ترتب عليه مثله باطل)؛ أي: كلام القبوريين باطل وما ترتب على الباطل فهو باطل، فهذا الاعتذار عنهم بأنهم جهال باطل ولا ينفعهم أنهم ما يريدون إلا الخير.. إلى آخر ما يقولون.

قوله: (بل هؤلاء القبوريون قد وصلوا إلى حد في اعتقادهم في الأموات لم يبلغه المشركون في اعتقادهم في أصنامهم) ليس هناك شك في ذلك، فالمشركون في الجاهلية يشركون في الرخاء، ويخلصون لله في الشدائد، كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]، قال تعالى مخاطبًا المشركين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس]، فكانوا يشركون في الرخاء ويخلصون الدعاء لله في الشدة، أما القبوريون فشركهم دائم في الرخاء وفي الشدة، بل يزيد شركهم في الشدة أكثر من الرخاء؛ ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وشرك هؤلاء أعظم من شرك الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء، ويخلصون في الشدة، وهؤلاء شركهم دائم في الرخاء والشدة)، فكيف يُقال: إن هؤلاء يختلفون عن المشركين الأولين؛ لأنهم

وهو: أن أهل الجاهلية كانوا إذا مسّهم الضر دعوا الله وحده، وإنما يدعون أصنامهم مع عدم نزول الشدائد من الأمور كما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]، وبقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنعام]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾

الشَّرْح

جهال، ولأن مقاصدهم حسنة، فهم يعتقدون التوحيد، ولكن فعلوا هذا الشيء عن جهل؟! وهذه التلفيقات لا تنفع، والشيخ الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ منها بريء وإنما لفقت عليه.

قوله: (أن أهل الجاهلية كانوا إذا مسَّهم الضر دعوا الله وحده) هذا لعلمهم أنه لا يخلص في الشدائد إلا الله، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]؛ يعني: في الشدائد، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]؛ لأنهم يعلمون أنه لا يخلص من الشدائد إلا الله، فيخلصون له الدعاء في هذه الحال.

قوله: (وإنما يدعون أصنامهم مع عدم نزول الشدائد من الأمور كما حكاه الله عنهم) فالله ذكر هذا عن مشركي الجاهلية في عدة مواضع من القرآن، وحكاه الله أنهم يشركون في الرخاء، ويخلصون لله الدعاء في الشدة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾: فالمشركون يخلصون لله عند الشدائد، عند نزول العذاب بهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨]: فهذه طبيعة الإنسان غير المؤمن الحق،

[الزمر: ٨]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، بخلاف المعتقدين في الأموات؛ فإنها إذا دهمتهم الشدائد استغاثوا بالأموات، ونذروا لها النذور، وقلَّ من يستغيث بالله ـ سبحانه ـ في تلك الحال، وهذا يعلمه كل من له بحث عن أحوالهم.

ولقد أخبرني بعض من ركب البحر للحج أنه اضطرب اضطرابًا شديدًا، فسمع من أهل السفينة من الملاحين، وغالب الراكبين معهم ينادون الأموات، ويستغيثون بهم، ولم يسمعهم يذكرون الله قط، قال: ولقد خشيت في تلك الحال الغرق لما شاهدته من الشرك بالله.

الشَّرْح

أنه يخلص عند الشدة، ويشرك عند الرخاء، عند الشدة ينسب النعمة إلى الله، وعند الرخاء يشرك بالله، وكذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت].

قوله: (بخلاف المعتقدين في الأموات)، فإنهم زادوا على شرك أهل الجاهلية، فشركهم دائم في الرخاء والشدة، بل شركهم في الشدة أكثر؛ لأنه وقت حاجتهم، فلذلك يهتفون بالأولياء والصالحين إذا وقعوا في الخطر؛ ليخلصوهم، وهذا شيء معروف عنهم ومشاهد منهم.

قوله: (وقلَّ من يستغيث بالله ـ سبحانه ـ في تلك الحال)؛ أي: قلَّ من يفعل فعل المشركين الأولين في الشدة في الشدة، فأكثرهم لا يخلصون لله، بل يزيد شركهم وتعلقهم بالأولياء والصالحين، ويهتفون بأسمائهم عند الشدة.

قوله: (ولقد أخبرني بعض من ركب البحر للحج) هذا رجل من أهل التوحيد يخبر الإمام الشوكاني أنه ركب مع جماعة مع القبوريين في سفينة

وقد سمعنا عن جماعة من أهل البادية المتصلة بصنعاء أن كثيرًا منهم إذا حدث له ولد جعل قسطًا من ماله لبعض الأموات المعتقدين، ويقول: إنه قد اشترى ولده من ذلك الميت الفلاني بكذا، فإذا عاش حتى يبلغ سن الاستقلال دفع ذلك الجُعل لمن يعتكف على قبر ذلك الميت من المحتالين لكسب الأموال.

الشَّرْح

للحج، فاضطربت السفينة، وأشرفوا على الهلاك، فصاروا يستغيثون بالأموات، فهذا الموحّد خشي من الغرق لما سمعه منهم من الشرك، وإذا رزق أحدهم بولد **(جعل قسطًا من ماله لبعض الأموات المعتقدين)** فيهم؛ لأنه يظن أن هذا الولد من الولي، فيجعل له قسطًا من مزرعته، أو من غنمه، مكافأة له.

قوله: (ويقول: إنه قد اشترى ولده من ذلك الميت الفلاني بكذا)؛ لأنه يعتقد أن الميت الولي هو الذي أتى له بهذا الولد، فيكافئه ويجعل له قسطًا من ماله، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فسووهم بالله ﷻ، ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ فيجعل قسمًا من زرعه وحرثه للشركاء، فأنت لا تستغرب ما تفعله البادية والبدو والأعراب، وهذا كلام علماء الضلال الذين يزعمون أنهم علماء، وهم الذين أهلكوا الناس.

قوله: (فإذا عاش حتى يبلغ سن الاستقلال دفع ذلك الجُعل لمن يعتكف على قبر ذلك الميت من المحتالين لكسب الأموال) أين يؤدي هذه المكافأة التي فرضها؟ فالميت لا يأتي لأخذها، فهو يجعلها للسدنة الذين على قبر الميت نيابة عنه، وهم يقولون: نحن نعطيها للولي، يغرون الناس، فيقولون: نبشرك أن الولي تقبل صدقتك ونذرك.

وبالجملة فالسيد المذكور رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد جرَّد النظر في بحثه السابق إلى الإقرار بالتوحيد الظاهري، واعتبر مجرد التكلم بكلمة التوحيد فقط من دون نظر إلى ما ينافي ذلك من أفعال المتكلم بكلمة التوحيد ويخالفه من اعتقاده الذي صدر عنه تلك الأفعال المتعلقة بالأموات، وهذا الاعتبار لا ينبغي التعويل عليه، ولا الاشتغال به، فالله ـ سبحانه ـ إنما ينظر إلى القلوب، وما صدر من الأفعال عن اعتقاده لا إلى مجرد الألفاظ، وإلا لما كان فرق بين المؤمن والمنافق.

الشَّرح

قوله: (وبالجملة فالسيد المذكور)؛ يعني: الإمام الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(اعتبر مجرد التكلم بكلمة التوحيد فقط من دون نظر إلى ما ينافي ذلك) هل بلغ السيد الصنعاني من الغباوة لهذا الحد؟ أنه يعتقد أن (لا إله إلا الله) مجرد لفظ فقط لا معنى لها، ولا يعمل بمقتضاها؟! وينزّه الإمام الصنعاني عن مثل هذه الأباطيل والترهات، فالوضع واضح عليها، فإخوانهم قد وضعوا على الرسول ﷺ، وكذبوا على الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة في الدعوة إلى تعظيم الأضرحة وغيرها، فكيف لا يكذبون على الإمام الصنعاني؟.

قوله: (وهذا الاعتبار لا ينبغي التعويل عليه)؛ لأنه وكما سبق وتكرر: أنه ليس المراد بـ (لا إله إلا الله) مجرد النطق بألفاظها وحروفها ولفظها، لا بد من معرفة معناها، ولا بد من العمل بمقتضاها، والصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن من هذه الطائفة التي تكتفي بمجرد التلفظ دون العمل ودون الالتزام؟

قوله: (فالله ـ سبحانه ـ إنما ينظر إلى القلوب، وما صدر من الأفعال عن اعتقاد لا إلى مجرد الألفاظ)؛ فالله جلَّ وعلا لا يكتفي بالألفاظ باللسان، دون نظر إلى القلب، وإلى العمل.

قوله: (وإلا لما كان فرق بين المؤمن والمنافق) فالمنافق يقول: لا إله

وأما ما نقله السيد المذكور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن القيم في أول كلامه من تقسيم الكفر إلى عملي واعتقادي، فهو كلام صحيح، وعليه جمهور المحققين، ولكن لا يقول ابن القيم ولا غيره: إن الاعتقاد في الأموات على الصفة التي ذكرها هو من الكفر العملي.

الشَّرْح

إلا الله، وهو في الدرك الأسفل من النار، لماذا؟ لأنه لم يلتزم بمعناها، ولا اعتقد بقلبه، فلم ينفعه التلفظ بـ (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾؛ يعني: اتخذوا هذه الشهادة اللفظية، ﴿جُنَّةً﴾ يتترسون بها، ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ آمنوا بألسنتهم، ثم كفروا بقلوبهم، ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ﴾ لهم مظاهر، ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٤]، لهم ألسنة وحجج مزخرفة تؤثر على السامع، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢] يُغرون به من يسمعهم، ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ [المنافقون: ٤]، فالله سبحانه فضحهم وعرَّاهم؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فكيف بالقبوريين الذين يقولون: (لا إله إلا الله) ويعبدون غير الله؟ ويعتقدون بقلوبهم أن الميت ينفع ويضر، ويدبر، ويرزق الولد!... إلى آخره.

قوله: (وأما ما نقله السيد المذكور) الإمام الصنعاني، **(من تقسيم الكفر إلى عملي واعتقادي)** هذا عند جميع العلماء، أن الكفر ينقسم إلى قسمين: كفر اعتقادي، وكفر عملي، ولكن هل كفر عباد القبور من العملي، أو من الاعتقادي؟.

قوله: (ولكن لا يقول ابن القيم ولا غيره...) ابن القيم في كتبه كلها يصرح بأن دعاء الأموات، والاستغاثة بالأموات من الكفر الأكبر، والشرك

وسننقل هاهنا كلام ابن القيم في أن ما يفعله المعتقدون في الأموات من الشرك الأكبر كما نقل عنه السيد ـ رحمه الله تعالى ـ في كلامه السابق، ثم نُتبع ذلك بالنقل عن بعض أهل العلم، فإن السائل ـ كثَّر الله فوائده ـ قد طلب ذلك في سؤاله.

فنقول: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح المنازل في باب التوبة(١): وأما الشرك فهو نوعان: أكبر، وأصغر؛ فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله، بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويغضبون لمنتقص معبوديهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين.

الشَّرْح

الأكبر، وهذه كتب ابن القيم موجودة، «إغاثة اللَّهفان»، «مدارج السالكين» و«النونية» وغيرها من كتبه.

قوله: (وسننقل هاهنا كلام ابن القيم...) الشوكاني يقول: أنا أنقل لك كلام ابن القيم حتى ترى حقيقة كلامه في المسألة.

قوله: (فإن السائل)؛ أي: السائل الذي سأل الشوكاني عن ذلك، فكل هذه الرسالة جواب لعالم سأله.

قوله: (في شرح المنازل)؛ أي: كتاب «مدارج السالكين شرح منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين»، فأصل الكتاب لشيخ الإسلام إسماعيل الهروي، وشرحه «مدارج السالكين شرح منازل السائرين» لابن القيم.

قوله: (أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين)، كما قال

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٣٩) وما بعدها.

وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر معبوده على لسانه إن قام وقعد، وإن عثر، وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده. وهكذا كان عباد الأصنام سواء.

وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذها من البشر.

الشَّرْح

تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر].

قوله: (وقد شاهدنا هذا) يقوله ابن القيم.

قوله: (قد اتخذ ذكر معبوده على لسانه...) يقول: يا رسول الله أو يا عبد القادر، أو يا فلان، إذا سقط أو قام، يقول: يا رسول الله..، ولا يقول: يا الله.

قوله: (ويزعم أنه باب حاجته إلى الله)؛ أي: أن هذا الولي باب حاجته إلى الله؛ يعني: أنه الواسطة بينه وبين الله، فهو يركز على الواسطة وينسى الله ﷻ.

قوله: (وهكذا كان عباد الأصنام سواء)؛ أي: فعباد القبور مثل عباد الأصنام؛ فعباد الأصنام يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] وعباد القبور كذلك.

قوله: (كانت آلهتهم من الحجر)؛ أي: أهل الجاهلية آلهتهم من الحجر والشجر.

قوله: (وغيرهم اتخذها من البشر)؛ أي: عباد القبور آلهتهم من الأولياء والصالحين الأموات.

قال الله تعالى حاكيًا عن أسلاف هؤلاء: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، وهكذا حال من اتخذ من دون الله وليًّا يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى، وما أعز من تخلص من هذا؛ بل ما أعز من لا يعادي من أنكره!.

الشَّرح

قوله: (عن أسلاف هؤلاء)؛ يعني: فالقبوريون أسلافهم المشركون في الجاهلية، فيقولون في الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

فقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ هذا اعتراف منهم أنهم يعبدونهم، فيذبحون لهم، وينذرون لهم، ويعكفون على قبورهم، ويتمسحون بها، ثم إذا قيل لهم: هذا شرك، قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فليس هذا شركًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾: فقد وصفهم بالكذب والكفر، وهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فحكم عليهم بالكفر والكذب.

قوله: (وهكذا حال من اتخذ من دون الله وليًّا يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى) من الأولين والآخرين.

قوله: (وما أعز من تخلص من هذا؛ بل ما أعز من لا يعادي من أنكره!): فالمصيبة عظيمة، **(وما أعز)**؛ يعني: ما أقل، **(من تخلص من هذا)** إلا من خلَّصه الله.

والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له.

الشَّرْح

قوله: (والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين...)، تقدم أن عُبَّاد القبور الذين يستغيثون بالأموات ويذبحون لهم وينذرون لهم، يقولون: إننا نفعل هذا معهم من باب طلب الشفاعة منهم، فنحن لا نعبدهم، ولكن نحن نتقرب إليهم من أجل أن يُقربونا إلى الله، ونحن نعلم أنهم مخلوقون، وأنهم لا يخلقون شيئًا، ولكن نطلب منهم الشفاعة.

وهذه حجة الكفار والمشركين من قبل؛ من أهل الجاهلية، قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهؤلاء لم يتقربوا إليهم لأنهم ينفعون أو يضرون، فهم يعلمون أنهم لا ينفعون ولا يضرون، يدركون هذا، وإنما يتقربون إليهم لأنهم صالحون، فهم يشفعون لهم عند الله.

فنقول: الشفاعة حق أثبتها الله سبحانه وتعالى، ولكن لها شروط: **الشرط الأول**: أن تكون بإذن الله، واللهُ لم يأذن بعبادة الأموات والتقرب إليهم ليشفعوا، فهم لم يحققوا هذا الشرط. **الشرط الثاني**: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، أما أهل الشرك فما تنفعهم شفاعة الشافعين، فأهل الشرك لا تُقبل فيهم الشفاعة، وهم يشركون الصالحين مع الله ويعبدونهم، وفي الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ فاعترفوا أنهم يعبدونهم، ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ يعني: نتقرب إليهم من أجل أن يقربونا إلى الله زلفى، هذه حجتهم.

والله جلَّ وعلا لا يُقرّب إليه أحد إلا بإذنه، وبشرط أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، وأنتم ليس عندكم من الشرطين شيء، فالله لا يأذن لكم، لأنكم مشركون.

وما زال الإمام الشوكاني ينقل عن ابن القيم من «مدارج السالكين».

ثم ذكر الآية التي في سورة (سبأ)، وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [٢٢]، وتكلم عليها. ثم قال: والقرآن مملوء من أمثالها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، ويظنه في قوم قد خلوا ولم يعقبوا وارثًا،.........................

الشَّرْح

ثم ذكر الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ] والشاهد من الآية، أن الشفاعة لا تنفع إلا بإذنه، وهو سبحانه لم يأذن لكم في هذا، فعبادتكم لهم باطلة، قال العلماء: وهذه الآية الكريمة تقطع عروق الشرك من أصلها، وذلك:

أولًا: لأن المطلوب منه إما أن يكون مالكًا لما يطلب منه، أما الذي لا يملك فلا يُطلب منه.

ثانيًا: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أن يكون المطلوب منه إذا لم يكن مالكًا للمطلوب، فربما يكون شريكًا للمالك، وهؤلاء ليسوا شركاء لله عَزَّ وَجَلَّ.

ثالثًا: أن يكون معينًا له؛ فنفى ذلك؛ وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ فإذا لم يكن مالكًا، ولا شريكًا، ولا ظهيرًا للمالك: بقيت الشفاعة والشفاعة لا تصح إلا بشروط، وهذا الذي أنتم عليه لم تتوفر فيه هذه الشروط؛ إذًا انقطعت كل الشبهات التي يتعلقون بها في آية واحدة.

قوله: (وتكلم عليها)؛ أي: على الآية ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بهذا الكلام الذي لخصه لكم.

قوله: (لكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته)؛ أي: إن أكثر الناس يقرؤون القرآن، ولا يطبقونه على الواقع الذي هم فيه، وإنما يظنون أنه لأناس مضوا ولأمة خلت.

وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»(١)، وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوَّبه وحسَّنه،..

الشَّرْح

قوله: (وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن) وهو الغفلة عن تدبر القرآن.

قوله: (كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه) هذه كلمة عظيمة من أمير المؤمنين، **(إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية)** فالذي لا ينزل القرآن على الواقع لا يعرف الجاهلية فلا يستفيد من القرآن، فهذا ينطبق عليه كلام عمر رضي الله عنه.

ولا بد من تعلم أمور الجاهلية؛ فلا نغفل عنها؛ من أجل أن نحذرها ونتجنبها، وهي التي جاء الإسلام بالتحذير منها ونفيها، فلا نقول: هذا شيء مضى وانقضى، لا بد أن نفهم أمور الجاهلية ونتعلمها حتى نَحْذر منها، ولهذا صنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله رسالة سماها «المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية» من أجل أن نعرف أمور الجاهلية حتى نتجنبها ولا نقع فيها.

قوله: (وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه)؛

(١) ورد في مصنف ابن أبي شيبة عَنِ الْمُسْتَظِلِّ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ مَتَى تَهْلِكُ الْعَرَبُ»، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: مَتَى يَهْلِكُونَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «حِينَ يَسُوسُ أَمْرَهُمْ مَنْ لَمْ يُعَالِجْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمْ يَصْحَبِ الرَّسُولَ ﷺ». (٣٢٤٧٢)، وانظر: المستدرك (٤/ ٤٧٥)، والطبقات لابن سعد (٦/ ١٢٩).

الشَّرْح

أي: إذا لم يعرف ما عليه أهل الجاهلية من الشرك والكفر، فإنه يقع فيها؛ ولهذا يقول الشاعر:

عرفت الشَّرَّ لا للشر لَكِن لتوقيه ... وَمن لا يعرف الشَّرَّ من الخير يَقع فِيهِ

وكان حذيفة بن اليمان ﵁ يقول: «كان النَّاس يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عن الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عن الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[1]، وهذا من الفقه، فأنت إذا كنت تجهل الشيء ربما وقعت فيه، فما أصاب كثيرًا من الناس من هذه الدواهي الشركية والبدعية إلا بسبب الجهل بأمور الجاهلية وأمور الشرك والمشركين.

فكما أن الله سبحانه أمر بالتوحيد فقد نهى عن الشرك، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، فلا يكفي أنك تعبد الله، بل لا بد أن تعرف ما هو الشرك؛ لأجل أن تتجنبه؛ لأن العبادة لا تصح مع الشرك، من ذا الذي يؤمنك أن تقع في الشرك؟ إذا كنت لا تعرفه، وهذا فيه رد على الذين يقولون عن مناهج الدراسية إنما هي مُنفّرة، وليس لكم دخل في عقائد الناس!، اتركوا الناس كل على عقيدته!، اجتمعوا وتوحّدوا!، ونقول: لا يمكن أن نجتمع ونتوحد بدون عقيدة، هذا محال، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء]، فلا يتحدون إلا بعبادة الله ﷻ، فلا يكفي أنك تعرف الخير فقط، بل لا بد أنك تعرف الشر من أجل أن تتجنبه، وإلا فإنه يفسد ما عندك من الخير وأنت لا تدري، لا سيما وأن الشرك له دعاة قائمون على قدم وساق، يحاضرون ويتكلمون ويؤلفون، ويتكلمون في المواقع، وفي المحطات الإعلامية، فالمسلم على خطر من هذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦).

وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره، أو شرٌّ منه أو دونه، فتنقض بذلك عرى الإسلام، ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سُنَّة، والسُّنَّة بدعة، ويُكفِّر الرجل بمحض الإيمان، وتجريد التوحيد، ويُبدَّعُ بتجريد متابعة الرسول ﷺ، ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حيٌّ سليم يرى ذلك عيانًا. والله المستعان.

الشَّرْح

فالذي: **(لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية)**، يقع فيه؛ فالذي وقع فيه كثير من الناس من الشرك اليوم هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، فلذلك يجب على المسلم أنه يعرف الخير والشر، من أجل أن يعمل الخير ويتجنب الشر.

قوله: (فتنقض بذلك عرى الإسلام)، كما قال عمر رضي الله عنه، وإنما تنقض بالجهل بأمور الجاهلية عُرى الاسلام عروة عروة.

قوله: (ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا)؛ لأن هذه الشركيات إذا كثر وقوعها وكثر أهلها صارت هي المعروف، وصار التوحيد هو المنكر، ولذلك فالذي يدعو إلى التوحيد يعتبر مبتدعًا خارجيًا منفرًا.

قوله: (والبدعة سُنَّة، والسُّنَّة بدعة)، فبسبب التغافل عن الشر وعدم فهمه، يصير ما عليه الناس هو السنة، وما يدعو إليه أهل التوحيد هو البدعة.

قوله: (ويُكفَّر الرجل بمحض الإيمان، وتجريد التوحيد)، فيُكفرون الذين يدعون للتوحيد، فينقلب الشرك توحيدًا، والتوحيد شركًا، والإيمان ينقلب كفرًا، والكفر ينقلب إيمانًا؛ إذا صار المقياس ما عليه الناس، هذا هو المقياس!.

ثم قال في ذلك الكتاب[١]: فصل: وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن

الشَّرْح

قوله: (ثم قال في ذلك الكتاب)؛ أي: لابن القيم، كتاب «مدارج السالكين».

قوله: (وأما الشرك الأصغر)، انتهى من بيان الشرك الأكبر ثم انتقل إلى الشرك الأصغر، الذي لا يخرج من الملة، ولكنه ينقص التوحيد، وأيضًا هو وسيلة إلى الشرك الأكبر؛ ولهذا خافه النبي ﷺ على الصحابة، فقال: «**إن أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، قيل: وما الشِّرْكُ الأَصْغَرُ؟ قال: «**الرِّيَاءُ**»[٢]، وفي رواية: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى من نَظَرِ رَجُلٍ**»[٣].

قوله: (فكيسير الرياء) وأما الرياء الكثير فهو رياء المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، فالرياء على قسمين:

الأول: رياء اعتقادي، وهذا عند المنافقين.

الثاني: ورياء عملي، فهذا يحصل عند أهل الإيمان، وخافه الرسول ﷺ على أصحابه.

قوله: (والتصنع للخلق) الرياء والتصنع كله بمعنى واحد وهو مراءاة الناس بالأعمال، وإرادة المدح والثناء، وغير ذلك.

قوله: (والحلف بغير الله)؛ أي: من أنواع الشرك الأصغر الحلف

---

(١) في نسخة: «تم في ذلك الكتاب»، والصحيح ما أثبتّه؛ لأن النقل ما زال من كتاب مدارج السالكين.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٦٣٠). (٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤).

النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللهِ**»[١]، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، هذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، ....

الشَّرْح

بغير الله، قال ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ**»[٢]، وقال ﷺ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»[٣]، وقال: «**مَنْ كان حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أو لِيَصْمُتْ**»[٤]، فلا يجوز الحلف بالنبي، ولا الحلف بالولي، ولا الحلف بالكعبة، ولا بأي مخلوق، فلا يجوز الحلف بالمخلوق أبدًا؛ لأنه شرك.

قوله: (وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت)، من الشرك الأصغر أن يجمع بين الله وبين المخلوق بالواو، فيعطف المخلوق على الله بالواو، فيقول: لولا الله وأنت، ما لي إلا الله وأنت، ما شاء الله وشئت؛ لأن الواو تقتضي الجمع والمشاركة، فأنت جعلت المخلوق شريكًا للخالق في الفعل، وهذا شرك أصغر من شرك الألفاظ، وأما الرياء فهو شرك في النيات وهو الشرك الخفي؛ سماه النبي ﷺ: الشرك الخفي؛ لأنه في القلوب.

فالشرك الأصغر على قسمين:

الأول: شرك على اللسان، وهو شرك ظاهر، مثل الحلف بغير الله، وقول: لولا الله وأنت، ما لي إلا الله وأنت... إلى آخره.

الثاني: شرك خفي، وهو ما يكون في القلوب، وهو أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو شرك الرياء.

قوله: (هذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت)؛ يعني: إذا كان العطف على الله بالواو فهو شرك؛ لأنه جمع بين الله وبين المخلوق

---

(١) انظر سنن أبي داود (٣٢٥٣)، والترمذي (١٥٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٣٦).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٧٩).

وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده.

ثم قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في ذلك الكتاب بعد فراغه من ذكر الشرك الأكبر والأصغر، والتعريف لهما(١):

الشَّرْح

في الفعل؛ لأن الواو تقتضي المشاركة في هذه الألفاظ وغيرها، والصواب أن تقول: ما شاء الله ثم شئت، تجعل مشيئة الخلوق بعد مشيئة الله، فـ (ثم) للترتيب، ما لي إلا الله ثم أنت، لولا الله ثم أنت، فيأتي بـ (ثم)؛ لأنها تأتي للترتيب، والتعقيب، فتجعل المخلوق بعد الخالق ﷻ، ولا تجعله مشاركًا له.

قوله: (**وأنا متوكل على الله وعليك**)؛ لأن التوكل عبادة، فلا تتوكل على أحد، لا تتوكل إلا على الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قوله: (**ولولا أنت لم يكن كذا وكذا**)؛ لأنه جعل المخلوق منفردًا في حصول الشيء.

قوله: (**وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده**)؛ أي: قد يترقى الشرك الأصغر إلى الشرك الأكبر بحسب نية القائل، فإذا كان يعظم المخلوق مثل ما يعظم الله فهذا شرك أكبر، ولذلك يقولون: إن القبوريين يحلفون بالله وهم كاذبون، ولا يحلفون بالقبور والأموات إلا وهم صادقون، يخافون من الميت أن يصيبهم، ولهذا لو توجهت عليه يمين، فقيل له: احلف بالله، حلف مباشرة، وإذا قيل له: احلف بالولي انتفض وتلكأ؛ لأنه يخاف من الولي أنه يعاقبه، فإذا وصل إلى هذا الحد فهذا شرك أكبر.

قوله: (**في ذلك الكتاب**) الذي هو «مدارج السالكين».

---

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ٣٤٤) وما بعدها.

ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ، ومن أنواعه التوبة للشيخ، فإنها شرك عظيم، ومن أنواعه النذر لغير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غير الله، وإضافة نعمه إلى غيره، ....

الشَّرْح

قوله: (**ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ**)، وهذا موجود في الصوفية، فهم يسجدون لمشايخهم، والسجود لا يكون إلا لله ﷻ، ولكن لتعظيمهم إياهم.

قوله: (**ومن أنواعه التوبة للشيخ، فإنها شرك عظيم**)، التوبة للشيخ، فلا يتوب لله، وهذا عند بعض الصوفية إذا أخطأ لا يتوب إلى الله بل يتوب إلى الشيخ، يذهب للشيخ ويتوب إليه؛ لأنه يعتقد أن الشيخ يعذبه ويضره بزعمه.

قوله: (**ومن أنواعه النذر لغير الله**)، من أنواع الشرك النذر لغير الله؛ لأن النذر عبادة فلا يجوز أن يُنذر إلا لله؛ فمن نذر للقبر أو للولي فقد أشرك بالله ﷻ.

قوله: (**والتوكل على غير الله**)، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فالتوكل لا يكون إلا على الله، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر.

قوله: (**والإنابة والخضوع والذل لغير الله**)، كما سبق أنهم يتوبون إلى مشايخهم، ولا يتوبون إلى الله، وينيبون إليهم، ولا ينيبون إلى الله، ويستغفرونهم ولا يستغفرون الله.

قوله: (**وابتغاء الرزق من عند غير الله**)، فإذا صار في البلد ضريحه أو قبره؛ يذهب أهل البلد عند هذا الشيخ.

قوله: (**وإضافة نعمه إلى غيره**) مثل ما قال قارون عندما آتاه الله من الكنوز ونصحه قومه، قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني:

ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا لمن استغاث به، أو سأله قضاء حاجته،

الشَّرْح

أنا الذي حصلته، وأنا لدي خبرة بالأموال والاقتصاد ولذلك حصلته، وليس بفضل الله ولا بمنة الله عَجَلَّ، نسأل الله العافية.

قوله: (**ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى**)، هذا أشد، فطلب الحوائج من الموتى من أعظم أنواع الشرك؛ لأن الحوائج تُطلب من الله، أما الميت فلا يُطلب منه شيء، أما الحي فيُطلب منه ما يقدر عليه، وما لا يقدر عليه لا يُطلب إلا من الله.

قوله: (**وهذا أصل شرك العالم**)، هذه الأمور التي ذكرها ابن القيم في هذه الأمة هي أصل شرك العالم من قبل، كما قال الله جلَّ وعلا عن أهل الجاهلية: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

قوله: (**فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا**)، قال ﷺ: «**إذا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إلا من ثَلَاثَةٍ**» تسبب بها أو فعلها في حياته، «**صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له**»[1]، أما بعد موته فلا يستطيع أن يعمل شيئًا؛ فكيف يطلب منه شيء وهو المحتاج إلى الأحياء؛ يدعون له ويتصدقون عنه.

فكيف يملك شيئًا: (**لمن استغاث به، أو سأله قضاء حاجته**)، فهو لا

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله لم يجعل استعانته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها، وهذا حال كل مشرك، والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له..............................

الشَّرْح

يستطيع أن يعمل شيئًا لنفسه، فكيف يعمل لغيره، هذا محال، فالميت بحاجة إلى الحي، والحي ليس بحاجة إلى الميت.

قوله: (وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده)، فمن طلب الشفاعة من الميت فهذا من جهله بالشفاعة وأحكامها، ومن جهله بالشافع الذي هو الميت الذي لا يملك شيئًا، ومن جهله بالمشفوع عنده وهو الله، فإن الله لا يقبل هذه الشفاعة.

قوله: (فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه)، فلا تُطلب الشفاعة من الميت، بل تُطلب من الله، نعم تطلب من الحي أن يدعو لك، أما الميت فأنه عاجز أن يعمل لنفسه؛ فكيف يعمل لك.

قوله: (والله لم يجعل استعانته وسؤاله سببًا لإذنه)، لم يجعل الله سؤال الميت والاستغاثة به سببًا لإذنه له أن يشفع.

قوله: (وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد)، فلا بد أن يكون الشافع حيًّا كامل التوحيد حتى يأذن الله له.

قوله: (فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها)، جاء هذا المستشفع بما يمنع قبول الشفاعة، وهو الشرك، فالاستغاثة بالميت ودعاء الميت هذا كله شرك يمنع الشفاعة.

قوله: (والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له)،

كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، ونسأل الله لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا، وزارهم زيارة العبادة في قضاء الحوائج والاستعانة بهم، ....

الشَّرْح

الميت بحاجة إلى دعوة تلحقه من رجل صالح يدعو له، فهو بحاجة إلى هذا، لا أنه يُدعى هو ويُستغاث به هو.

قوله: (كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، ونسأل الله لهم العافية والمغفرة)، أمرنا النبي ﷺ إذا مررنا بالمقابر أن نقول: «**السَّلَامُ على أَهْلِ الدِّيَارِ من الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ الله الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّا إن شَاءَ الله بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**»(١)، «**اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ ولا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ**»(٢)، يدعو لهم ولا يدعوهم؛ لأنهم بحاجة إلى هذا.

قوله: (فعكس المشركون هذا، وزارهم زيارة العبادة في قضاء الحوائج والاستعانة بهم)، بدل أن يدعو لهم دعاهم واستغاث بهم.

وزيارة القبور لأمرين:

الأمر الأول: الاعتبار والاتعاظ، قال ﷺ: «**زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ**»(٣).

الأمر الثاني: أنه يدعو للأموات بالرحمة والمغفرة؛ لأنهم بحاجة إلى هذا.

والمشركون عكسوا هذا، فجعلوا الزيارة الشركية بدل الزيارة الشرعية، فصاروا يزورون القبور للتبرك بها والاستغاثة بالأموات، وطلب قضاء الحوائج من الأموات، وهذا عكس الزيارة الشرعية.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٤).
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٥٤٦)، وانظر: صحيح ابن حبان (٣٠٧٣).
(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٦٩).

وجعلوا قبورهم أوثانًا تعبد، وسمَّوا قصدها: «حجًّا»، واتخذوا عندها الوقفة، وحلق الرؤوس، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، ....

الشَّرْح

قوله: (وجعلوا قبورهم أوثانا تُعبد)، من دون الله، وقد استعاذ النبي ﷺ بربه، فقال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ الله على قَوْم اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١)، فإذا دُعي الميت وتُبرك به، ورُجي أن ينفعً أو يضر فقد صار وثنًا، وإن كان القبر لنبي أو لرجل صالح، حتى قبر النبي ﷺ إذا اعتقد فيه هذا الاعتقاد صار وثنًا.

قوله: (وسموا قصدها: حَجًّا)؛ لأن لزيارتهم لها مناسك؛ كمناسك الحج.

قوله: (واتخذوا عندها الوقفة، وحلق الرؤوس)؛ أي: عملوا عند القبور أعمال الحج فيقفون عندها، ويحلقون رؤوسهم مثل ما يحلق المؤمن رأسه في الحج.

قوله: (فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى التنقص بالأموات)؛ فقد جمعوا بين جريمتين:

الأولى: الشرك بالله ﷻ.

الثانية: معاداتهم لأهل التوحيد، ولأولياء الله ﷻ، والدعاة إلى الله؛ لأنهم ينهون عن الشرك.

قوله: (وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك)، إذا قلنا لهم: إن الولي لا يملك لنفسه شيئًا، قالوا: هذا تنقص للأولياء، هذا وهم يتنقصون الخالق، ويشركون بالله.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٢٤١).

وأولياءه الموحدين المخلصين له الذين لم يشركوا به شيئًا بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم.

الشَّرْح

وتنقصوا (**أولياءه الموحدين المخلصين له الذين لم يشركوا به شيئًا بذمهم ومعاداتهم**)، تنقصوا الله بإشراكهم به، وتنقصوا أولياء الله بذمهم وتلقيبهم بالألقاب الشنيعة؛ فهاتان جريمتان.

الأولى أنهم (**تنقصوا من أشركوا به غاية التنقص**) حيث رفعوه فوق منزلته، فأنت لما تمدح شخصًا بما ليس فيه وتنزله في منزلة فوق منزلته أليس هذا من باب التنقص له؟.

فهم فعلوا ثلاث جرائم:

الأولى: تنقصوا الله سبحانه؛ حيث أشركوا به.

الثانية: تنقصوا عباد الله الصالحين؛ حيث رفعوهم فوق منزلتهم.

الثالثة: وقد كذبوا عليهم: (**إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا**)، والأولياء والصالحون على الحقيقة ما رضوا بهذا؛ بل ماتوا وهم يجاهدون أهله ويحذّرون منه، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم.

قوله: (**وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان**)؛ أي: الذين يعبدون القبور هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وليس أعداؤهم فقط في الجاهلية، بل حتى في الإسلام.

قوله: (**وما أكثر المستجيبين لهم**)؛ أي: ما أكثر المستجيبين لهم والمتأثرين بهم، وما أكثر من يتنقص أهل التوحيد وأهل الدعوة إلى الله.

ولله در خليله إبراهيم حيث يقول: ﴿...وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم] وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرّد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله... انتهى كلام ابن القيم.

فانظر كيف صرَّح بأن ما يفعله هؤلاء المعتقدون في الأموات

الشَّرح

قوله: (ولله در خليله إبراهيم حيث يقول: ﴿...وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾) فما أكثر من يعبد الأصنام في هذه الأمة؛ لأن من عبد القبور فهو مثل من يعبد الأصنام.

وغرض الإمام الشوكاني من هذا النقل عن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الرد على الذين يقولون: إن ابن القيم يقول: إن دعاء الأموات والاستغاثة بهم من الشرك الأصغر، وأنه من الكفر العملي، وقد كذبوا على ابن القيم، فالإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ نقل كلام ابن القيم ليرد عليهم.

قوله: (فانظر كيف صرَّح بأن ما يفعله هؤلاء المعتقدون في الأموات...)، كان المعارضون لعقيدة التوحيد والمؤيدون لعبادة القبور قد لبّسوا على الإمام الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ، وأنه تراجع عن القصيدة التي أرسلها إلى الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ يؤيده، ولو فرض أنه تراجع عن هذه القصيدة بسبب ما لبّسه عليه مربد التميمي؛ فإنها تبقى رسالته «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وهؤلاء لفّقوا نقولًا ليست في صالحهم بل فضحتهم؛ من ذلك أنهم نقلوا عن ابن القيم أنه يرى أن عبادة القبور والاستغاثة بالأموات أنها كفر عملي وشرك أصغر؛ فالإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ نقل كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة وصرّح أن فعلهم هذا شرك أكبر، وأنه أصل كفر العالم، ففضحهم الله بهذا الكذب على الإمام الصنعاني وعلى الإمام ابن القيم، فهذا كلام ابن القيم وهذا نصّه الذي نقله عنه الشوكاني.

هو شرك أكبر، بل أصل شرك العالم، وما ذكره من المعاداة لهم، فهو صحيح: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]........................

الشَّرح

يقول ابن القيم: **(بل أصل شرك العالم)** فأصل شرك العالم هو الغلو في الصالحين كما حصل لقوم نوح، أنهم غلوا في الصالحين: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، فعبدوهم من دون الله، فبعث الله إليهم نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ينكر عليهم هذا الشرك ويدعوهم إلى التوحيد، هذا أصل شرك العالم، أول ما بدأ الشرك في العالم هو بسبب الغلو في القبور، فكيف يُقال: إن الغلو في القبور من الشرك الأصغر، وأنه من الكفر العملي!.

قوله: (وما ذكره من المعاداة لهم، فهو صحيح)؛ فالواجب معاداة من يعبدون القبور، ويستغيثون بالأموات، الواجب معاداتهم كما ذكر ابن القيم بما نقله عنه، وهذا مأخوذ من الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فالإيمان يقتضي هذا، ومن لم يكن كذلك فليس بمؤمن، إذا تساوى عنده التوحيد والشرك، أو أنه لا يكفّر المشركين، قال الله جلَّ وعلا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

وقوله تعالى في مطلع سورة (الممتحنة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فدل على أن المشركين أعداء الله، والآية معروف سبب نزولها، وأنها في مشركي أهل مكة، حينما أراد بعض الصحابة أن يجعل له يدًا عندهم؛ فأرسل إليهم يخبرهم عن خروج الرسول ﷺ إليهم لقتالهم، بزعمه أن هذا لا يضر الرسول وهو ينفعه هو عندهم، وهذا اجتهاد منه، فأنكر الله ذلك

إلى قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال شيخ الإسلام تقي الدين في «الإقناع»: «إن من دعا ميتًا، وإن كان من الخلفاء الراشدين فهو كافر، وإن من شك في كفره فهو كافر»(١).

الشَّرْح

فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فاعتبر هذا موالاة لهم، فلولا أن هذا الصحابي اعتذر وبيّن مقصده، وأنه لم يقصد مودتهم، وإنما قصد أن يتخذ عندهم يدًا تقي ذريته وأولاده في مكة وما فعل هذا عن سوء اعتقاد، ولا عن نفاق، ولا كفر بعد إيمانه، فقَبِل الرسول ﷺ معذرته نظرًا لأنه صحابي ولأنه حضر وقعة بدر، فالرسول قَبِل عذره، فدل على أن موالاة الكفار كفر.

قوله: (إلى قوله)؛ أي: عن إبراهيم عليه السلام، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هذا خطاب للمؤمنين عمومًا، ولحاطب بن أبي بلتعة خصوصًا، ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: الذين معه على الإيمان، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ إلى متى؟ ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

قوله: (في الإقناع)؛ يعني: كما نقله عنه الموفق في كتاب «الإقناع» في الفقه، في باب الردة.

قول شيخ الإسلام: **(إن من دعا ميتًا، وإن كان)**؛ أي: هذا الميت، **(من الخلفاء الراشدين)** الذين هم أصلح الناس، لو أن رجلًا استغاث بهم بعد موتهم لصار كافرًا فكيف بغيرهم؟ ثم قال: **(وإن من شك في كفره فهو كافر)**؛

---

(١) انظر: الإقناع (٤/ ٢٩٧)، والغنية عن الكلام وأهله (ص٧٣).

وقال أبو الوفاء ابن عقيل في «الفنون»: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع

الشَّرْح

لأن من لم يكفر الكفار أو شك في كفرهم فهو كافر مثلهم؛ لأنه استساغ الكفر والشرك.

قوله: (أبو الوفاء ابن عقيل) هو من كبار الحنابلة، ومن تلاميذ القاضي أبي يعلى، وله مؤلفات في المذهب، قال في كتابه **(الفنون)**، وهو كتاب كان يقيد فيه الفوائد التي تخطر بباله، أو تمر عليه، وقد بلغ فيما ذكروا ثلاثمائة مجلد أو أربعمائة مجلد، ولكنه مع الأسف مفقود الآن، لا يوجد منه إلا قطع يسيرة.

يقول: إن القبوريين لما استثقلوا الأوامر الشرعية والتوحيد والعقيدة أحدثوا شرائع من عندهم بديلة عنها وداوموا عليها، وهذه طبيعة المشركين والمنحرفين، تجد عباد القبور الآن عندهم كتب في ترويج دعاء الأموات، والاستغاثة بالأموات، وهي هباء منثور، ليس فيها دليل صحيح، بل فيها إما أحاديث مكذوبة، وإما قصص وحكايات عن الولي الفلاني، وإما رؤى ومنامات، أنه رُؤي في مكان الفلاني كذا وكذا، هذه أدلتهم، شبهات محشوة بها كتبهم.

قوله: (لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام) التكاليف: يعني الأوامر الشرعية، تثقل على كثير من الناس؛ كالصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه التكاليف تثقل على كثير من الناس خصوصًا على ضعاف الإيمان، فيعدلون عنها إلى أوضاع وضعوها هم لأنفسهم من البدع والمحدثات، يرضونها وتسهل عليهم لأنها من وضعهم، وليست من وضع غيرهم، ويزينها الشيطان لهم، وتزينها نفوسهم الأمارة بالسوء، فلا تثقل عليهم البدع والمحدثات، وإنما تثقل عليهم السُّنن.

وضعوها، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل لي كذا وكذا، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى» انتهى.

الشَّرْح

يقول ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهم عندي كفار بهذه الأوضاع)**، لأنهم استبدلوا بها كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وهذه طريقة النصارى واليهود، حرّفوا التوراة والإنجيل، وأحدثوا عبادات من عندهم ما أنزل الله بها من سلطان؛ فسهلت عليهم كذلك هؤلاء المبتدعة في هذه الأمة.

قوله: **(مثل: تعظيم القبور)**، صرَّح ابن عقيل أن تعظيم القبور كفر، فقال: **(هم عندي كفار)** كالذين يعظمون القبور ويغلون فيها ويدعون الأموات ويستغيثون بهم.

قوله: **(وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل لي كذا وكذا)**؛ أي: يرسلون رسائل مكتوبة إلى القبور، يرسلونها مع الوافدين إليها، فالذي لا يستطيع الذهاب إلى القبور يرسل مع الوافد إليها رسالة إلى الميت: إني أريد كذا وكذا، فيأتي بها المندوب، ويضعها في نافذة القبر، ويظن أنها ستُقضى حاجته بهذا.

قوله: **(وإلقاء الخرق على الشجر)** كما هو موجود الآن، في جبل عرفة ويعقدون الخرق على الشجر التي على جبل عرفة، بزعمهم أنه تُقضى حاجاتهم بهذه الطريقة، وهذه أوضاع شركية ورثوها عن أباءهم وأجدادهم بسبب الجهل، وبسبب اتّباع الضالين والتقليد الأعمى، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] إلى غير ذلك من الشبهات.

قوله: **(اقتداء بمن عبد اللات والعزى)**؛ اللات صنم في الطائف والعزى شجرات حول عرفات يعبدونها من دون الله.

قوله: **(انتهى)**؛ أي: كلام ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إغاثة اللهفان» في إنكار تعظيم القبور: وقد آل الأمر بهؤلاء المشركين إلى أن صنّف بعض غلاتهم كتابًا سماه: «مناسك المَشاهد»، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عبادة الأصنام(١). انتهى، وهذا الذي أشار إليه هو ابن المفيد.

الشَّرح

قوله: (وقال ابن القيم) هذا نقل آخر عن ابن القيم، فالشوكاني ينقل عن هؤلاء الأئمة من مختلف المذاهب ما يبطل قول هؤلاء الطغام الذين كذبوا على الصنعاني، وقالوا: إنه يقول: إن هذا شرك أصغر، وأنه كفر عملي.

قوله: (إغاثة اللهفان)؛ أي: «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» وهو كتاب جليل، وفيه أن من ترك عبادة الله ابتلي بعبادة الطواغيت، وهم لا يتوحدون على صنم واحد، فكل واحد له صنم خاص، كما أن معبودات المشركين كثيرة لا تحصر، أما المسلمون فيعبدون إلهًا واحدًا، قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿...ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف]، فلما تركوا عبادة الله ابتلوا بعبادة الطواغيت، والأشجار، والأحجار، والأطماع، والشهوات، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

هربوا من الرق الذي خلقوا له ... فبُلوا برق النفس والشيطان

قوله: (وهذا الذي أشار إليه هو ابن المفيد)؛ أي: الذي أشار إليه ابن القيم بقوله: **(صنف بعض غلاتهم كتابًا سماه: «مناسك المشاهد»)** هو ابن المفيد الرافضي الخبيث.

---

(١) انظر إغاثة اللهفان (١/ ١٩٧) وذكر ابن القيم بأن اسم الكتاب: مناسك حج =

وقال في «النهر الفائق»: «اعلم أن الشيخ قاسمًا، قال في «شرح درر البحار»: إن النذر الذي يقع من أكثر العوام بأن يأتي إلى قبر بعض الصلحاء قائلًا: يا سيدي فلان إن رُدّ غائبي، أو عوفي مريضي فلك من الذهب أو الفضة أو الشمع أو الزيت كذا باطل إجماعًا لوجوه..»، إلى أن قال: «ومنها ظن أن الميت يتصرف في الأمر، واعتقاد هذا كفر»(١) انتهى.

وهذا القائل هو من أئمة الحنفية، وتأمل ما أفاده من حكاية

الشَّرْح

قوله: (وقال في النهر الفائق)، هو «النهر الفائق شرح كنز الدقائق» من كتب الحنفية، وهناك «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» للزيلعي.

قوله: (اعلم أن الشيخ قاسما) من علماء الحنفية.

قال: إنهم يقولون: **(يا سيدي فلان إن رد غائبي، أو عوفي مريضي فلك من الذهب، أو الفضة، أو الشمع، أو الزيت كذا...)** فإذا شُفي مريضه أو قضيت حاجته؛ فإنه يفي بهذا القول، ويرسل الأموال، ولكن أين تذهب هذه الأموال؟ إلى السدنة الذين على القبور، يتعيشون من ورائها فيكذبون على الناس، ويقولون: نبشرك أن فلانًا قبل نذرك، قبل صدقتك، قبل تبرعك، وهم الذين يأكلونها، نسأل الله العافية، فهي مصائد للطامعين والمستثمرين.

قوله: (وهذا القائل)؛ أي: الشيخ قاسم، **(هو من أئمة الحنفية)**.

= المشاهد. قال عنه الإمام الذهبي في السير (١٧/ ٣٤٤): «عَالِمُ الرَّافِضَة، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، الشَّيْخُ المُفِيْد، وَاسْمُهُ: مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ النُّعْمَانِ البَغْدَادِيُّ، الشِّيْعِيُّ، وَيُعْرَفُ: بِابْنِ المُعَلِّمِ كَانَ صَاحِبَ فُنُوْنٍ وَبُحُوثٍ وَكَلَام، وَاعْتِزَالٍ وَأَدَبٍ»، توفي سنة ٤١٣هـ، وانظر: منهاج السُّنَّة النبوية (١/ ٤٧٦)، ومجموع الفتاوى (٤/ ٥١٧).

(١) انظر: النهر الفائق (٢/ ٤٢).

الإجماع على بطلان النذر المذكور، وأنه كفر عنده مع ذلك الاعتقادات.

وقال صاحب «الروضة»[١]: «إن المسلم إذا ذبح للنبي ﷺ كفر» انتهى.

وهذا القائل من أئمة الشافعية، وإذا كان لسيد الرسل ﷺ كفرًا عنده، فكيف بالذبح لسائر الأموات؟!.

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الأربعين له»: «من دعا غير الله فهو كافر» انتهى.

الشَّرح

قوله: (وقال صاحب «الروضة»)، من أئمة الشافعية، وهو الإمام النووي، ومراد الشوكاني أن يعدد ويذكر المذاهب الأربعة التي أنكرت هذا.

قوله: (إن المسلم إذا ذبح للنبي ﷺ كفر)، فكيف بغيره؟ الذبح لرسول الله كفر، لأن النبي لا يُعبد، ولا يُذبح له، ولا يُنذر له، لا فرق بين النبي وغيره، فالعبادة حق لله عَزَّ وَجَلَّ وحده لا شريك له، والنبي ﷺ جاء بإنكار الشرك والجهاد عليه، كيف يرضى أنه يعبد بعد موته.

قوله: (وهذا القائل من أئمة الشافعية) وهو النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (وإذا كان لسيد الرسل ﷺ كفرًا عنده، فكيف بالذبح لسائر الأموات؟!)؛ أي: إذا كان من ذبح للنبي ﷺ يكفر؛ فكيف بمن ذبح لغير النبي ﷺ.

قول ابن حجر: **(من دعا غير الله فهو كافر)**؛ لأنه مشرك، وكل مشرك فهو كافر.

---

(١) انظر: روضة الطالبين (٣/ ٢٠٥).

وقال شيخ الإسلام تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ في «الرسالة السُّنية»: «إن كل من غلا في نبي[(١)] أو رجل صالح، وجعل فيه نوعًا من الإلٰهية، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني أو انصرني أو ارزقني أو أجرني وأنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال يُستتاب صاحبه، فإن تاب نجا وإلا قُتل، فإن الله إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب ليُعبد وحده ولا يجعل معه إلهًا آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل: المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ويقولون:

الشَّرح

قوله: (وقال شيخ الإسلام تقي الدين) من الحنابلة.

قوله: (فكل هذا شرك وضلال)؛ أي: شرك وضلال يخرج من الملة.

قوله: (يُستتاب صاحبه، فإن تاب نجا وإلا قُتل)، مما يدل على أن هذا كفر أكبر يخرج من الملة.

قوله: (والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل: المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا.. إلخ) ليس شركهم في الربوبية، وإنما شركهم في توحيد العبادة.

قوله: (لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، أو تنبت النبات)؛ لأنهم يعترفون أن هذا لله وهو من توحيد الربوبية، وشركهم إنما هو في توحيد الألوهية.

قوله: (وإنما كانوا يعبدونهم..)؛ أي: وإنما وقع شركهم في الألوهية.

(١) في مجموع الفتاوى: «فكُلُّ مَنْ غَلَا فِي حَيٍّ».

إنما ﴿نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، فبعث الله رسله تنهى أن يُدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة، ولا دعاء استغاثة. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾

الشَّرح

وذلك في قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ أي: ما عبدناهم لأنهم يخلقون ويرزقون، إنما عبدناهم ليقربونا إلى الله زلفى، فهم يزعمون أنهم وسطاء بينهم وبين الله، وشفعاء لهم عند الله كما يقولون.

قوله: (فبعث الله رسله تنهى أن يُدعى أحد من دونه) والدعاء من أنواع توحيد الألوهية قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

قوله: (لا دعاء عبادة، ولا دعاء استغاثة)؛ ولا غيرهما؛ لأن الدعاء على قسمين:

- دعاء عبادة وهو الثناء على الله.
- ودعاء مسألة وهو طلب الحوائج واستغاثة.

فالأصنام والأحجار والأشجار والقبور لا تُدعى مع الله، لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، وسورة (الفاتحة) أولها دعاء عبادة وآخرها دعاء مسألة: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ هذا دعاء عبادة؛ لأنه ثناء على الله، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ هذا دعاء مسألة، فهي اشتملت على دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

والله تحدى المشركين، في أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لا تملك كشف الضر ولا تحويله عنهم، إنما هذا لله ﷻ، **فقال سبحانه:** ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ وهو إزالته، ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]؛

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ الآية [الإسراء]. قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح وعزيرًا والملائكة...»[1].

الشَّرْح

يعني: نقله من مكان إلى مكان، أو من عضو إلى عضو، أو من إنسان إلى إنسان، فلا ينقل المرض إلا الله ﷻ، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾؛ أي: أولئك الذين يعبدهم المشركون، وهم: عيسى، وعزير، وغيرهم من الانبياء والأولياء والصالحين هم عباد لله، محتاجون لله، ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ فعيسى وعزيز والملائكة وكل مخلوق محتاج إلى الله، يدعون الله، يبتغون إليه الوسيلة، يعني القرب منه ﷻ، فالذي يقرب إلى الله هو التوحيد والعبادة، والقبوريون يقولون: الوسيلة أن تجعل بينك وبين الله واسطة، تتوسل إليه بها، وهذا باطل لأن الوسيلة هي العبادة والطاعة، سميت وسيلة؛ لأنها تقرب إلى الله ﷻ، وليس الذي يقرب إلى الله الأشخاص، والشفعاء، والأولياء والصالحين، فالذي يقرب إلى الله هو الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ يعني: القرب منه ﷻ بطاعته.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ فهم زعموا أن هؤلاء هم الذين يجيبون دعاءهم وحوائجهم، وهذا زعم باطل لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿...فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾؛ أي: الذين يدعوهم المشركون، وهم عزير، وعيسى، والأولياء والصالحين، حتى الملائكة هم بحاجة إلى الله، ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء]، فهم يرجون الله

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦).

ثم قال في ذلك الكتاب: «وعبادة الله وحده لا شريك له هي أصل الدين، وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل، وأنزل الله به الكتب قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وكان ﷺ يحقق التوحيد ويعلمه أمته حتى قال رجل: «مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ»، قال: «**أجعلتني لِلَّهِ نِدًّا؟ قل: مَا شَاءَ اللهُ وحده**»

الشَّرْح

ويخافونه، فهم بحاجة إلى الله ﷻ، وهم رسل وأنبياء وصالحون؛ كلهم عباد لله يرجون رحمته ويخافون عذابه.

قوله: (ثم قال)؛ أي: الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ دليل على أن جميع الأنبياء الذين بعثوا إلى الأمم كلهم يأمرون بعبادة الله وترك عبادة ما سواه، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فلم يقل: اعبدوا الله فقط بل قال: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ لأن العبادة لا تنفع مع الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ فـ«لا إله إلا الله» قد أرسل الله بها جميع الرسل، ومعنى (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (وكان ﷺ يحقق التوحيد)، كان الرسول ﷺ يحقق التوحيد، ويحمي جانبه، ويمنع الوسائل المفضية إلى الشرك، حتى في الأمور الصغيرة، لما قال له رجل: **(مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ)**، قال له: **(أجعلتني لله نِدًّا؟)**؛ أي: شريكًا، **(قل: مَا شَاءَ اللهُ وحده)**، ولما جاءه الصحابة يستغيثون به، وقالوا: «قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ من هذا الْمُنَافِقِ»، فقال رسول اللهِ ﷺ: «**إنه لا**

ونهى عن الحلف بغير الله وقال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**». وقال ﷺ في مرض موته: «**لَعَنَ الله الْيَهُودَ والنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» يحذر ما فعلوا، وقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبد**».

الشَّرْح

يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله ﷻ»، خشي عليهم من الشرك والغلو، فمنع هذه اللفظة، وهي الاستغاثة بالرسول ﷺ حماية للتوحيد، مع أنه قادر على أن يغيثهم من المنافق، وأن يردع المنافق، ولكن هذه الكلمة لم يُقرّها؛ لأنها تكون وسيلة إلى الاستغاثة الشركية، فحمى التوحيد، وسد الطرق المفضية إلى الشرك، ولما قالوا له: «يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَيَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا» قال: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أو بَعْضِ قَوْلِكُمْ، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**»، فهو سيد ﷺ وهو سيد الرسل، وأفضل الرسل، قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ**»، فهو سيد ولكن خشي عليهم من الغلو، لما قالوا له: «وَيَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا»، خشي عليهم من الغلو؛ فمنعهم منذ لك تحقيقًا للتوحيد.

قوله: (ونهى عن الحلف بغير الله) مع أن الحلف بغير الله شرك أصغر، ومع هذا نهى عنه.

قوله: (وقال ﷺ في مرض موته «لَعَنَ الله الْيَهُودَ والنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ») يعني يصلون عندها تعظيمًا لها، أو يبنون عليها المساجد، فقال ﷺ: (**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبد**)، والوثن: اسم عام لكل ما يُعبد من دون الله من حجر أو شجر أو قبر، بخلاف الصنم: فإنه يطلق على ما كان على صورة إنسان أو حيوان، فالنبي ﷺ دعا ربه ألا يكون قبره وثنًا، فاستجاب الله دعاءه وحمى الله قبره ﷺ؛ قال ابن قيم رحمه الله:

فأجاب ربُّ العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثةِ الجدرانِ
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزةٍ وحمايةٍ وصيانِ

وقال ﷺ: «**لَا تَتخذوا قَبْرِي عِيدًا، ولا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عليَّ، فَإن صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**». ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يُشرع بناء المساجد على القبور، ولا الصلاة عندها، ....

الشَّرح

فحماه بالجدران حتى لا يراه الناس، ولا يَصِلون إليه.

قوله ﷺ: («**لَا تَتخذوا قَبْرِي عِيدًا**»)، يعني تترددون عليه، فالعيد: هو الشيء الذي يتكرر ويُزار، ولذلك الصحابة ما كانوا كلما دخلوا المسجد النبوي يذهبون ويسلمون على الرسول ﷺ، وإنما كانوا يفعلون هذا عندما يرجعون من سفر فقط؛ لأنهم لو فعلوا هذا وترددوا عليه صار عيدًا، والرسول ﷺ قال: «**لَا تَتخذوا قَبْرِي عِيدًا**»؛ أي: تكررون زيارته، وإنما هذا في حق من جاء من سفر، وأما غيره فإنه يكتفي بالصلاة والسلام عليه في أي مكان.

قوله ﷺ: («**ولا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»)، أي تحرموها من الصلاة فيها؛ كصلاة الليل والتهجد، ومن تلاوة القرآن وذكر الله فتصير مثل القبور، بل تُعمر البيوت بطاعة الله ﷻ.

قوله ﷺ: («**وَصَلُّوا عليَّ، فَإن صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**») فلا حاجة إلى أن تذهب لقبر الرسول ﷺ وتقول: أنا أريد أن أصلي عليه، صل عليه ولو أنك في المشرق أو المغرب، فإذا صليت وسلمت على الرسول ﷺ في أي مكان بلغه ذلك، فلا حاجة إلى الذهاب إليه والتردد على قبره؛ لأن هذا يُفضي إلى الغلو في قبره ﷺ.

قوله: (ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يُشرع بناء المساجد على القبور)؛ لأن بناء المساجد عليها وسيلة لعبادتها.

قوله: (ولا الصلاة عندها) وكذا الصلاة عندها من غير بناء، فلا تأتي عند قبر وتصلي عنده؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.

وذلك لأن من أكثر الأسباب لعبادة الأوثان كان تعظيم القبور؛ ولهذا اتفق العلماء على أنه من سلَّم على النبي ﷺ عند قبره أنه لا يتمرغ بحجرته، ولا يقبّلها؛ لأنه إنما يكون لأركان بيت الله، فلا يشبّه بيت المخلوق ببيت الخالق، كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملًا إلا به، ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء]؛

الشَّرح

قوله: (وذلك لأن من أكثر الأسباب لعبادة الأوثان كان تعظيم القبور) كتعظيمها بالبناء عليها أو بالصلاة أو الدعاء عندها.

قوله: (اتفق العلماء على أن من سلَّم على النبي ﷺ عند قبره أنه لا يتمرغ بحجرته، ولا يقبّلها)؛ أي: فمن جاء ليسلم على الرسول ﷺ قادمًا من سفر لا يزيد على السلام عليه، ولا يتمسح بحجرته، ولا يتمرغ على أعتابها.

قوله: (لأنه إنما يكون لأركان بيت الله)؛ أي: الاستلام والمسح يكون لأركان بيت الله العتيق، وهما الحجر الأسود والركن اليماني، أما الركنان الشاميان فإنهما ليسا على قواعد إبراهيم، فهما داخلان في الكعبة؛ ولذلك لا يمسحان ولا يقبلان.

قوله: (فلا يشبه بيت المخلوق ببيت الخالق) وهو الكعبة المشرفة.

قوله: (كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملًا إلا به، ويغفر لصاحبه)، فالله لا يغفر للمشرك، **(قال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾) لمن كان من

ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه، وأعظم آية في القرآن آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال ﷺ: «**مَنْ كان آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلٰه إلا الله دَخَلَ الجنة**»، والإلٰه هو الذي يألهه القلب عبادة له، واستغاثة به، ورجاء له وخشية وإجلالًا...»[(١)] انتهى.

الشَّرْح

أهل التوحيد، الذين عندهم ذنوب ولكنهم موحدون، هؤلاء على رجاء أن يغفر الله لهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

قوله: (ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام، وأعظمه) أعظم الكلام وأفضل الكلام كلمة التوحيد (لا إلٰه إلا الله)؛ لأنها تتضمن إخلاص العبادة لله، وترك عبادة ما سواه.

قوله: (وأعظم آية في القرآن آية الكرسي)؛ لما فيها من وصف الله بالكمال وتنزيهه عن النقائص والعيوب.

قوله ﷺ: (مَنْ كان آخِرُ كَلامِهِ: لا إلٰه إلا الله دَخَلَ الجنة»)؛ ولهذا يستحب تلقين المحتضر: (لا إلٰه إلا الله)، قال ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ**»؛ أي: المحتضرين، «**لَا إلٰه إلا الله، مَنْ كان آخِرُ كَلَامِهِ (لَا إلٰه إلا الله) دَخَلَ الجنة**»، مما يدل على فضل هذه الكلمة العظيمة.

قوله: (والإلٰه هو الذي يألهه القلب عبادة له، واستغاثة به، ورجاء له وخشية وإجلالًا) الإلٰه من التأله والتعبد، (يألهه القلب)؛ يعني: يحبه من الوله، وهو المحبة؛ فالإله هو المعبود المحبوب.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩٧) وما بعدها.

وقال أيضًا شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: «اقتضاء الصراط المستقيم» في الكلام على قوله تعالى: ﴿أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٧٣] إن الظاهر أن ما ذبح لغير الله سواء لُفظ به أو لم يُلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني من لحم، وقال فيه: باسم المسيح ونحوه. كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: بسم الله؛ فإن عبادة الله بالصلاة والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، والعبادة لغير الله أعظم من الاستعانة بغير الله، ....

الشَّرْح

قوله: (وقال أيضًا شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية...) نقل كلام الشيخ في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» أنه إذا نوى الذبيحة، مجرد النية لغير الله فهذا شرك ولو لم يتلفظ، لأن المدار على النية، ولأن النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»، فالنية أبلغ مما لو تلفظ وقال: باسم فلان أو باسم المسيح أو باسم الولي الفلاني؛ فالنية أبلغ من القول.

قوله: (وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني من لحم، وقال فيه: باسم المسيح ونحوه) النصراني لو ذبح للحم لا للعبادة، وسمّى غير الله على ذبيحة اللحم، فهذا حرام؛ لأنه مما أُهل به لغير الله، فيشمله النهي.

قوله: (كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه بسم الله)؛ لأن الذبح لله لأجل العبادة توحيد، فإذا ذُبحت الذبيحة تقربًا إلى الله، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [الكوثر]، ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام]. وكذلك ما ذبحناه لأجل أكل اللحم فهذا مباح.

فلو ذبح لغير الله متقربًا إليه لحرم، وإن قال فيه: بسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، ومن هذا ما يفعل بمكة وغيرها من الذبح[(١)].

ثم قال في موضع آخر من هذا الكتاب: إن العلة في النهي عن الصلاة عند القبور ما يُفضي إليه ذلك من الشرك، ....

الشَّرْح

قوله: (فلو ذبح لغير الله متقربًا إليه لحرم، وإن قال فيه: بسم الله)؛ لأن هذا شرك.

قوله: (كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة) الذين يتظاهرون بالدين ويقولون: باسم الله على الذبيحة، وهم يقصدون بها غير الله، فهي حرام ولو ذكروا عليها اسم الله نظرًا للنية والقصد.

قوله: (وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال)؛ لأن الذبح لغير الله شرك.

قوله: (لكن يجتمع في الذبيحة مانعان) مانعان: أنها ذبيحة كافر، وأنها أُهلّ بها لغير الله.

قوله: (ومن هذا ما يُفعل بمكة وغيرها من الذبح) مما يفعله القبوريون؛ الذين يذبحون للأموات والأضرحة وللجن، يخافون من شرهم فيذبحون لهم، وغير ذلك من المقاصد؛ فالذبح لغير الله شرك أكبر.

قوله: (ثم قال في موضع آخر من هذا الكتاب...)، أي: ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر من كتاب «اقتضاء الصراط»: **(إن العلة في النهي عن الصلاة عند القبور ما يفضي إليه ذلك من الشرك)** فلا تجوز.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٩).

ذكر ذلك الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره، وكذلك الأئمة من أصحاب أحمد ومالك؛ كأبي بكر الأثرم عللوا بهذه العلة. . .اهـ[(١)].

وكلامه في هذا الباب واسع جدًّا، وكذلك كلام غيره من أهل العلم.

وقد تكلم جماعة من أئمة أهل البيت ـ رضوان الله عليهم ـ ومن أتباعهم في هذه المسألة بما يشفي ويكفي، ولا يتسع المقام لبسطه، وآخر من كان منهم نكالًا على القبوريين وعلى القبور الموضوعة على غير الصفة الشرعية مولانا الإمام المهدي العباس ابن الحسين بن القاسم[(٢)] رَحِمَهُ اللَّهُ،

الشَّرْح

قوله: (ذكر ذلك الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره، وكذلك الأئمة من أصحاب أحمد ومالك؛ كأبي بكر الأثرم عللوا بهذه العلة...اهـ) وهي أن هذا الفعل وسيلة إلى الشرك، وبهذا انتهى النقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله: (وكلامه في هذا الباب واسع جدًّا، وكذلك كلام غيره من أهل العلم) في تحريم الذبح لغير الله على أي صفة كان، وتحريم ذبائح الكفار والمشركين ولو ذكروا عليها اسم الله؛ نظرًا لأنهم كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، فذبائحهم نجسة.

قوله: (الإمام المهدي العباس ابن الحسين بن القاسم رَحِمَهُ اللَّهُ) هذا الإمام كان واليًا على اليمن، وقد هدم الأضرحة التي في مملكته في زمانه، التي تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا يجب على ولاة الأمور أن يهدموا هذه الأضرحة والمشاهد التي أضلت الناس، أما أفراد الناس فلا يجوز لهم هدم الأضرحة بدون سلطة؛ لأن هذا يفضي إلى شر أكبر وإلى فتنة، فلا يهدم الأضرحة إلا أهل السلطة وولاة الأمور إذا وفقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنهم إذا هدموها فلا أحد يعترض عليهم، وأما الأفراد فإذا هدموا شيئًا ثارت عليهم الناس وحصلت الفتنة، وربما تُعاد وتُبنى أحسن مما كانت من قبل.

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٠٠).

(٢) توفي سنة ١١٨٩هـ. انظر: البدر الطالع (١/ ٣١٠)، والأعلام للزركلي (٣/ ٢٦٠).

فإنه بالغ في هدم المشاهد التي كانت فتنة للناس، وسببًا لضلالهم، وأتى على غالبها، ونهى الناس عن قصدها والعكوف عليها فهدمها، وكان في عصره جماعة من أكابر العلماء توسلوا إليه برسائل، وكان ذلك هو الحامل له على نصرة الدين بهدم طواغيت القبوريين.

وبالجملة فقد سردنا من أدلة الكتاب والسنة فيما سبق ما لا يحتاج معه إلى الاعتضاد بقول أحد من أهل العلم، ولكنا ذكرنا ما حررناه من أقوال أهل العلم، مطابقة لما طلبه السائل ـ كثَّر الله فوائده ـ.

وبالجملة فإخلاص التوحيد، هو الأمر الذي بعث الله لأجله رسله، وأنزل به كتبه، وفي هذا الإجمال ما يُغني عن التفصيل، ولو أراد رجل أن يجمع ما ورد في هذا المعنى من الكتاب والسُّنَّة لكان مجلدًا ضخمًا.

الشَّرْح

قوله: (ولكنا ذكرنا ما حررناه من أقوال أهل العلم، مطابقة لما طلبه السائل) لأن رسالة «الدر النضيد» جواب لسؤال عن هذه الأمور، فبسط القول فيها، ورد على من نسب إلى الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ينكر على شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب جهاد وقتال هؤلاء.

قوله: (وبالجملة فإخلاص التوحيد، هو الأمر الذي بعث الله لأجله رسله، وأنزل به كتبه) كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]؛ يعني: لا يشركون بعبادته.

قوله: (ولو أراد رجل أن يجمع ما ورد في هذا المعنى من الكتاب والسنة لكان مجلدًا ضخمًا) وهذا مما يدل على أهمية هذا الأمر، ووجوب الاهتمام به وبيانه للناس وتوضيحه لهم، وكل ما تأخر الزمان صارت الفتنة

انظر فاتحة الكتاب التي تُكرر في كل صلاة مرات من كل فرد من الأفراد، ويفتتح بها التّالي لكتاب الله والمتعلم له، فإن فيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد في مواضع، فمن ذلك: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾؛ فإن علماء المعاني والبيان ذكروا أنه يُقدّر المتعلق متأخرًا ليفيد اختصاص البداية باسمه تعالى، لا باسم غيره، وفي هذا ما لا يخفى من إخلاص التوحيد، ومنها في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فإن التعريف يفيد أن الحمد مقصور على الله، واللام في ﴿لِلَّهِ﴾ تفيد اختصاص الحمد به، ومقتضى هذا أنه لا حمد لغيره أصلًا، وما وقع منه لغيره فهو في حكم العدم.

الشَّرح

أشد؛ لأنه يقل العلماء ويكثر أهل الضلال والجهال، فيحتاج الناس إلى بيان التوحيد دائمًا.

قوله: (انظر فاتحة الكتاب التي تُكرر...)، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة «مدارج السالكين»: إن القرآن كله في التوحيد، لأنه إما أمر بالتوحيد وبيان عاقبة أهله، أو نهي عن الشرك وبيان عاقبة أهله، وإما قصص عن الأمم التي خالفت التوحيد، أو بيان من كانوا على التوحيد ونصرهم الله ومكّن لهم في الأمم، وإما أمر ونهي وتشريعات، وهي من حقوق التوحيد، وإما وعد ووعيد، والوعد جزاء التوحيد، والوعيد جزاء الشرك، فالقرآن كله في التوحيد بهذا الاعتبار.

قوله: (انظر فاتحة الكتاب التي تُكرر في كل صلاة مرات) فاتحة الكتاب فيها بيان أنواع التوحيد، وفيها بيان الضلال وأهله من اليهود والنصارى وأتباعهم، وفيها الرد على الملاحدة الذين ينكرون البعث والجزاء والحساب،

وقد تقرر أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري لقصد التعظيم، فلا ثناء إلا عليه، ولا جميل إلا منه، ولا تعظيم إلا له، وفي هذا من إخلاص التوحيد ما ليس عليه مزيد. ومن ذلك قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ أو {مَلِكِ يومِ الدِّين} على القراءتين السبعيتين،

الشَّرْح

ولذلك تُسمى: أمّ القرآن، وأمّ الشيء هو الذي يرجع إليه الشيء، فالقرآن كله يرجع إلى تفاصيل ما ذكر في الفاتحة.

قوله: (وقد تقرر أن الحمد...)، الحمد لا يكون إلا على الجميل الاختياري، أما الجميل الخِلقي فهذا لا يُحمد عليه صاحبه، وإنما يمدح بذلك؛ إنما يُحمد الإنسان على أفعاله وعلى كرمه، وعلى صلاحه، أما أن يُحمد الإنسان لأنه جميل، أو لأنه حسن الخلقة، فهذا لا يُحمد عليه؛ لأنه ليس من صنعه.

قوله: (فلا ثناء إلا عليه، ولا جميل إلا منه، ولا تعظيم إلا له، وفي هذا من إخلاص التوحيد ما ليس عليه مزيد) هذا كله في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ وقد تكلم ابن القيم في أول «مدارج السالكين» على الفاتحة بكلام جميل جدًّا.

قوله: (ومن ذلك قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾) أو ﴿مَلِكِ يَومِ الدِّينِ﴾ على القراءتين السبعيتين) ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ بالألف، وفي قراءة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وفي قراءة ﴿مَلَكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾، والمعنى واحد في جميع القراءات؛ أنه يوم القيامة لا مُلك إلا لله ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: ١٦]، فإذا قامت القيامة يقول الله جلَّ وعلا: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ولا أحد يدّعي شيئًا، ولا أحد يجيب، ثم يجيب نفسه ﷻ فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر]، ففي يوم القيامة الملك لله وحده، أما في الدنيا فهناك ملوك وهناك رؤساء وهناك أمراء، لكن في الآخرة لا، ليس هناك ملوك ولا أمراء.

والدين في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ المراد به الحساب؛ لأن الله يحاسب فيه الخلائق ويجازيهم.

فإن كونه المالك ليوم الدين يفيد أنه لا ملك لغيره، فلا ينفذ إلا تصرفه لا تصرف أحد من خلقه، من غير فرق بين نبي مرسل، وملك مقرب، وعبد صالح. وهذا معنى كونه {مَلِكِ يومِ الدين}، فإنه يفيد أن الأمر أمره، والحكم حكمه، ليس لغيره معه أمر ولا حكم، كما أنه ليس لغير ملوك الأرض معهم أمر ولا حكم، ولله المثل الأعلى.

وقد فسر الله هذا المعنى الإضافي المذكور في فاتحة الكتاب في موضع آخر من كتابه العزيز فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار]. ومن كان يفهم كلام العرب ونكته وأسراره كفته هذه الآية عن غيرها من الأدلة، واندفعت لديه كل شبهة.

الشَّرح

قوله: (فإن كونه المالك ليوم الدين يفيد أنه لا ملك لغيره) في يوم القيامة، وحتى في الدنيا فإنه وإن ملك بعض الملوك فملكه مستعار لا يدوم، وليس هو الذي استحقه بنفسه وإنما الله هو الذي منحه إياه، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]، فالملك الذي بيد الملوك في الدنيا هو من الله ﷻ، وإذا شاء الله سلبه منهم.

قوله: (من غير فرق بين نبي مرسل، وملك مقرب، وعبد صالح) كل الناس يوم القيامة يخضعون لملك الله ﷻ، كلٌّ له عمله.

قوله: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ الأمر يومئذٍ لله، ليس لأحد أمر.

قوله: (ومن كان يفهم كلام العرب ونكته وأسراره كفته هذه الآية عن غيرها من الأدلة، واندفعت لديه كل شبهة) وهي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ فإنه يخلص العبادة لله حتى ينجوا من أهوال هذا اليوم.

ومن ذاك: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فإن تقديم الضمير قد صرّح أئمة المعاني والبيان وأئمة التفسير أنه يفيد الاختصاص، فالعبادة لله سبحانه، ولا يشاركه فيها غيره ولا يستحقها، وقد عرفت أن الاستغاثة والدعاء والتعظيم والذبح والتقرب من أنواع العبادة، ومن ذلك قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فإن تقديم الضمير هاهنا يفيد الاختصاص كما تقدم، وهو يقتضي أنه لا يشاركه غيره في الاستعانة في الأمور التي لا يقدر عليها غيره.

الشَّرْح

قوله: (ومن ذلك: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾) لم يقل: نعبدك، بل قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، قدم المعمول على العامل لإفادة الاختصاص؛ أي: لا نعبد سواك.

قوله: (وقد عرفت أن الاستغاثة، والدعاء، والتعظيم، والذبح، والتقرب من أنواع العبادة) فكله داخل في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فكل أنواع العبادة داخلة وخاصة بالله.

قوله: (ومن ذلك قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ **فإن تقديم الضمير هاهنا يفيد الاختصاص كما تقدم)**؛ أي: لا نستعين إلا بك، فهذا حصر للاستعانة بالله؛ لأنه هو المعين المطلق، وما عداه فهو يستحق الإعانة؛ لأنه فقير ومحتاج، فالإعانة المطلقة من الله، ومن لم يعنه الله فلا معين له، والضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير المخاطب، وهو الله وتقديمه على الفعل يفيد الاختصاص، وأن الاستعانة كلها تطلب من الله فيما لا يقدر عليه سواه؛ فمن لم يعنه الله فلا معين له.

قوله: (وهو يقتضي أنه لا يشاركه غيره في الاستعانة به في الأمور التي لا يقدر عليها غيره) الاستعانة والاستغاثة على نوعين: استغاثة في الأمور التي

فهذه خمسة مواضع في فاتحة الكتاب يفيد كلٌّ منها إخلاص التوحيد، مع أن فاتحة الكتاب ليست إلا سبع آيات، فما ظنك بما في سائر الكتاب العزيز، فذكرنا لهذه الخمسة المواضع في فاتحة الكتاب كالبرهان على ما ذكرناه من أن في الكتاب العزيز من ذلك ما يطول تعداده، وتتعسر الإحاطة به.

ومما يصلح أن يكون موضعًا سادسًا لتلك المواضع الخمسة في فاتحة الكتاب قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد تقرر لغةً وشرعًا أن العالم ما سوى الله ﷻ. وصيغ الحصر إذا تتبعتها من كتب المعاني والبيان والتفسير والأصول بلغت ثلاث عشرة صيغة فصاعدًا، ومن يشك في هذا فليتتبع كشاف الزمخشري، فإنه سيجد فيه ما ليس له ذكر في كتب المعاني والبيان؛ كالقلب، فإنه جعله من مقتضيات الحصر، ولعله ذكر ذلك عند تفسيره للطاغوت، وغير ذلك مما لا يقتضي المقام بسطه.

ومع الإحاطة بصيغ الحصر المذكورة تكثر الأدلة الدالة على إخلاص التوحيد، وإبطال الشرك بجميع أقسامه.

الشَّرْح

لا يقدر عليها إلا الله، فهذه لا تجوز إلا بالله؛ أما الاستعانة التي يقدر عليها المخلوق فإن الله قال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

قوله: (فما ظنك بما في سائر الكتاب العزيز) فالقرآن لا يُحاط بمعانيه، لكن كلٌّ يأخذ على قدر ما أعطاه الله ﷿ من العلم.

قوله: (ومن شك في هذا فليتتبع «كشاف الزمخشري»)؛ أي: تفسير الزمخشري، ففيه بدائع من المعاني والنكات اللغوية والبلاغية يُستفاد منها، أما في أمر العقيدة فهو معتزلي.

واعلم أن السائل ـ كثَّر الله فوائده ـ ذكر في جملة ما سأل عنه: أنه لو قصد الإنسان قبر رجل من المسلمين مشهور بالصلاح، ووقف لديه وأدّى الزيارة، وسأل الله بأسمائه الحسنى، وبما لهذا الميت من المنزلة، هل تكون هذه البدعة عبادة لهذا الميت، ويصدق عليه أنه قد دعا غير الله، وأنه قد عبد غير الرحمٰن، وسلب عنه اسم الإيمان، ويصدق على هذا القبر أنه وثن من الأوثان، ويُحكم بردة ذلك الداعي، والتفريق بينه وبين نسائه، واستباحة أمواله، ويُعامل معاملة المرتدين، أو يكون فاعلًا معصية كبيرة أو مكروهًا؟.

وأقول: إنا قد قدمنا في أوائل هذا الجواب أنه لا بأس بالتوسل بنبي من الأنبياء، أو ولي من الأولياء، أو عالم من العلماء. وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه.

فهذا الذي جاء إلى القبر زائرًا، ودعا الله وحده، وتوسل بذلك

الشَّرْح

قوله: (لا بأس بالتوسل بنبي من الأنبياء، أو ولي من الأولياء، أو عالم من العلماء) غلط من الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكره في أول الرسالة وأعاده هنا، يقول: يجوز أنك تتوسل بعمل الغير، وبصلاح الصالحين وبأعمالهم.

ونقول: هذا خطأ؛ لأن صلاح الصالحين لهم، فلا تتوسل به وإنما تتوسل بعملك أنت، وأعمالك الصالحة التي قدمتها، هذا الذي ورد به الدليل، أما أنك تتوسل بعمل غيرك وصلاحهم؛ فهذا لا دليل عليه ولا يجوز؛ لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة]، ذكر سبحانه ذلك موضعين من سورة البقرة؛ ليبين لنا سبحانه أنه لا ينفعك صلاح الصالحين، إذا لم تصلح أنت وتعمل أنت فلا ينفعك عمل غيرك.

الميت؛ كأن يقول: اللهم إني أسألك أن تشفيني من كذا، وأتوسل إليك بما لهذا العبد الصالح من العبادة لك، والمجاهدة فيك، والتعلم والتعليم خالصًا لك، فهذا لا تردد في جوازه.

لكن لأي معنى قام يمشي إلى القبر؟ فإن كان لمحض الزيارة، ولم يعزم على الدعاء والتوسل إلا بعد تجريد القصد إلى الزيارة، فهذا ليس بممنوع، فإنه إنما جاء ليزور. وقد أذن لنا رسول الله ﷺ بزيارة القبور بحديث: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا**» وهو في الصحيح. وخرج ﷺ لزيارة الموتى، ودعا لهم، وعلمنا كيف نقول إذا نحن زرناهم، وكان يقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْم مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ لَاحِقُونَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ**»، وهو أيضًا في الصحيح بألفاظ وطرق.

فلم يفعل هذا الزائر إلا ما هو مأذون به ومشروع، لكن بشرط أن لا يشد راحلته، ولا يعزم على سفره، ولا يرحل كما ورد تقييد الإذن بالزيارة للقبور بحديث: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةٍ...**»،

الشَّرْح

قوله: (فهذا لا تردد في جوازه) نقول هذا ليس بجائز، ولا تردد في تحريمه، فيوم القيامة: ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، والذي ورد في الأدلة أنك تتوسل بعملك، فالثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم هم، كما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

قوله: (وقد أذن لنا رسول الله ﷺ بزيارة القبور)، هذا صحيح لكن بشرطين:

أولًا: عدم السفر لزيارة القبور لقوله ﷺ: **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)**.

وهو مقيد لمطلق الزيارة، وقد خص بمخصصات منها زيارة القبر الشريف النبوي المحمدي على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم، وفي ذلك خلاف بين العلماء، وهي مسألة من المسائل التي طالت ذيولها، واشتهرت أصولها، وامتُحن بسببها من امتُحن، وليس ذلك هاهنا من مقصودنا.

وأما إذا لم يقصد مجرد الزيارة، بل قصد المشي إلى القبر ليفعل الدعاء عنده فقط، وجعل الزيارة تابعة لذلك، أو مشى لمجموع الزيارة والدعاء فقط، كان يغنيه أن يتوسل إلى الله بذلك الميت من الأعمال الصالحة من دون أن يمشي إلى قبره.

فإن قال: إنما مشيت إلى قبره لأشير إليه عند التوسل به، فيُقال له: إن الذي يعلم السر وأخفى، ويحول بين المرء وقلبه، ويطلع على خفيات الضمائر، وتنكشف لديه مكنونات السرائر، ....

الشَّرح

ثانيًا: أن يكون القصد السلام على الميت والدعاء له والاعتبار والاتعاظ بحال الموتى كما قال الشيخ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (كان يغنيه أن يتوسل إلى الله بما لذلك الميت من الأعمال الصالحة) بيَّنَّا أنه هذا خطأ من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولا فرق من كونه يمشي بقصد التوسل بالميت والدعاء عند القبر، أو كونه يقصد زيارة الميت الزيارة الشرعية ثم يبدو له إذا وصل إلى القبر أن يتوسل بالميت، أو يدعو عند قبره لنفسه، نقول: هذا لا يجوز، سواء جاء من أجله أو جاء لزيارة الميت ثم بدا له هذا القصد، لا فرق في هذا.

لا يحتاج منك إلى هذه الإشارة التي زعمت أنها الحاملة لك على قصد القبر، والمشي إليه. وقد كان يغنيك أن تذكر ذلك الميت باسمه العلم، أو بما يتميز به عن غيره، فما أراك مشيت لهذه الإشارة، فإن الذي تدعوه في كل مكان مع كل إنسان، بل مشيت لتُسمع الميت توسلك به، وتُعطف قلبه عليك، وتتخذ عنده يدًا بقصده وزيارته، والدعاء عنده، والتوسل به.

وأنت إن رجعت إلى نفسك وسألتها عن هذا المعنى فربما تُقر لك به فتصدقك الخبر، فإن وجدت عندها هذا المعنى الدقيق الذي هو بالقبول منك حقيق؛ فاعلم أنه قد علق بقلبك ما علق بقلوب عباد القبور. ولكنك قهرت هذه النفس الخبيثة عن أن تترجم بلسانك عنها، وتنشر ما انطوت عليه من محبة ذلك القبر والاعتقاد فيه،

الشَّرْح

وقوله: **(لا يحتاج منك إلى هذه الإشارة التي زعمت أنها الحاملة لك على قصد القبر)** يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: توسل بالميت ولو أنك في بيتك، ليس بلازم أن تمشي إليه، توسل به في أي مكان، والله يعلم ما في قلبك دون أن تشير إلى القبر، يقول: أذهب لأشير إليه، يقول: ليس هناك حاجة لهذا، فتوسل بالميت وأنت في مكانك! وهذا غلط، نقول التوسل بأعمال الغير لا يجوز، وإنما يتوسل الإنسان بأعماله الصالحة هو: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران]، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾ [آل عمران]، فهم توسلوا إلى الله بإيمانهم بالرسول ﷺ؛ لا بإيمان غيرهم، فالفرق واضح في هذا؛ لكن سبحان الله الإنسان بشر مهما كان من الفضل والعلم قد يحصل له الغلط.

والتعظيم له والاستغاثة به، فأنت مالك لها من هذه الحيثية، مملوك لها من الحيثية التي أقامتك من مقامك ومشت بك إلى فوق القبر، فإن تداركت نفسك بعد هذه وإلا كانت المستولية عليك المتصرفة فيك المتلاعبة بك في جميع ما تهواه مما قد وسوس به لها الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

فإن قلت: قد رجعت إلى نفسي فلم أجد عندها شيئًا من هذا، وفتشتها فوجدتها صافية من ذلك الكدر. فما أظن الحامل لك على المشي إلى القبر إلا أنك سمعت الناس يفعلون شيئًا ففعلته، ويقولون شيئًا فقلته. فاعلم أن هذه أول عقدة من عقود توحيدك، وأول محنة من محن تقليدك، فارجع تؤجر، ولا تتقدم تُنحر، فإن هذا التقليد الذي حملك على هذه المشية الفارغة العاطلة الباطلة سيحملك على أخواتها فتقف على باب الشرك أولًا، ثم تدخل منه ثانيًا، ثم تسكن فيه وإليه ثالثًا. وأنت في ذلك كله تقول: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، ورأيتهم يفعلون أمرًا ففعلته.

وإن قلت: إنك على بصيرة في علمك وعملك، ولست ممن ينقاد إلى هوى نفسه كالأول، ولا ممن يقهرها، ولكنه يقلد الناس كالثاني، بل أنت صافي السر، نقي الضمير، خالص الاعتقاد، قوي اليقين، صحيح التوحيد، جيد التمييز، كامل العرفان، عالم بالسنة والقرآن، فلا لمراد نفسك اتبعت، ولا في هوّة التقليد وقعت، ......

الشَّرْح

قوله: (وإن قلت: إنك على بصيرة...)؛ يعني: زكيت نفسك.

فقل لي بالله: ما الحامل لك على التشبه بعباد القبور، والتغرير على من كان في عداد سليمي الصدور، فإنه يراك الجاهل والخامل، ومن هو عن علمك وتمييزك عاطل، فيفعل كفعلك يقتدي بك، وليس له بصيرة كبصيرتك، ولا قوة في الدين مثل قوتك، فيحكي فعلك صورة، ويخالفه حقيقة، ويعتقد أنك لم تقصد هذا القبر إلا لأمر، ويغتنم إبليس اللعين غربة هذا المسكين الذي اقتدى بك، واستن بسُنتك، فيستدرجه حتى يبلغ به إلى حيث يريد، فرحم الله امرءًا هرب بنفسه عن غوائل التقليد، وأخلص عبادته للحميد المجيد.

وقد ظهر بمجموع هذا التقسيم أن من يقصد القبر ليدعو عنده هو أحد ثلاثة:

الشَّرْح

قوله: (فقل لي بالله) هذا هو الجواب، يقول: لا تزكي نفسك وإن كنت عالمًا وإن كنت موحدًا، بل ابتعد عن وسائل الشرك.

قوله: (فإنه يراك الجاهل والخامل، ومن هو عن علمك وتمييزك عاطل) أي فإنك وإن كنت نقيًا وموحدًا ولا تقصد المقاصد السيئة؛ تكون قدوة للآخرين والجهال فيقتدون بك، لكن قبل ذلك هذا وسيلة إلى الشرك.

قوله: (فرحم الله امرأ هرب بنفسه عن غوائل التقليد، وأخلص عبادته للحميد المجيد) كلام جيد، لكنه ليته عممه على الدعاء عند الميت والتوسل بالميت ومنع الجميع، لكان أحسن، بل هو الواجب.

قوله: (وقد ظهر بمجموع هذا التقسيم أن من يقصد القبر ليدعو عنده هو أحد ثلاثة) هذا تلخيص لما سبق ليس فيه زيادة، تلخيص لما سبق فقط.

إن مشى لقصد الزيارة فقط، وعرض له الدعاء، ولم يحصل بدعائه تغرير على الغير فذلك جائز.

وإن مشى لقصد الدعاء فقط، أو له مع الزيارة، وكان له من الاعتقاد ما قدمنا فهو على خطر الوقوع في الشرك، فضلًا عن كونه عاصيًا.

وإذا لم يكن له اعتقاد في الميت على الصفة التي ذكرنا فهو عاص آثم، وهذا أقل أحواله، وأحقر ما يربحه في رأس ماله.

وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية، والله ولي التوفيق.

الشَّرح

قوله: (ولم يحصل بدعائه تغرير على الغير فذلك جائز) نقول: ليس هذا بجائز؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، ولم يرد أن الرسول أو الصحابة أو السلف الصالح يدعون لأنفسهم عند القبور، بل يدعون الله في المساجد ولا يذهبون إلى القبور ليدعوا لأنفسهم، ولذلك ينكرون على من وقف عند قبر النبي ﷺ يدعو، ويقولون: ادع الله في المسجد، ولا تدع عند قبر الرسول ﷺ، ولا عند قبر غيره.

قوله: (فهو على خطر الوقوع في الشرك، فضلًا عن كونه عاصيًا) نقول: والأول أيضًا على خطر من الوقوع في الشرك، لا فرق بينهما.

* * *

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد والحمد لله ربِّ العالمين، وغفر الله لنا وللإمام الشوكاني على ما قدم في هذه الرسالة من توضيح العقيدة الصحيحة وإخلاص التوحيد لله، وإن كان أخطأ في هذه المسألة فالله يغفر له ويتجاوز عنا وعنه.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة